



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُؤَيْيْفِ الْقِزْصَاوِيِّ

المجلد الحادي والخمسون





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

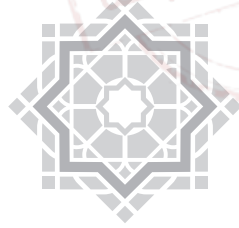
الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م



للطباعة والنشر والتوزيع

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقِزْبِيَّائِيِّ



الْجُورُ الْخَامِسُ

الْقُرْآنُ وَعُلُومُهُ وَتَفْسِيرُهُ

٩٨ تفسير سورة إبراهيم

٩٩ تفسير سورة الحجر



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْظَاوِيِّ

المحور الخامس

القرآن وعلومه وتفسيره

٩٨

تفسير سورة إبراهيم

الإمام يوسف القرظاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٣، ٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ * وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٥].

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَخَسِبَنَّ اللَّهُ مُخِلَفٌ وَعْدِهِ رُسُلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٧].

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش». رواه البخاري.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلّم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرُّشد، رحمة الله للعالمين، ونعمته على المؤمنين، وحبّته على النّاس أجمعين، سيّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمّد، وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتّبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون، ورضي الله عنّ دعا بدعوته، واهتدى بسنّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

(أمّا بعد)

فكتاب الله ﷻ هو النور الهادي، وهو البلسم الشافي، هو الذي يهدي للتي هي أقوم، من قال به صدق، ومن علم علمه سبق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديّ إلى صراطٍ مستقيم، فيه نبأ ما قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما بيننا، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله.

هو المرجع الأول والأساس للإسلام: تشريعًا وتوجيهًا ودعوة وتربية

وتعليمًا، فلا عجب أن نحيا مع القرآن العظيم، نقبس من سناه، ونهتدي بهداه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

هو أفضل ما يعيش الإنسان في ظلّه وفي رحابه، ليتفقّه في دين الله، ويفهم عن الله وعَجَلٍ، ماذا يريد منه، وماذا يحبّه ويرضاه؟

من أراد أن يعرف الإسلام، ويفهم الإسلام فليعرفه من مصادره المنقّاة، ومن ينابيعه الصافية، وأعظم ينبوع في الإسلام: هو القرآن.

السُّنّة يُحتجُّ على أنّها مصدر بالقرآن، والإجماع احتجُّوا عليه بالقرآن، والقياس احتجُّوا عليه بالقرآن، كلّ المصادر تستمدُّ حجّيتها من القرآن الكريم، فلهذا كان التوجّه إلى القرآن، نستقي منه، ونهتدي بهداه، ونقتبس من سناه، فهذا هو واجب العلماء والمعلمين والفقهاء والدعاة جميعًا.

لقد اخترنا سورة نعيش في رحابها - هي سورة (إبراهيم) - نفَسِّرها تفسيرًا تحليليًا، كما يقول علماء التفسير.

تقسيم علم التفسير إلى قسمين:

قسّم العلماء التفسير أو (فنّ التفسير) إلى قسمين:

النوع الأول: التفسير الموضوعي

قسم سمّوه (التفسير الموضوعي)، ومعناه: أن نبحث عن موضوع معيّن في القرآن الكريم كلّّه، نبحث مثلاً عن (المال في القرآن)، في كل

سور القرآن مكيّه ومدنيه، نبحت عن المال، وموقف القرآن من المال، هل يكره المال؟ أو يحبه؟ هل يحثُّ على كسبه؟ وبأي طريقة يكتسب؟ وهل يحثُّ على تنميته؟ وبأي طريق ينمّي؟ نبحت عن توزيعه، وعن إنفاقه، إلى آخره.

نبحت مثلاً عن (الإنسان في القرآن)، و(المرأة في القرآن)، و(الأسرة في القرآن)، و(الأخوة في القرآن)، و(الأبوة في القرآن)، و(البنوة في القرآن)، مئات المواضيع، وربّما آلاف المواضيع في القرآن. هذا نوع من التفسير يبحث عن مفهوم معيّن ويخدمه بتتبّع آيات القرآن الكريم.

وقد أصدرتُ كتابين في التفسير الموضوعي، كتاب في القديم اسمه: (الصبر في القرآن الكريم)، وكتاب آخر اسمه: (العقل والعلم في القرآن).

وهناك علماء أصدروا كتباً، منهم الشيخ محمود شلتوت رَحِمَهُ اللهُ، أصدر كتاباً موجزاً سمّاه: (القتال في القرآن الكريم)، والعلامة الشيخ محمّد عبد الله دراز أصدر كتاب (دستور الأخلاق في القرآن الكريم)، والأستاذ العقاد أصدر كتاباً سمّاه: (الإنسان في القرآن الكريم)، و(المرأة في القرآن الكريم). ولا زال الناس يصدرون في التفسير الموضوعي كتباً، وأحياناً يقدمون أطروحات للماجستير وللدكتوراه، تتناول موضوعاً من موضوعات القرآن، فهذا نوع من التفسير ربّما نعرّج عليه فيما بعد.

النوع الثاني من أقسام التفسير: التفسير التحليلي

و(التفسير التحليلي): هو الذي يتبّع السورة آية آية، والآية: كلمة كلمة، ويحلّل ألفاظها ومعانيها، وما يستنبط منها. وهذا هو الذي نسير

عليه، وقد سَرَّنا عليه في (تفسير سورة الرعد) قبل هذا، ونسير عليه بعد سورة الرعد في (تفسير سورة إبراهيم).

ما أحوجنا أن نلتقي دائماً على كتاب الله! خصوصاً في هذا العصر الذي يحاول فيه محاولون أن يحرفوا القرآن عن مواضعه، لم يستطيعوا أن يزيّدوا في القرآن ولا أن ينقصوا منه؛ لأنّ القرآن كتاب محفوظ، تولّى الله حفظه بنفسه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

ولذلك هو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، متلوّ بالألسنة، يحفظه عشرات الألوف، ومئات الألوف من أبناء المسلمين وبنات المسلمين، ولكن إذا لم يستطع المُعْرِضُونَ أن يزيّدوا عليه أو ينقصوا منه، يستطيعون أن يضلّلوا الناس بقراءات سمّوها (قراءات جديدة للقرآن)، هذه القراءات الجديدة تخرج علينا بإسلامٍ جديد، وبدينٍ جديد، لم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم، ولا التابعون لهم بإحسان، ولا أتباع التابعين، ولا الأئمة الراسخون في القرون الأولى، جاؤوا بإسلامٍ جديدٍ نتيجة هذه التفسيرات أو هذه القراءات.

كل منهم يقرأ القرآن وفق فلسفته، وفق فكره، وفق ثقافته، وفق هواه، أو هوى الذين يتبعونهم بغير علم.

هناك من يفسّر القرآن تفسيراً ماركسيّاً، هناك من يفسر القرآن تفسيراً ليبراليّاً، هناك من يفسر القرآن تفسيراً أمريكيّاً، هناك من يفسر القرآن تفسيراً روسيّاً.

هناك قراءات مختلفة للقرآن الكريم، لا تسير على منهج، وإنّما تسير

على أهواء أصحابها، حتّى إنّ مؤتمراً عُقد منذ مدّة في باريس للنسويّة الإسلاميّة، هؤلاء النسوة اللائي اجتمعن يُردنّ تفسيراً جديداً للنصوص، خصوصاً لنصوص القرآن، وهنّ يقلن: إنّ التفسيرات الموجودة للقرآن الكريم كلّها تفسيرات ذكورية، الرجال هم الذين فسّروا القرآن، نريد تفسيرات نسويّة. المرأة هي التي تفسّر القرآن!

وهكذا أصبحنا نجد أناساً يتلاعبون بهذا القرآن، ومن ثمّ يتلاعبون بهذا الدين، يمكن أن يكون لكلّ بلد تفسير، ولكلّ بلد دين، بل لكلّ مجموعة دين، بل لكلّ شخص دين، وفّق قراءته للقرآن، ولذلك كان على أهل العلم وأهل الفكر الذين يملكون مؤهلات التفسير: أن يقوموا بتفسير القرآن، ليس تبعاً للهوى، وليس مجرد رأي مطلق.

القواعد الحاكمة للتفسير:

هناك قواعد حاكمة للتفسير:

١ - تفسير القرآن بالقرآن:

أول هذه القواعد: أن تُفسّر القرآن بالقرآن، التفسير القرآني للقرآن، والقرآن يُفسّر بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ما أجملَ في موضع يُفصّل في موضع آخر، وما أبهمَ في مكانٍ يفسر في مكانٍ آخر، وما غمّمَ في سورةٍ يُخصّص في أخرى، وما أطلق في ناحيةٍ يُقيّد في ناحيةٍ أخرى، والقرآن لا بدّ أن يؤخذ بمجموعه، لا تؤخذ جملة منه وتترك النصوص الأخرى، لا بدّ أن يفسّر القرآن بالقرآن.

٢ - تفسير القرآن بصحيح السُّنة:

ثاني هذه القواعد: أن نُفسِّر القرآن بما صحَّ في سُنَّة النبي ﷺ، فهو المكلف من الله تعالى ببيان القرآن: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، هو المُبيِّن بقوله وعمله وتقريره حقائق القرآن الكريم.

٣ - الاهتداء بتفسير السلف:

وثالثها: أن نهتدي بتفسير السلف: تفسير الصحابة، وتفسير التابعين، وتفسير الأئمة، خصوصاً ما أجمعوا عليه. وما لم يجمعوا عليه، لنا أن نختار من تفسيرهم، ولنا أن نُخالفهم أيضاً، ولكن متَّبِعِينَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، ننظر للنص من خلال سياقه، مستعينين بأسباب النزول.

السلف حينما فسَّروا القرآن لم يُفسِّروه بأهوائهم، ولذلك لا يُمكننا أن نضرب بهذا التراث التفسيري عُرض الحائط، كما قال بعضهم بكلِّ جرأة: لا الصحابة، ولا التابعون، ولا المفسِّرون بالرواية أو الدراية، لا يُهْمُنِي هذا كُلُّهُ، أنا أبدأ تفسير القرآن من جديد!

يقول أحدهم: «إنَّ القارئ يلاحظ بشكلٍ واضحٍ أننا في فهمنا للكتاب نقف على أرضية القرن العشرين دون إغفال التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع الكتاب (التفاسير والمذاهب الفقهية)، حيث كانت نظرنا لهذه الأدبيات على أنَّها تفاعل تاريخي مع الكتاب، ولذا فإنَّها تدخل ضمن التراث العربي الإسلامي.

فالفقه الإسلامي الموروث يعكس المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مرحلة تاريخية معينة، والتفاسير تعكس الأرضية المعرفية



للمرحلة التاريخية التي كتب فيها التفسير، واعتبرنا أنها لا تحمل طابع القدسيّة»^(١)!

كأنّه لم تكن هناك أمة إسلاميّة خدمت هذا القرآن طوال القرون، ويبدأ من جديد، ويزعم أنّه أعلم من الصحابة، أعلم من ابن عباس، وأعلم من ابن مسعود، وأعلم من أبي بكر وعمر، وأعلم من عليّ بن أبي طالب، وأعلم من سائر الصحابة، وأعلم من تلاميذ الصحابة ممّن تبعوهم بإحسان، من أمثال: قتادة، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وغير هؤلاء جميعاً، هذا هو الخطر الذي يتعرّض له القرآن اليوم.

٤ - تدبّر القرآن بعقليتنا المعاصرة:

ولا بدّ لنا نحن المسلمين اليوم من تدبّر القرآن كما يتدبّره كلّ عالم معاصر، يريد أن يفهم القرآن، كما أنزله الله، وكما فهمه رسوله، وكما تعلّمه أصحابه، وكما يهدي إليه نهجه، بينات من الهدى والفرقان، لا يطغى في الميزان، ولا يسرق في الميزان، بل يقيم الوزن بالقسط ولا يُخسر الميزان. فهو لهذا يأخذ ويعطي، ويتعلّم ويعلم، ويُبَيِّن ويقسط، وهو ما يدلّ على المنهج الوسط الذي ندعو إليه الأُمَّة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

نحن في حاجة إلى أن نتدبّر القرآن، إذا فسّرنا القرآن نحن نتدبّره، كما أمرنا الله، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]،

(١) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة لمحمد شحرور ص ٤٤، نشر الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٠م.

﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾
 [النساء: ٨٢]، ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾
 [ص: ٢٩].

وهذا تفسير سورة إبراهيم، وقد فسرنا من قبل سورة الرعد، سائلين
 الله تعالى أن يُلهمنا رشدنا، وأن يُعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا،
 وأن يزيدنا علماً، وأن يكتب لنا التوفيق علماً وعملاً، آمين.

الفقير إلى الله تعالى يوسف القرضاوي

الدوحة في: ٨ شعبان ١٤٣٣هـ
 الموافق لـ ٢٨ يونيو ٢٠١٢م



بين يدي السورة

سورة إبراهيم سورة مكِّيَّة، وعدد آياتها: اثنتان وخمسون آية^(١).

هل أسماء السور توقيفية؟

وتسميات السور بعضها توقيفي، وبعضها غير توقيفي، بعض سور القرآن سمّاها النبي ﷺ مثل: سورة البقرة، وسورة آل عمران، كما في الحديث: «اقرأوا الزّهُرَ أوين: البقرة وآل عمران؛ فإنّهما يأتيان يومَ القيامة كأنّهما غمامتان»^(٢).

ولكن هناك تسمية من الصحابة أو من التابعين، والتسمية لها أسبابها، حينما تُسمّى هذه السورة «سورة إبراهيم»، فهي تسير على النهج الذي سُمّيَتْ به السور ذوات: ﴿الر﴾.

السور ذوات ﴿الر﴾:

أول سورة من ذوات ﴿الر﴾، سورة يونس، سُمّيَتْ بذلك؛ لأنّه ذكر فيها نبيُّ الله يونس: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

(١) وهي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف.

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦)، عن أبي أمامة.

وهناك سورة هود بعدها، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّه تكرر فيها اسم هود عليه السلام، وإن كان فيها ذكر عددٍ من الأنبياء، وفيها قصَّة نوحٍ بتفصيل، ولكن نوحًا عليه السلام ذكرت له سورة أخرى، كلُّها تتحدَّث عن نوحٍ سُمِّيت سورة نوح، وهناك سورة يوسف، وهذه التسمية واضحة؛ لأنَّ السورة كلُّها تتحدَّث عن قصَّة يوسف، ذكرت في موضع واحد من القرآن من أولها إلى آخرها، ثمَّ سورة الرعد، وجاءت هذه السورة: سورة إبراهيم، وبعدها سورة الحجر، حجرٍ ثمود.

وسُمِّيت سورة إبراهيم؛ لأنَّها ذكرت قصَّة إبراهيم وذريَّته، الذين أسكنهم بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيت الله المحرَّم، في مكَّة المكرمة.

التأمُّل في أسماء سور القرآن:

من يتأمَّل في سُور القرآن وتسمياتها، يجد أنَّها شملت كلَّ شيء، أحيانًا سُور سُمِّيت بأسماء الأشخاص:

الأنبياء: كيونس، وهود، ويوسف.

وغير الأنبياء، مثل: مريم عليها السلام ولقمان.

وهناك سُور سُمِّيت بأسماء الأقاليم: كآل عمران، وقريش.

وأسماء الأماكن: كالحجر، والكهف، والطور.

وأسماء الحيوانات: كالبقرة، والفيل.

وأسماء الحشرات: كالنمل، والنحل، والعنكبوت.

وأسماء الأزمنة: كالفجر، والليل، والضُّحى.

وأسماء الظواهر الطبيعيَّة: كالرعد، والنور. وغير ذلك من الأسماء.

الدرس الأول

الكتاب المنزل: وظيفته وموقف الناس منه

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ١ - ٤].

الحروف المقطعة في بداية بعض سور القرآن العظيم:

سورة إبراهيم تبدأ بقوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿الر﴾: حروف مقطعة بدأت بها أعداد من سور القرآن الكريم، واختلف المفسرون في بيان معناها، وعلام تدلُّ، وذكرنا هذا في تفسير سورة الرعد، ولا نريد أن نعيد ما قلناه هناك^(١).

وخلاصة ما رجَّحه المفسرون: أنَّ هذه الحروف المقطعة:

(١) انظر: تفسير سورة الرعد ص ٦٥ - ٦٨، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

﴿المر﴾ ﴿كهيعص﴾ ﴿طسم﴾: هذه الحروف التي ينطق بها العرب، هي التي جاء بها القرآن، الذي أعجزكم أن تأتوا بحديثٍ مثله، أو بعشر سورٍ مثله مفترياتٍ، أو بسورةٍ مثله، والقرآن مؤلفٌ من هذه الحروف، فكانت هذه الحروف إشارةً إلى الإعجاز القرآني.

ما الذي أعجزكم أيُّها العرب، وأنتم فرسان البلاغة، وأنتم رجال الشعر والأدب والبيان، ما الذي أعجزكم أن تأتوا بمثل هذا القرآن، الذي تحدّاكم محمّد أن تأتوا بسورةٍ من مثله؟ لا يمكن إلا أن يكون هذا القرآن من عند الله عزّ وجلّ.

انتقاء الحروف المقطعة:

ولكن يبقى هناك أمر: سلّمنا بأنّ هذا إشارة إلى الإعجاز القرآني، ولكن لماذا اختار الله ﷻ أن تبدأ هذه السورة بـ ﴿المر﴾، وليس بـ ﴿الم﴾؟ لماذا اختار لهذه: ﴿حم﴾ وهذه ﴿طس﴾؟

ففي القرآن سور بدأت بحرف واحد، مثل: ﴿ق﴾، ﴿ن﴾، ﴿ص﴾.

وأحياناً بحرفين، مثل: ﴿حم﴾، ﴿طس﴾، ﴿طه﴾، ﴿يس﴾.

وأحياناً ثلاثة حروف: ﴿المر﴾، ﴿طسم﴾.

وأحياناً أربعة حروف: ﴿المر﴾، ﴿المص﴾.

وأحياناً خمس حروف: ﴿حم﴾ * ﴿عسق﴾، ﴿كهيعص﴾.

فلماذا يختار لهذه السورة ثلاثة أحرف: ﴿المر﴾، ولم يختار لها مثلاً ﴿طسم﴾؟ يظلُّ هنا أمر نقول فيه: الله أعلم بمراده، مهما حاولنا أن

نذكر الحكمة، لا نستطيع أن نُفسّر تخصيص سورة بحرف أو حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة.

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا رسول الله، هذا القرآن الذي تتلوه على الناس لتبيّنه لهم: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، فالقرآن كتاب. للأسف هناك بعض المتعالمين الذين يعيشون في فرنسا وغيرهم ويدعون العلم باللسانيات^(١)، والأبستمولوجيا^(٢) والثيولوجيا^(٣) ونحو ذلك، يقولون: إنَّ القرآن نصّ شفهي، وهذه الدعوى ليست صحيحة، لأنَّ القرآن نصّ مكتوب، الله سبحانه سمّاه كتابًا كما سمّاه قرآنًا. فهو قرآن لأنّه يقرأ، وكتاب لأنّه يكتب.

من أول ما أنزل القرآن على محمّد ﷺ، كان هناك كُتّاب للوحي، وكان النبي ﷺ يأمرهم أن يسجّلوه في الحال على ما تيسّر لهم. لم يكن الورق متيسّرًا، وإنّما يكتبونه على العظام، وعلى سعف النخل، وعلى الرقاع، وعلى الحجارة، كُتّاب متعدّدون يكتبونه، ويبدأ الصحابة بحفظه. فهو كتاب، ولذلك كثيرًا ما يُسمّيه بالكتاب، في سورة يونس: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

وفي سورة هود: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

(١) علم اللسانيات (Linguistics): هو العلم الذي يهتم بدراسة اللغات الإنسانية.

(٢) الأبستمولوجيا (Epistemology): علم نظرية المعرفة.

(٣) الثيولوجيا (Theology): علم العقائد.

وفي سورة الرعد: ﴿الْمَرْ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ١].

وفي سورة الحجر: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

وفي الحواميم والطواسين: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢، القصص: ٢]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [البجائية: ٢، الأحقاف: ٢]، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ٢، الدخان: ٢]. فالقرآن كتابٌ، وهذه حقيقة معروفة. كتب منذ عهد النبي ﷺ، وإن لم يجمع في مصحفٍ واحد.

السُّرُّ في عدم جمعه في مصحفٍ واحد:

لماذا لم يجمع في مصحفٍ واحد؟

لأنه كان يتنزل فقرّة بعد فقرّة، جبريل رَوَّاحُ غَدَاً بآيات الله، كيف يكتب في مصحفٍ وهو لم ينته بعد؟ تنزل الآية ويقول له: ضعها في سورة كذا بعد آية كذا، وهكذا، فما دام القرآن ينزل لا يمكن أن يوضع في مصحف بين دفتين، ولذلك بعد وفاة الرسول جُمِعَ فعلاً في صحف، السور كلّها مرتّبة، ووُضِعَ في بيت أبي بكر حتى تُوفِّي، ثمّ في بيت عمر بن الخطاب حتى توفي، ثمّ في بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها.

جمع القرآن في عهد أبي بكر:

روى البخاري في صحيحه، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليّ أبو بكر لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إنّ عمر أتاني، فقال: إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنّي أخشى أن

يستحرّ القتل بالقُرّاء في المواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن.

فقلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسولُ الله؟

قال عمر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتّى شرح الله لذلك صدري، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنّك شابٌّ عاقلٌ لا تتهمُك، وقد كنتَ تكتب الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآنَ فاجمعه.

فوالله لو كلّفوني نقلَ جبلٍ من الجبال، ما كان أثقلَ عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعّلان شيئاً لم يفعله رسولُ الله ﷺ؟

قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتّى شرح الله صدري للذي شرح له صدرُ أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآنَ أجمعه من العُشب، واللّخاف^(١)، وصدورِ الرجال، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩] حتّى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتّى توفاه الله، ثمّ عند عمر حياته، ثمّ عند حفصة بنت عمر^(٢).

(١) العُشب: جريد النخل، جمع عَسَب. واللخاف: الحجارة البيض العريضة الرقيقة، جمع لَخْفَة. انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري (١٠٢/٢، ٤٣١)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢.

(٢) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩١)، عن زيد بن ثابت.

جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

ثم لما اختلف الناس في القراءات، لدخول كثير من العجم في الإسلام، ونتيجة الأحرف التي أنزل بها القرآن، وكذلك اختلاف لغات القبائل بعضها مع بعض، وهذا يقول: قرآني أصح من قرآنك، وقراءتي أصح من قراءتك.

فجمع عثمان في خلافته الناس على مصحف واحد باستشارة الصحابة رضي الله عنهم وبإجماعهم، وهو ما يُسمى بـ«مصحف الإمام»، بالرسم العثماني، وهو رسم يصلح للقراءة بالقراءات العشر. ولا زال القرآن الذي كُتب في عهد عثمان، وبإقرار الصحابة جميعاً، لا زال هو الذي نقرؤه الآن، فهو كتاب الله.

هل الكتاب غير القرآن؟

نحن في أصول الفقه وفي الفقه نقول: مصدرنا الأول الكتاب والسنة، أو الكتاب ثم السنة، نقول: الكتاب. حتى قلنا نقول القرآن. هنا يقول الله عز وجل: ﴿كَتَبَ﴾ [إبراهيم: ١]، وهل الكتاب غير القرآن؟

زعم بعضهم ذلك، مثلما فعل مهندس سوري ألف كتاباً قال فيه: الكتاب شيء، والقرآن شيء آخر، والذكر شيء آخر، والفرقان شيء آخر. وقال: الفرقان من خصائصه كذا، والذكر كذا، والقرآن كذا^(١)!

وهذا كذب، الكتاب هو القرآن، والقرآن هو الكتاب، الله تعالى يقول: ﴿حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٣]. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي هو القرآن، ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

(١) وقد جمع شبهاته هذه في كتابه الذي سَمَّاه: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة.

وفي سورة يوسف: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١، ٢]. ﴿أَنْزَلْنَاهُ * أَي: الكتاب﴾ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وفي سورة الزخرف: ﴿حَمْ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣].

وفي سورة فصلت: ﴿حَمْ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣]، كتاب فُصِّلَتْ آياته قرآنًا عربيًّا، ففي نفس الآية ذكر الكتاب والقرآن.

فهؤلاء المتعالمون الذين جاؤونا على آخر الزمن، وجاؤوا بما لم يقل به عالم طوال أربعة عشر قرنًا، ويزعمون أنهم الذين يفهمون القرآن وحدهم، جاؤوا بقرآن جديد غير القرآن الذي فهمه محمد ﷺ، والصحابة! هم فهموا ما لم يفهمه رسول الله ﷺ!

القرآن هو الكتاب، والكتاب هو الذكر، يختلف المفهوم ويتفق الماصدق^(١)، كما نقول في علم المنطق، يعني: الأسماء لها مفهومات مختلفة، ولكن تصدق على شيء واحد، فمثلاً السيف له أسماء كثيرة: السيف، الحسام، الصارم، البتار، كل هذه الأسماء لها معنى، ولكن هذا كله هو الماصدق. والموضوع واحد، فالذكر هو القرآن، والكتاب هو القرآن، والفرقان هو القرآن.

ونجد ذلك في سياق واحد، فالله تعالى يقول في سورة فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ * أَي: الذكر﴾ ﴿لَكِنَّا عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ

(١) يطلق لفظ (المفهوم) في اصطلاح المناطق على مجموعة الصفات والخصائص المشتركة

بين الأفراد التي تميزهم عن غيرهم.

ويطلق لفظ (الماصدق) على مجموع الأفراد الذين يشتركون في تلك الصفات.

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ [فصلت: ٤١، ٤٢]. ثُمَّ قَالَ
بعدها: ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]،
فالذكر هو الكتاب وهو القرآن.

هؤلاء الذين يأتوننا بأشياء لا دليل عليها ولا يقوم عليها برهان
قطعي، يخالفون الأمة كلها، في عصورها المختلفة، يخالفون المفسرين
والفقهاء، والمحدثين والمتكلمين، واللغويين وكل علماء الأمة، يأتي
هؤلاء ويزعمون أنهم هم الذين يعرفون الصواب، ويملكون الحقيقة
وحدهم.

أسماء القرآن وأوصافه:

نقل الإمام الزركشي عن أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك
المعروف بشيدلة في كتابه «البرهان»: «اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة
وخمسين اسمًا: سمّاه كتابًا ومبينًا في قوله: ﴿حَمِّمَ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿
[الزخرف: ١، ٢ والدخان: ١، ٢].

وقرآنًا وكريمًا في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

وكلامًا: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ونورًا: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وهدى ورحمة: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [القمان: ٣].

وفرقانًا: ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانِ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وشفاء: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وموعظة: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].



- وذكرًا ومباركًا: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].
- وعليًا: ﴿وَلِنَاهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].
- وحكمة: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥].
- وحكيماً: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].
- ومهيماً: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].
- وحبلاً: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- وصراطاً مستقيماً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٥٣].
- وقيماً: ﴿قِيَمًا لِّيُنذَرَ﴾ [الكهف: ٢].
- وقولاً فصلاً: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣].
- ونبأً عظيماً: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ [النبا: ١، ٢].
- وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهًا: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْلَانِ﴾ [الزمر: ٢٣].
- وتنزيلاً: ﴿وَلِنَاهُ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].
- وروحاً: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].
- ووحياً: ﴿إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥].
- وعربياً: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].
- وبصائر: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].
- وبياناً: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].



- وعلمًا: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥].
- وحقًا: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].
- وهاديًا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: ٩].
- وعجبًا: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].
- وتذكرة: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ﴾ [الحاقة: ٤٨].
- والعروة الوثقى: ﴿أَسْتَمْسِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].
- وصدقًا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣].
- وعدلاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].
- وأمرًا: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥].
- ومناديًا: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].
- وبشرى: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ [النمل: ٢].
- ومجيدًا: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].
- وزبورًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].
- وبشيرًا ونذيرًا: ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ٤، ٣].
- وعزيزًا: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].
- وبلاغًا: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].
- وقصصًا: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

وسمّاه أربعة أسماء في آية واحدة: ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣، ١٤] انتهى^(١).

إنزال الكتاب:

﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾: الله ﷻ يتحدث عن نفسه بلغة التعظيم، ومن أعظم من الله؟ القرآن يقول دائماً: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، لا يقول: أنا خلقتكم، وإنما يقول: ﴿إِنَّا﴾، سبحانه هو خالق الخلق، ومالك الملك، ومدبر الأمر.

والنزول عادة يكون حركة من أعلى إلى أسفل، والقرآن نزل من السماء إلى الأرض، بل نزل من اللوح المحفوظ من أعلى العلى إلى هذه الأرض، من الله إلى الخلق، والله سبحانه يقول: ﴿وَلِئِنْ أُرِيتُ الْكِتَابَ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، القرآن وصفه الله بأسمائه الحسنی.

العلي الحكيم من أسماء الله، ولذلك القرآن وصف بأنه ﴿عَلِيٌّ﴾، وبأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ وبأنه مجيد ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]، وهو عزيز ﴿وَلِئِنْ لَكَتَبُّ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وهو كريم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وهو نور ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وهو عظيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

(١) أسماء القرآن الأساسية أربعة: (القرآن، والكتاب، الفرقان، الذكر) وبقية ما نقله الزركشي هي أوصاف لهذه الأسماء. انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/٢٧٣، ٢٧٤)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ط ١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

كيفية نزول القرآن الكريم:

فما معنى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾؟ أنزلناه من اللوح المحفوظ، من أم الكتاب إلى السماء الدنيا؟ هكذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما فيما صح عنه من عدة طرق أنه قال: أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرق في السنين. قال: وتلا هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]. قال: نزل متفرقا، أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا^(١).

وابن عباس لا يمكن أن يقول هذا الكلام من رأيه، كيف يعرف هذا، وهذا من أنباء الغيب؟ ولذلك قالوا: إذا قال الصحابي رأيا أو تفسيرًا لا مجال للرأي فيه، ولم يكن ممن عُرِفَ بالأخذ عن أهل الكتاب، اعتبر هذا الحديث الموقوف على الصحابي في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ. ولذلك نحن نقول: إنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، واللييلة التي نزل فيها هي ليلة القدر، ليلة نزول القرآن من السماء من أعلى عليين، من أم الكتاب، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

تفسير ابن عباس لكيفية نزول القرآن الكريم:

سئل ابن عباس: كيف يكون القرآن نزل في ليلة القدر، والقرآن نزل في رمضان، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؟ القرآن نزل في رمضان، وفي شوال، وفي ذي الحجة والمحرم وصفر - ينزل طوال السنة - كيف ينزل في ليلة القدر؟ قال رضي الله عنه: أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا^(٢).

(١) رواه الحاكم في التفسير (٤٧٧/٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١٦٢٥)، والحاكم (٢٢٢/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

وبعض العلماء الذين لم يرضوا بهذا التفسير قالوا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، يعني: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، يعني أول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ولذلك قال بعضهم: سبعة عشر من رمضان هي ليلة القدر^(١).

نزول القرآن وتنزلاته:

نحن نقبل ما جاء عن ابن عباس أن القرآن نزل أولاً إلى السماء الدنيا، ثم بعد ذلك بعدما قرب من الأرض أصبح ينزل حسب الوقائع والحوادث في حوالي ثلاث وعشرين سنة، كلما حدثت حادثة ينزل فيها القرآن، يعلم الناس ويجيب عن تساؤلاتهم، ويحل مشكلات المجتمع الجديد والأمة الجديدة التي يبينها رسول الله ﷺ على أسس قرآنية: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

الأول: إنزال من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

الثاني: نزوله حسب الوقائع والحوادث، وهو ما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلُ﴾ أي: نزلناه تنزيلاً حسب الوقائع؛ لأن كلمة ﴿تَنْزِيلُ﴾ معناها التفعيل، وهو يفيد الكثير، كثرة النزول، مرة بعد مرة، وحالة بعد حالة.

﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، لم تُنشئه أنت ولم تصنعه، بل أنزل عليك، ليس لك منه إلا أن تتلقاه ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

(١) رواه عبد الرزاق في الصيام (٧٦٩٧)، وابن أبي شيبة في الصلاة (٨٧٧٢)، عن ابن مسعود موقوفاً عليه.

وتحفظه وتبلغه إلى الأمة: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وتبينه للناس: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].
وتطبّقه عليك؛ لأنّ بيانك ليس بمجرّد القول ولكن بالعمل، عليك أن تبين هذا القرآن وتطبّقه، لأنك الأسوة لهذه الأمة.

عدم توقع الرسول نزول القرآن عليه:

فالرسول أنزل إليه هذا الكتاب، ليس له دخل فيه، وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِنَّا وَلَآ أَلِيمُنْ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

أنزل إليه الكتاب، وما كان يتوقّع، ولذلك حينما نزلت الآيات الأولى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، حينما ضمّه جبريل وغطّه غطاءً قوياً، فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطّني حتّى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني. فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية، حتّى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة، ثمّ أرسلني. فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]»، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتّى ذهب عنه الروع^(١). ما كان يتوقّع هذا!

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، عن عائشة.

أنزل إليه وما كان يرجوه وما كان يتوقعه، ما له دخل فيه، ولذلك أحياناً يبطئ عليه الوحي، لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ينتظر حتى يأتيه الوحي.

عالمية الرسالة المحمدية:

﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: الأنبياء جاؤوا ليخرجوا أقوامهم من الظلمات إلى النور، كما قال الله تعالى لموسى: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥].

ومحمد ﷺ لم يبعث لقومه خاصة، وإنما بُعث إلى الناس كافة، وهذا من خصائصه ﷺ. عدّ النبي ﷺ خصائصه، فقال: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»^(١). ولذلك هنا لم يقل: «لتخرج قومك»، وإنما قال: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾، العرب والعجم، أهل الشرق وأهل الغرب.

الحكمة من جمع الظلمات وإفراد النور:

جمع الظلمات وأفرد النور، لم يقل: من الظلمة إلى النور، ولم يقل: من الظلمات إلى الأنوار، لماذا؟ لأنّ الظلمات تمثّل الضلالات، وضلالات الناس وأباطيلهم شتى، ليس هناك باطل واحد، هناك ألف باطل وباطل، إنّما الحقُّ واحدٌ لا يتعدّد. أبواب الضلالات كثيرة، ولكن باب الهدى واحد، المضلّون كثيرون، ولكن الهادي واحد، هو الله.

ولذلك تعدّدت الظلمات كما ذكرت في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله.

الظُّلُومُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴿ [البقرة: ٢٥٧] ، ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الحديد: ٩] ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيَنَّكُم مِّنْهُ نُورٌ مِّنْ أَلْبَابٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ رَسُولًا يَنلُّوهُ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] ، فالظلمات كثيرة، والباطل كثير الألوان والأنواع، ولكن الحق واحد، ومصدر الحق واحد، هو الله وَعَلَّامُ الْغُيُوبِ .

كثرة الظلمات وتراكمها:

النَّاسُ ضَلُّوا ضَلَالَاتٍ كَثِيرَةً، عبدوا من دون الله آلهة، لا تبصر ولا تسمع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

النَّاسُ ضَلُّوا سِوَاءَ السَّبِيلِ فِي عِقَائِدِهِمْ، فِي عِبَادَاتِهِمْ، فِي مُعَامَلَاتِهِمْ، وَأَدُّوا الْبَنَاتِ، قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ أَوْ خَشْيَةِ إِمْلَاقٍ، شَرَبُوا وَسَكَرُوا، ارْتَكَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، اقْتَرَفُوا الْمِظَالِمَ، افْتَرَسَ الْأَقْوِيَاءُ الضَّعْفَاءَ، تَجَبَّرَ السَّادَةُ عَلَى الْعَبِيدِ، كَانَتِ الدُّنْيَا هَكَذَا.

فالغاية من إنزال القرآن وبعثة الرسول هي إخراج النَّاسِ - كُلِّ النَّاسِ - ليس إخراج قريش وحدها، ولا العرب وحدهم، بل إخراج النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

الحكمة من إنزال الكتاب على النبي ﷺ:

صَرَّحَ هُنَا بِالْهَدَفِ مِنْ إِنْزَالِ هَذَا الْكِتَابِ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِمَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ؟ قَالَ: ﴿لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ، أي: لتهدي النَّاسَ بهذا الكتاب، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ هَادٍ لِلنَّاسِ مِنْ ضَلَالَاتِهِمْ.

فجاء محمد ﷺ، وأوحى الله إليه هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

هذه مهمّة هذا الكتاب، ومهمّة الرسول الذي أنزل إليه هذا الكتاب: أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، أن يُعلّمهم من جهالة، وأن يهديهم من ضلالة، يُخرجهم من ظلمات الشُّرك إلى نور التوحيد، من ظلمات الكُفر إلى نور الإيمان، من ظلمات الرّذيلة إلى نور الفضيلة، من ظلمات الجهل إلى نور العلم، من ظلمات الانحراف إلى نور الاستقامة، من ظلمات الباطل إلى نور الحق، من ظلمات الطاغوت إلى نور الله ﷻ، وهو أساس النُّور في هذا الوجود كله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

على الرسول أن يخرج الناس من الظلمات: ظلمات الاعتقاد، وظلمات الفكر، وظلمات السلوك، وظلمات التقاليد، وظلمات الأنظمة الجاهليّة، والقوانين الجاهليّة، ليخرجهم من هذه الظلمات كلّها إلى نور الإسلام بإذن الله ﷻ.

﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾، الذي يقوم بمهمّة الإخراج هو محمد ﷺ، عليه أن يقوم بالجهد لإخراج الناس، فهم لن يخرجوا بمجرد أن يتلو عليهم القرآن، فهم بحاجة إلى جهدٍ جهيد لإخراجهم من الظلمات إلى النور، يحتاجون إلى دعوة، إلى ترغيب، إلى تهيب، إلى تشويق، إلى تخويف، إلى تربية، إلى متابعة.

وهكذا كان عمل النبي ﷺ يُعاشي الناس، كان لهم أسوةً حسنةً في كلّ أمور حياتهم، يجدون في حياته الأسوة الحسنة لهم: الشابُّ يجد أسوته في حياة محمد ﷺ وسيرته، والمتزوِّج يجد أسوته في سيرته،

والعزب يجد أسوة فيه حينما كان عزبًا، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والمسالم والمحارب، كلُّ النَّاسِ يجدون أسوتهم فيه عليه السلام.
والأنبياء جاؤوا ليخرجوا أقوامهم من الضلالة إلى الهداية^(١).

دلالة قوله سبحانه: ﴿يَا ذُن رِبِّهِمْ﴾:

محمّد عليه السلام هو الذي عليه أن يخرج النَّاسِ من الظلمات إلى النور،
﴿يَا ذُن رِبِّهِمْ﴾، يعني بتوفيق الله سبحانه وبتيسيره.

فلولا أن الله يشدُّ أزرَكَ، ويوفِّقَكَ، ويساعدك ما استطعت أن تهدي
أحدًا، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

أنت عليك أن تبين، وعليك أن تتلو القرآن، وعليك أن تعمل لهداية
النَّاسِ، ولكن بدون توفيق الله لن يهتدي أحد. ولذلك قال: ﴿لَنُخْرِجَ النَّاسَ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يَا ذُن رِبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

دلالة كلمة الربِّ في القرآن الكريم:

ولكنَّ القرآن هنا اختار أن يكون يا ذُن ربِّهم، وكلمة الربِّ قد ذكرت
في القرآن كثيرًا مضافة مثل: ﴿رَبُّكَ﴾، ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿رَبِّكُمَا﴾، ﴿رَبِّكُمْ﴾،
﴿رِبِّهِمْ﴾، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ﴾، ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ
الْمَغْرِبَيْنِ﴾، ذكرت في القرآن أكثر من تسعمائة وخمسين مرّة، وهي تدلُّ
على السيادة المطلقة، وتدلُّ على الملكية، فالعرب تقول: ربُّ الدار،
وربُّ الدابة، يعني: مالكها.

(١) سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل في تفسيرنا لقول الله تعالى لموسى عليه السلام:
﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وتدلُّ على الرعاية والتربية، رعاية الشيء حتَّى يبلغ كماله المقدر لنوعه، فالله هو الراعي، هو المربِّي، هو الَّذي يرعى هذا الكون، ويرعى الإنسان، ويرعى كلَّ شيء في هذا الوجود حتَّى يبلغ كماله المقدر لمثله.

صراط العزيز الحميد:

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: العلماء يقولون: هذه بدلٌ من كلمة: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ بدل كلٍّ من كلٍّ، أي: تخرجهم من الظلمات إلى النور، ما هو هذا النور؟ إنَّه يتمثل في ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، تنقل النَّاس من الضلالات، من الأباطيل، من المفسد، من الرذائل إلى النور، أي: إلى صراط الله العزيز الحميد.

إضافة الصراط في القرآن الكريم:

الصراط هو: الطريق الواسع، الَّذي ذكره الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، الصراط المستقيم هو: صراط الله، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وأحياناً يضاف إلى سالكيه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين.

وأحياناً يضاف إلى رسول الله ﷺ الداعي إليه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأحياناً يضاف إلى من شرع هذا الصراط، وإلى غاية هذا الصراط؛ لأنَّ لهذا الصراط غاية؛ أن يوصلك إلى الله: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، إلى رضا الله ورضوانه، إلى مثوبة الله، وهذا غاية الغايات.

هناك طريق يوصلك إلى سخط الله، إلى عذاب الله، إلى جهنم وبئس المصير، هذه سبل على رأس كل منها شيطان يدعو إليه^(١)، أمّا الصراط فهو الذي يوصلك إلى الله، إلى رضوانه ومثوبته.

إضافة الصراط إلى اسمين من أسمائه الحسنی:

القرآن اختار هنا بدل ما يقول: ﴿صِرْطِ اللَّهِ﴾، كما قال في سورة الشورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرْطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرْطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، أضاف الصراط إلى بعض أسمائه الحسنی: ﴿إِلَى صِرْطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، واختار هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله الحسنی لدلالاتهما؛ لأن أحدهما يدلُّ على العِزَّة: القوَّة والغلبة. ﴿الْعَزِيزُ﴾: المنيع الذي لا يغلبه شيء، ولا يقهره شيء، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

والآخر يدلُّ على الحمد والثناء ﴿الْحَمِيدُ﴾: أي المحمود على كلِّ حال، والمحمود بكلِّ لسان، المحمود في ذاته، والمحمود في صفاته، والمحمود في أفعاله.

فالاسم الأول يُمثِّل: أسماء الجلال، والاسم الآخر يُمثِّل: أسماء الجمال، والله تعالى أسماء الجلال وأسماء الجمال: ﴿نَبِّرْكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٤١٤٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٤)، وابن حبان في المقدمة (٧) بإسناد حسن، والحاكم (٣٢٤١) وصحَّحه عن ابن مسعود ولفظه: خط لنا رسول الله ﷺ خطأ فقال: «هذا سبيل الله» ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله فقال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرْطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الجلال يُمَثِّلُ القدرة والقوة، والجمال يُمَثِّلُ الإحسان والرحمة...
فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ.

﴿الْعَزِيزُ﴾ يُمَثِّلُ الْمُلْكُ، و﴿الْحَمِيدُ﴾ يُمَثِّلُ الْحَمْدُ.

هناك أناس لهم الملك، ولكن ليس لهم الحمد، لهم الجبروت،
ولهم التسلُّط على عباد الله، يقهرون الضعفاء، ويتسلطون على المساكين
والفقراء، لكنهم ليسوا محمودين.

الله وحده هو الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

سنة القرآن في إضافة اسم من أسماء الحمد بعد اسم «العزیز»:

﴿صَرَّبَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾: دائماً القرآن إذا ذكر «العزیز» يذكر اسماً من
أسماء الحمد، أي من أسماء الجمال. وهنا ذكر «الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ»، وبعد
آيتين سيذكر: «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»، في قوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وأكثر ما قرن باسم «العزیز» في
القرآن «الحكيم»، ولكن أيضاً يوجد: «الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» [الملك: ٢]،
و«الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» [ص: ٦٦]، و«الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ» [ص: ٩]، و«الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»
[الروم: ٥]، «الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» [الشعراء: ٩]، «الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» [يس: ٣٨]،...
وهكذا القرآن يقرن دائماً اسم العزیز باسم من أسماء الحمد والجمال.

سرُّ اقتران اسم العزیز بالحكيم:

ومن يتأمل هذه الأسماء التي اقترنت في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يجد أن هناك حكمة في ربط اسم
بقرينه، قد تكون الحكمة واضحة وقد تحتاج إلى تأمل.

بعض النَّاسِ تَوَقَّعَ عند قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فربما توقع بعض النَّاسِ «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» لا.. هنا ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، إذا غفرت لن تغفر عن ضعف، تغفر عن عِزَّةٍ وَقُوَّةٍ، ولا تضع الأشياء في غير موضعها، بل أنت حكيم، تغفر لمن يستحقُّ المغفرة.

كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. هنا ذكر العِزَّة والحكمة؛ لأنَّ تأليف القلوب المتنافرة أمرٌ عسير. كيف تؤلف بين قلوب النَّاسِ ولهم أهواء شتى؟ وكلُّ واحد مملكة في نفسه، له مطالبه وله خصوصياته، كيف تؤلف هذه القلوب؟ إنها تحتاج إلى عِزَّة وإلى حكمة أيضًا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

من هو العزيز الحميد؟

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: هناك قراءتان: قراءة تقول: {الله} بالرفع ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾، هو الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وقراءة على الجر ليس على الرفع: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، بدل ممَّا قبله: ﴿صَرِطَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ * الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿^(١)﴾.

(١) ينظر: المبسوط في القراءات العشر للنيسابوري ص ٢٥٦، تحقيق سبيع حمزة حاكمي، نشر مجمع اللغة العربية - دمشق، ١٩٨١م.



قراءة حفص التي نقرأ بها نحن هي بالجر: ﴿اللَّهُ﴾.

لفظ الجلالة هذا، العلم على الذات الإلهية، هذا الاسم الكريم الذي تكرر في القرآن ألفين وستمئة وسبعًا وتسعين مرة.

عناية القرآن بالثناء على الله وعجل:

انظر كيف يهتم القرآن بشأن الألوهية، وبالثناء على الله وعجل.

لا يوجد كتاب في الدنيا يثني على الله كما يثني عليه القرآن، من أول آية فيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الفاتحة: ١، ٢]، إلى آخر سورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٣].

اقرأ في الكتاب المقدس، اقرأ في التوراة وأسفارها الخمس، كم فيها من الشناء على الله، كم ذكر فيها لفظ الجلالة؟! نادرًا جدًا ما تجد ذلك. وتجده يقول: رب إسرائيل أو رب الجنود، ليس رب العالمين، ولا رب الناس، أو ملك الناس، أو إله الناس.

تكرر لفظ الجلالة وأسماء الله الحسنى وصفاته وأفعاله في القرآن:

لكن في القرآن لفظ الجلالة (الله) تكرر في القرآن هذه المرات، أيضًا لفظ الرب تكرر نحو: تسعمائة وبضع وخمسين مرة، غير الأسماء الأخرى: العزيز، والحميد، والحكيم، والسميع، والبصير، واللطيف، والرحيم، والخبير، إلى آخره، مئات المرات، غير الأفعال مثل: الذي يخلق ويرزق، ويعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويعزُّ ويذلُّ

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وخلق السماوات والأرض، وفعل، وفعل. كلُّ هذا في هذا القرآن العظيم.

سرُّ تقديم الخبر في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، هذا الملك بعلوِّه وسفليِّه لله.

وكلمة ﴿لَهُ﴾ مقدّمة هنا، الذين يعرفون اللغة العربيّة وأسرارها يقولون: لماذا قدّم ﴿لَهُ﴾؟ لماذا قدّم الخبر ﴿لَهُ﴾ في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾، ولم يقل: «ما في السماوات وما في الأرض له»؟

وذلك ليفيد الحصر، أي: له لا لغيره، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ له حصراً، لا لأحدٍ ممّن أشركوا به من دون الله، ليس لمناة، ولا للات، ولا للعزّى، ولا لهبل، ولا لآلهة اليونان، ولا لآلهة الرومان، ولا لآلهة البوذيين، أو الهندوسيين، أو الوثنيين في أنحاء الأرض، ليس لهذه الآلهة المزيّفة شبرٌ ولا فِترٌ^(١) ولا سنتيمتر واحد لا في السماوات ولا في الأرض، كلُّ ما في السماوات وما في الأرض لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

(١) الفِتر بكسر الفاء وسكون التاء: هو ما بين طرف السبابة والإبهام إذا فتحتهما. لسان العرب مادة (ف. ت. ر).

لا يملكون مثقال ذرّة، ولا حتّى بالشراكة يشتركون فيه، وليس له جلّ وعلا ظهيرٌ ولا مُعين في هذا. المَلِكُ والمُلْكُ كُلُّهُ لله، له ما في السماوات وما في الأرض مِلْكًا ومُلْكًا، المَلِكُ له، والمُلْكُ له، قد تملك الشيء، ولا تملك التصرّف فيه، فله المَلِكُ، ولكن ليس له المُلْكُ، بينما من له المَلِكُ وله المُلْكُ هو الله ﷻ، ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧].

السماوات والأرض في القرآن الكريم:

السماوات والأرض تكررّت في القرآن: مائة وتسعين مرّة، ذكرت الأرض أحيانًا وحدها، وذكرت السماء أحيانًا وحدها، إنّما السماوات بهذا الجمع والأرض ذكرت: مائة وتسعين مرّة، ودائمًا السماوات مجموعة والأرض مفردة.

لم يذكر في القرآن أنّ الأرض سبع، كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وفي قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]، حتّى إنّ سيّدنا نوحًا ﷺ قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦].

المراد بالمثلّيّة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾:

فالسماوات ذكرت في القرآن أنّها سبعة، أمّا الأرض، فلم يأت في القرآن إلّا آية واحدة في آخر سورة الطلاق تقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. مثلهنّ في ماذا؟ في العدد؟ في التكوير مثلًا؟ في انطباق القوانين الكونيّة عليهما؟ لم يقل

لنا، ولم يأت حديث يقول: إِنَّ الْأَرْضَ سَبْعٌ إِلَّا حَدِيث: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنِ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنِ»^(١).

وَأَمَّا الْحَدِيث الْآخَرُ: «مَنْ اقْتَطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظَلَمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢). لا يدلُّ على أَنَّ الْأَرْضِينَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ سَبْعًا.

هناك بعض علماء الجيولوجيا يقولون: إِنَّ لِلْأَرْضِ سَبْعَ طَبَاقٍ، فهذا يمكن، إذا كان معنى الطباق: طبقة بعد طبقة بعد طبقة.

ما السماواتُ السبع؟

إِنَّمَا السَّمَاوَاتُ هَذِهِ الَّتِي تَعْلُونَا وَلَا نَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا اللَّوْنُ الْأَزْرَقُ، وَلَا نَعْرِفُ مَاذَا فِيهَا، أَوْ مَاذَا وَرَاءَهَا، نَعْمَ فِيهَا الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ الَّذِي يَسْتَمِدُّ نُورَهُ مِنَ الشَّمْسِ، وَفِيهَا الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ: زُحَلٌ، وَعُطَّارِدٌ، وَالْمُشْتَرِي، وَالْمَرْيَخُ، وَالزُّهْرَةُ... وهذه الكواكب في هذه السماء الدنيا، وحتى إِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ مِثْلَ الشَّيْخِ عَلِيِّ الطَّنْطَاوِيِّ رحمته الله تعالى، يقول: كُلُّ مَا نَرَى مِنَ النُّجُومِ الَّتِي يَأْتِي إِلَيْنَا ضَوْؤُهَا بَعْدَ مَلَائِينَ مِنَ السَّنِينَ الضَّوئية - كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْفَلَكَ - كُلُّ هَذِهِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملِك: ٥]، أي: بالنجوم، فكلُّ هَذِهِ النُّجُومِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَجْرَامِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي السَّمَاءِ

(١) رواه النسائي في الكبرى في السير (٨٧٧٥)، والبخاري (٢٠٩٣)، وابن خزيمة في المناسك

(٢٥٦٥)، وابن حبان في الصلاة (٢٧٠٩) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. وصحَّحه الألباني في

تخريج الكلم الطيب (١٧٩)، عن صهيب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨)، ومسلم في المساقاة (١٢٣٠)، عن

سعيد بن زيد.

الدنيا، ولكن ماذا بعد السماء الدنيا؟ لا نعرف عنها شيئاً، هذا ملك واسع، الله أعلم به^(١).

جاء في دعاء الرفع من الركوع: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»^(٢). فهناك أشياء بعد السماوات والأرض الله أعلم بها، كما جاء في القرآن: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وفي آية أخرى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، فإذا كان عرض الجنة عرض السماء والأرض فما طولها؟ ماذا يكون؟ لا يعلمه إلا الله عز وجل.

هذا الكون الواسع الكبير، الذي يتصرف فيه ويحكمه ويحكم كل ذرة فيه: هو الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وهذا يدلنا على تعظيم أمر الكتاب: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ١٠ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فالعزیز الحمید، هو الذي أنزل الكتاب ليهدي به الناس، وليخرجهم من الظلمات إلى النور على يديك يا محمد.

معنى كلمة «الويل» في القرآن:

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: الويل: دعاء بالهلاك والعذاب.

(١) مقال ما هي السماء؟ مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد الخامس والثلاثين، محرم سنة

١٣٨٧هـ - إبريل ١٩٦٧م.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦)، وأحمد (١٩١٠٤)، عن ابن أبي أوفى.

هناك بعض المفسرين يذكر عند كلمة «ويل» أنها وادٍ في جهنم. وهذا ليس تفسيرًا للفظ، كلمة «ويل» كلمة معروفة في اللغة العربية، يعرفها المشركون ويعرفها المسلمون، قبل أن ينزل القرآن وقبل أن يعرفوا جهنم، والويل هو: الهلاك والعذاب.

ويل لهم بمعنى: يا ويلهم، إنما الذين يقولون: وادٍ في جهنم، هذا ليس تفسيرًا، وإنما هو تمثيل لبعض مفردات الويل، أن لهم واديًا في جهنم، إذا صحَّت الأحاديث، وما أظنُّها صحيحة^(١) في هذا المعنى.

والعذاب للكافرين الجاحدين، الذين لم يهتدوا بالكتاب المنزل، لم يخرجهم هذا الكتاب من الظلمات إلى النور، لم يهتدوا إلى صراط العزيز الحميد، بل كفروا به.

معنى الكفر:

ومعنى الكفر هو الستر والتغطية، أنهم غَطُّوا على الحقيقة، طمسوا على الحقيقة باتِّباع أهوائهم، لم ينظروا إلى النور، ولكنهم غَشَوْا أعْيَنَهُمْ فلم يَرَوْا هذا النور، الكفر هو التغطية، حتَّى كلمة «كفر» في اللغات الإنجليزِيَّة وغيرها تفيد معنى التغطية، يُغْطُّون ويسترون الحقيقة ولا يرونها وهي واضحة أمامهم: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

(١) ومنها: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر سبعين خريفًا قبل أن يبلغ قعرها». رواه أحمد (١١٧١٢)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والترمذي في الزهد (٢٣٨٣) واستغربه. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٣٦).

مقابلة الكفر بالشكر:

الكفر أحياناً يقابل بالشكر، وأحياناً يقابل بالإيمان، فالكافرون هنا يعني: هم الذين كفروا النعمة ولم يشكروا نعمة الله، أو الذين كفروا بالمنعم وَعَلَيْكُمْ.

فالكفر في القرآن يأتي على وجهين: أحياناً الكفر يقابل الشكر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وكما في سورة إبراهيم نفسها بعد آيات قليلة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فقابل بين الشكر والكفر.

مقابلة الكفر بالإيمان:

وأحياناً يقابل بين الإيمان والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

دلالة كلمة الكفر عند الإطلاق:

فالكافرون هنا: هل هم الكافرون بنعمة القرآن وإنزال القرآن أم الكافرون بالمنعم، بالله وَعَلَيْكُمْ؟

الظاهر أن كلمة الكافرين إذا أُطْلِقَتْ في القرآن تعني الكفر المقابل للإيمان، هذا هو الأظهر، فهؤلاء كفروا كفرًا؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله، ولم يؤمنوا بكتابه، ولم يؤمنوا برسوله، فحقَّ عليهم العذاب.

العذاب الشديد للكفار في الآخرة:

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الويل - كما سبق - عذاب وهلاك، ويل لهم من عذابٍ شديد، فإنَّ لهم عند الله عَذَابًا شديدًا يوم القيامة، فقد لا يعذبون في الدنيا، فكثير من الكافرين ينجون من عذاب الدنيا، يُمهّلهم الله إلى الآخرة، فمن شأن الله تعالى أن يُمهّل ولا يُهمل، كما قال جلَّ وعلا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، قد يُؤخّرهم إلى الآخرة. كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

العذاب الحسي والمعنوي:

فالعذاب المقصود هنا هو عذاب الآخرة، وهو أخزى وأشدُّ وأنكى من عذاب الدنيا بمرّات ومرّات، فالعذاب في الآخرة هو عذاب النار التي أعدّها الله، ومعه عذاب الخزي والهوان، كما قال سبحانه: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وهذا نوعٌ من العذاب المعنوي بجوار العذاب الحسي.

اختلاف وصف عذاب النار في القرآن:

عذاب النار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، ﴿عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾، حسب تعبيرات القرآن وفق المقامات المختلفة، هنا قال: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وأي عذاب أشد من عذاب النار؟ وليست أي نار.

عن أبي هريرة رضي عنه، أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «ناركم جزءٌ من سبعين

جزءًا من نار جهنم». قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية! قال: «فضّلت عليهنّ بتسعة وستّين جزءًا، كلُّهنّ مثلُ حرّها»^(١). إننا لا نتحمّل لسعة من هذه النار، كما قال الشاعر^(٢):

جِسمي على الشَّمسِ ليس يَفْوَى ولا على أهونِ الحرارة
فكيف يقوى على جَحيمٍ وقودها النَّاسُ والحِجارة؟

جاء في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - الَّذِي عَاشَ فِي النِّعَمِ وَالرِّفَاهِيَةِ وَالطَّيِّبَاتِ، وَمَا لَذَّ وَطَابَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّسَاءِ وَالْخَدَمِ وَالْحَشَمِ - فَيَصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً - أَي: يَغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً وَاحِدَةً - ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ»^(٣). غمسة واحدة تُنسيه كلّ ملذّات الدنيا، كلّ ما أصابه من شهوات، كلّ ما جمعه من أموال، كلّ ما بناه من قصور، بغمسة واحدة في النار ينسى كلّ لذّات الدنيا وطيباتها.

أسباب الضلال:

١ - استحباب الحياة الدُّنيا على الآخرة:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾: مَنْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ؟ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، مَا الَّذِي جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ يَغْمُونَ عَنِ النُّورِ وَهُوَ وَاضِحٌ أَمَامَهُمْ، عَنِ الْحَقِّ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣).

(٢) ذكره بلفظ مقارب من غير نسبة: الشارعي في مرشد الزوار إلى قبور الأبرار (٤٣٨/١)، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ.

(٣) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٧٢٦٦)، وأحمد (١٣١١٢)، عن أنس بن مالك.

وأدلته، وهي كالشمس في رابعة النهار؟! ما الذي جعلهم يسيرون وراء الطاغوت، ويكفرون بالله ويكفرون برسالاته؟! سرُّ هذا أنهم استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة، كانت الدنيا أكبر همِّهم، ومبلغ علمهم، فاستحبُّوها على الآخرة، جعلوا حبَّها فوق حب الآخرة، آثروا الدنيا على الآخرة، وهذه هي مشكلة البشر: إيثار الأولى على الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَمَا مَنَ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٤ - ٣٩]، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

ما موقف النَّاس في هذه الحالة؟ هما موقفان، وهما صنفان لا ثالث لهما: ﴿فَمَا مَنَ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

المعضلة هي إيثار الدنيا على الآخرة، الذين استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة، كانت الدنيا فوق كلِّ شيء عندهم.

سبب جحود هرقل لرسالة النبي ﷺ :

من قرأ صحيح البخاري وجد في أحاديثه الأولى - بعد حديث: «إنما الأعمال بالنيَّات» - حديث هرقل الذي وصلته رسالة النبي ﷺ يدعوه فيها إلى الإسلام قائلاً له: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الرُّوم، سلام على من اتَّبَعَ الهدى. أما بعد، فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين».

﴿يَأْهَلُ الْكُذِبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] ^(١).

كان هرقل رجلاً عاقلاً، أحب أن يستوثق من صدق الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ، وقال: هاتوا لي ناساً من العرب. فجاءوا له بأبي سفيان، وكان في رحلة تجارية في ذلك الوقت، جاؤوا به، فطلب يسأله عن النبي ﷺ أسئلة في غاية الدقة، وأبو سفيان يجيب، ويخشى أن يكذب فيؤثر عنه الكذب.

فقال هرقل: «إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه».

ثم عرض الأمر على رجال الدين: القسس والرهبان، فقال: «يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان. قال: ردوهم عليّ. وقال: إنني قلت مقالتي آنفاً اخترت بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه» ^(٢). بعد أن اقتنع أن محمداً رسول الله غلب حبُّ ملكه على الدخول في الإسلام، وبقي يحارب الإسلام، ثم هزمه الإسلام بعد ذلك، والحمد لله.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

(٢) جزء من الحديث السابق.

موانع الإيمان واتباع الحق:

الذين حاربوا رسول الله ﷺ من مشركي قريش، كانوا يعلمون أنه على حق، ولكنه الكبر من ناحية، والحسد من ناحية، والتقليد الأعمى لأبائهم من ناحية أخرى.

اليهود الذين وقفوا ضد رسول الله ﷺ كان الحسد وحب الدنيا وراء ذلك، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٢ - الصد عن سبيل الله ﷻ:

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لم يكتفوا بأن يكفروا في أنفسهم، بل ظلُّوا يصدُّون غيرهم عن سبيل الله، صدَّ عن سبيل الله بمعنى: منع النَّاسَ عن الدخول في دين الله، صرف النَّاسَ عن الدخول في الإسلام؛ كالذي يقف في الطريق يمنع النَّاسَ من السير فيه، كقطّاع الطريق الذين يقفون يمنعون النَّاسَ، إلَّا إذا دفعت لهم إتاوة أو ما عندك أو غير ذلك، فهذا صدُّ عن سبيل الله.

كما قال سيدنا شُعَيْب عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [آل عمران: ٩٩]، هؤلاء يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا.

يقول بعض المفسِّرين: يصدُّون أنفسهم ويصدُّون غيرهم. وإنَّما المعنى المراد هنا: يصدُّون غيرهم عن سبيل الله.

فعل صدّ: يأتي في اللغة لازماً - أو قاصراً - ومتعدياً، صدّ بمعنى أعرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، فهذا صدّ قاصرٌ لازم، وصدّ أي: أعرض.

هناك صدّ بمعنى منَع الغير، يعني يريد منع الناس من الدخول في الإسلام، وإذا دخلوا في دين الله يفتنهم ويؤذيهم ويُعذبهم، كما فعل مشركو مكة بالمستضعفين، عذبوا عمّار بن ياسر وأباه ياسراً وأُمّه سُمَيّة، ومات أبوه ياسر وأُمّه سُمَيّة تحت العذاب، عذبوا بلالاً وغيره من المسلمين، فهؤلاء المشركون يصدّون عن سبيل الله.

سبيل الله وَجْهٌ :

سبيل الله هو الطريق الموصّل إلى الله، أي: إلى رضوان الله، إلى مثوبة الله، إلى جنة الله، ثمّ هو سبيل الله؛ لأنّ الله هو غايته، إنّهُ يُوصّل إلى الله، وإلى رضوان الله، ولأنّ الله هو الذي شرع هذا السبيل، وهو الذي دعا إليه، وهو الذي هدى إليه، ولذلك نسب إليه، فسبيل الله هو صراط الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢، ٥٣].

هؤلاء يصدّون عن سبيل الله، عن الطريق الموصلة إلى الله، وقفوا قطّاعاً للطريق، يصدّون عن سبيل الله.

٣ - ابتغاء العوج لسبيل الله سبحانه:

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: يريدونها سبيلاً عوجاء غير مستقيمة، والله جعل هذه السبيل سبيلاً مستقيمة لا عوجَ فيها ولا أمت، لا تميل إلى اليمين ولا إلى الشمال.

الصراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الهدف، الله جل وعلا يريد لها مستقيمة، وهم يريدونها عوجًا.

قال: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ لَأَنَّ السَّبِيلَ تُذَكَّرُ وَتَوْنُثُ، فأحيانًا تذكَّر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وأحيانًا تَوْنُثُ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فهؤلاء يريدون هذه السبيل عوجاء.

الضلال البعيد:

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾: هؤلاء الكافرون المُسْتَحِبُّونَ لِلدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ، الصادُّونَ عن سبيل الله، الَّذِينَ يريدونها سبيلًا عوجاء ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾. كَأَنَّ هُنَاكَ ضَلَالًا قَرِيبًا وَضَلَالًا بَعِيدًا.

ما معنى الضلال؟ الضلال هو: الغياب والذهاب عن الحق والصواب. ضلَّ أي: ذهب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَاتَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] أي: أئذا غبنا في الأرض وأصبحنا عظامًا ورُفَاتًا، واختلطنا بالتراب وانتهى الأمر أئنا لمبعوثون؟!

الضلال الدنيوي والديني:

هنالك ضلالٌ دنيويٌّ وضلالٌ دينيٌّ.

فالضلال الدنيوي: في أمور الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]. أي: أساءت التصرف، تترك العزيز، وتحبُّ الخادم الَّذِي يخدمها ويعمل عندها!

ومثل ذلك ما قال أبناء يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]؛

لأنه أحبّ أخويننا الصغيرين ونحن عُصبة. ولمّا قال لهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]. قالوا له: ﴿قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]. فهذا ضلالٌ دنيويٌّ.

لو أرادوا الضلال الدينيّ لكفروا، كيف يصفون أباهم وهو نبيّ ابن نبيّ ابن نبيّ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم أنّه في ضلالٍ دينيٍّ؟! لا.. فمعنى الضلال هنا: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: إن رأيك غير سليم.

وهناك الضلال الديني: والقرآن حين يذكر كلمة ضلال يراد به في الأكثر الضلال الديني، الضلال عن الحق، وعن الهدى. فهو لاء: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، ضلال ظاهر؛ لأنّ الحقّ ظاهر أمامهم وضلُّوا عنه، وضلُّوا عن الطريق، عن الاتجاه الصحيح.

إذا كان الضلال عن الاتجاه الأساسي، فالإنسان كلّما مشى في الطريق أوغل في البعد. الطريق شرق، وهو يذهب إلى الغرب، كلّما مشى كيلومترًا بُعد عن الهدف، وكلّما مشى عشرة كيلومترات صار أبعد عن الهدف، كلّما مشى يزداد بُعْدًا، هذا هو الضلال البعيد، الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، ويقول: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ضلال الكفار البعيد:

فضلال هؤلاء الكفار الذين لم يهتدوا بهدى الله، ولم يهتدوا بالكتاب المنزل، ولم يخرجهم من الظلمات إلى النور، ولم يهتدوا إلى صراط العزيز الحميد، واستحبُّوا الحياة الدُّنيا على الآخرة، وصدُّوا عن سبيل

الله، وبغوها عوجًا؛ هؤلاء في ضلالٍ بعيد، لا يرجى لهم منه عودة إلا أن يأذن الله وَعَجَّلَ ويهديهم إلى صراطه المستقيم.

تيسير أسباب الهداية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

تعنت قريش في طلب نزول القرآن بالأعجمية:

كان قريشًا قالت: لولا أنزل على محمد الوحي بلغة غير اللغة العربية، وهذا من تعنتهم، يقولون هذا عن محمد وَعَلَى اللَّهِ وهو العربي، والمبعوث إلى العرب ابتداءً، كيف ينزل عليه كتاب بغير لغته؟ لا يفهمه هو ولا يفهمه قومه.

إنما هو التعنت الذي أوصلهم إلى أن يقولوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

هل هذا عقل؟ من المفترض أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق اهدنا له». ولكن أن يقولوا: أمطر علينا حجارة أو اثنا بعذاب أليم. أي منطق هذا؟! لقد فقدوا المنطق والعقل فقالوا: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] بلغة أخرى، كأن عندهم اللغة التي تنزل بها كتب السماء غير اللغة العربية، وكأنه يوجد لغة دينية مخصوصة، اللغة العربية ليست منها.

ردَّ الله سبحانه عليهم في سورة فصلت، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

كيف يكون القرآن أعجميًا والمنزل عليه عربي؟!

وهذا هو المنطق، لذا ردّ القرآن عليهم مقولتهم العجيبة والغريبة وغير المنطقية بالمرّة، يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، كل الرسل قبل محمّد ﷺ من عهد نوح إلى من بعده، أرسلوا بلغة أقوامهم ليبيّنوا لهم؛ لأن كلّ رسول مهمته أن يبيّن لقومه: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]، الرسل عليهم أن يبلغوا، وأن يبلغوا بلاغًا مبينًا، يوصل المعنى إلى العقول وإلى القلوب، هذا هو المطلوب من الرسل، ولا يكون هذا إلا إذا أرسل الرسول بلغة قومه.

دلالة كلمة «لسان» في القرآن:

وكلمة لسان في قوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ ماذا يراد بها؟

اللسان يراد به أحيانًا هذا العضو «صغير الجِزْم كبير الجِزْم»، كما يقول العرب. هذا الجِزْم الصغير، كما يقول الله عنه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨، ٩]، وكما يقول الله تعالى عنه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، وكما قال الله عنه: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١١].

أحيانًا يُراد به هذا العضو الذي بـ«الفم»، وأحيانًا يراد بكلمة اللسان: اللغة. لسان قوم أي: لغتهم. كما قال ﷺ عن القرآن: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]، هو لسان اللغة العربيّة، اختاره الله لينزل أعظم كتبه، وآخر كتبه التي تتضمن كلمات الله الأخيرة الهادية للبشريّة جميعًا، اختار لغة العرب، لما فيها من

خصائص لا تتوافر لغيرها من اللغات، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

اختار محمدًا ﷺ وهو أفضل الخلق، ليحمل الرسالة العامة الخالدة الخاتمة، واختار العرب ليكونوا قومه وصحابته، واختار لغة العرب لتكون اللغة التي ينزل بها القرآن العظيم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

بيان الرسول ﷺ :

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: مهمة الرسول أن يُبين، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ [النحل: ٦٤] فمن أوصاف القرآن أنه كتاب مبين: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، والرسول مبين لقومه.

الطريق إلى تبليغ الرسالة العالمية للناس:

ولكن من المعروف أن محمدًا ﷺ لم يُرسل إلى العرب وحدهم، إنما أُرسل إلى العالمين: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَتَايَهُا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فكيف يخاطب الناس وهو مُرسل بلسانٍ عربيٍّ، وكتابه كتاب عربي، وقومه من العرب؟

كيف سنوصل الرسالة العالمية إلى الناس؟ هنا يأتي دور الترجمة،
نوصلها بأن نترجمها إليهم.

الصحابة والمسلمون في الزمن الأول كانت خُطَّتْهم وكان منهمجهم
أن يُترجموا الأمم إلى الإسلام، الأمم تتحوّل إلى الإسلام ولغة الإسلام،
يتحوّلون إلى اللغة العربيّة، فلا يحتاجون إلى ترجمة، هم يتعلّمون
الإسلام، ويتعلّمون لغة القرآن معها، فلسنا بحاجة إلى أن نترجم لهم
القرآن؛ لأنّهم تُرجموا إلى القرآن.

بعد ذلك، لم يعد هذا النهج قائمًا ولا مقدورًا عليه عند المتأخّرين
من المسلمين، أصبحنا في حاجة إلى أن نترجم القرآن إلى الناس.

ترجمة القرآن:

في العقد الأول من القرن العشرين حصلت معركة في مصر بين
العلماء عن ترجمة القرآن، هل يُترجم القرآن أو لا يُترجم؟ وقالوا:
لا تجوز الترجمة، ودخل فيها شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ محمّد
مصطفى المراغي، ودخل فيها علماء كبار، وكتب قاضي القضاة الشيخ
محمّد سليمان^(١) كتابًا سمّاه: «حدث الأحداث في الإسلام»، وكتب فيها
كُتُبٌ، وانتهى الأمر بعد هذا كله، إلى أنه لا بدّ من ترجمة معاني القرآن.

ليس المقصود بترجمة القرآن ترجمة حرفية، ولكن ترجمة معاني
القرآن، ولذلك كانت هنالك محاولات لاختيار موجز مختصر ليترجم
منه القرآن.

(١) هو القاضي الأديب المصري محمد سليمان إبراهيم عنارة، تعلم بمدرسة القضاء الشرعي،
وولي القضاء في (ببا) من أعمال بني سويف، ثم كان نائبًا في المحكمة العليا الشرعية
بالقاهرة، وتوفي فيها سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م، من أشهر كتبه: من أخلاق العلماء.

قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر، عبر لجنة من العلماء، من مختلف الأقطار بإصدار كتاب: «المنتخب في تفسير القرآن»، ليكون هذا «المنتخب» مصدرًا لترجمة معاني القرآن. ولا زال المسلمون إلى اليوم مقصّرين في ترجمة معاني القرآن إلى اللغات المختلفة.

لو نظرنا إلى ما فعل النصارى المُبشّرون والمُنصّرون، ترجموا الإنجيل إلى مئات وربّما آلاف اللغات واللهجات للعالم، حتّى اللهجات، ونحن حتّى اليوم لم نكد نترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية التي هي أكثر اللغات اتساعًا، ويتكلّم بها مئات الملايين من المسلمين.

الإشادة بترجمة معاني القرآن للدكتور أحمد زكي حمّاد:

هنالك محاولات جيدة آخرها محاولة الأخ العالم الفاضل - الذي جمع بين الثقافتين: الثقافة الأزهرية والثقافة الغربية، ودرس في جامعة شيكاغو - أخونا الدكتور أحمد زكي حمّاد، ترجم معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية، وعاش أكثر من عشرين سنة يعمل في هذه الترجمة، وعرضها على كثير ممّن يعرفون الإنجليزية، فأثنوا عليه.

وقد قمتُ بكتابة مقدّمة لهذه الترجمة^(١)، وإن لم أعرف اللغة الإنجليزية، وإنّما قلت ذلك بناءً على تزكية المزكّين الثقات الذين يعرفون العربية والإنجليزية، ولأنّي أعرف الجهد الذي بُذلَ فيها، وقد جمع التفاسير القديمة والحديثة، تفاسير الرواية وتفسير الدراية، وشغل نفسه بهذا الأمر، وأصدر هذه الترجمة لمعاني القرآن الكريم.

(١) انظر كتابنا: المقدّمات ص ٢٦٩ - ٢٧٣، نشر دار المقاصد، ط ١، ٢٠١٥م.



معنى جديد في قوله سبحانه: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾: وأريد أن أقف هنا عند كلمة: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾، أنا أستخلص من كلمة: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ معنى آخر غير المعنى العام الذي هو اللغة.

فكلمة «لسان» لها معنى آخر كما ورد عن الإمام الشافعي قال: ما جهل الناس ولا اختلفوا، إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس^(١). لا يقصد أن اللغة غير اللغة؛ إنما يقصد أن مدخلهم العقلي غير مدخلنا، كل جماعة لهم لسان، ولذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أنا أفهمها أن على الرسول أو على الداعية في عصرنا، على ورثة الرسل والأنبياء أن يكلموا كل قوم بلسانهم، العامة لهم لسان، والخاصة لهم لسان، البدو لهم لسان، والحضر لهم لسان، أهل المدن لهم لسان، وأهل الريف والقرى لهم لسان، أهل الشرق لهم لسان، وأهل الغرب لهم لسان، الناس في القرن الحادي والعشرين لهم لسان، وقبل قرنين مضيا لهم لسان آخر.

لا بد أن تحدث الناس بلسانهم، كثير من الدعاة يخطئون هذا المنهج، ويتحدثون بلسان غير اللسان المطلوب، يذهبون إلى العوام ويحدثونهم بلسان الخواص، فيشكل الأمر عليهم، ولا يستطيعون أن يصلوا إليهم أو العكس، أو يذهب إلى أمريكا ويحدث الناس بمشكلات بلاد الشرق الأوسط، يتحدث عن الأضرحة والمزارات

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧٤/١٠)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

والأولياء، وأمريكا ليس فيها أضرحة ولا غيرها من الأمور الموجودة في الشرق الأوسط، لم يشغل الناس بمشكلة غير موجودة؟! نريد من ورثة الرسل والأنبياء أن يبينوا لقومهم بلسانهم، يُكلّم كل جماعة بلسانها حتّى يصلوا إلى الحق.

علينا الدعوة وعلى الله تعالى الهداية:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾: أي: أرسلناهم بلغات أقوامهم، وبلسان أقوامهم، ليبيّنوا، ولكن ليس من الضروري أن يهتدي جميع الناس بعد البيان.

الإنسان عليه البيان وعليه البلاغ، ولكن ليس عليه الهداية كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

إنما عليك الدعوة، وعلى الله الهداية، عليك البلاغ، وعلى الله الحساب، عليك أن تبذر الحب وترجو الثمار من الرب، ابذر بذور الدعوة، قل كلمة الحق، ولكن النتيجة ليست بيدك.

سيدنا نوح ظلّ ألف سنة إلّا خمسين عامًا يدعو الناس، وما قصّر وما ضُف: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا * وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا * وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥ - ٧]. وضعوا أصابعهم في آذانهم، وقالوا: لا نريد أن نسمع صوتك: ﴿ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾، وضعوا ثيابهم على وجوههم وعلى أعينهم، وقالوا: لا نريد أن نرى وجهك، ولا نحب رؤيتك ولا سماعك.

ما قَصَّرَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بل قال عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ٨ - ١٢] ، وعظهم ورغبهم في أمور الدنيا وأمور الآخرة ولم يُقَصِّرْ.

سنن الله في الهداية والضلال:

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: ولكن الله يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، القلوب ليست بأيدينا، القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن.

هنالك سنن تحكم النَّاسَ، هنالك قواعد هي التي تتحكم في النَّاسِ، وقد رأينا أناسًا يستحبون الحياة الدُّنيا على الآخرة، يتضح لهم الحق، ومع هذا يكفرون، من بعد ما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، بعد البيان يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، فيها كلام كثير؛ لأنَّ بعض النَّاسِ يريد أن يجعل من مثل هذه الآيات دليلًا على أنَّ الإنسان مسير لا مخير، وأنه مجبور لا مختار، وأنَّ الله هو الذي يضلُّ ويهدي، وأنَّ الهداية بيده، ولا دخل للإنسان فيما جنت يده!

مثل هذا الكلام ليس صحيحًا، إنَّما الهداية من الله، إنَّه يعطي نفحات لمن يشاء، ولكنَّه وضَّح للجميع الحقَّ، وأقام الحُجَّةَ، وأبطل التعلَّلات والأعذار، ليس لأحد أن يقول: أنا لم أعرف الحقيقة. لا، بل عرفت، وكلُّ شيء كان أمامك، كلُّ شيء كان واضحًا، ما الذي منعك من الإيمان؟ كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ

الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿[الانشقاق: ٢٠، ٢١]﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴿[النساء: ٣٩]﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ
لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[الحديد: ٨]﴾! الأمور واضحة.

فقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، ليس معناها: أن
الأمر فيه جبر، بل الأمر موكل إلى إرادة الإنسان واختياره: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ
مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]،
﴿مَّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿مَّنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

الإضلال والهداية بحسب ما في النفوس كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ
بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[البقرة: ٢٦، ٢٧]،
﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

هنالك - إذن - استعدادات في النفوس تأتي الهداية والإضلال
بحسبها: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

مناقشة أحد المفسرين المعاصرين في إرجاع ضمير «من»:

وهنا ملاحظة كان ذكرها أحد المفسرين في العصر الحديث، وهو
الأستاذ: عبد الحميد الخطيب^(١)، وكان سفير المملكة العربية السعودية

(١) عبد الحميد بن أحمد بن عبد اللطيف الخطيب، متأدب متفقه، مولده بمكة. كان أبوه يعرف
بالمكباوي، نسبة إلى منكابو (من بلاد جاوى)، جاور بمكة وتولى الخطابة في مقام الإمام
الشافعي، فقليل له الخطيب. وأقام بدمر (قرية قرب دمشق) إلى أن توفي ١٣٨١هـ - ١٩٦١م عن
(٦٥) عامًا. انظر: الأعلام للزركلي (٢٨٤/٣)، نشر دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

في باكستان وبنجلاديش، وله تفسير (تفسير الخطيب المكي) هذا التفسير قال فيه: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣] من يشاء الضلالة يُضِلُّه، ومن يشاء الهداية يهديه.

فجعل يشاء هنا ليست مرجع الضمير إلى الله، ولكن مرجع الضمير إلى كلمة «من»، من شاء الضلالة أضله الله، ومن شاء الهداية هداه الله، وبعض الناس أيده في هذا، وأنا أرى أن هذا ليس هو المتبادر من الآية؛ لأن كلمة: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، ذكرت في آيات كثيرة جداً: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]، ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

ذكرت ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ في القرآن الكريم مرّات عديدة أكثر من مائة مرّة، كلّها ترجع إلى الله وَجَلَّ.

فلماذا كلمة: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ هنا نستثنيها، ونقول: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: الإنسان؟ لماذا تفعل في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟ الخطاب هنا لا يوجد فيه: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.

فالذي يشاء هو الله وَجَلَّ، ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: الله يضلُّ من يشاء له الضلالة، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: له الهداية، ولكن الهداية والضلالة تأتيان وفق سنن الله.

فهذا الكون كلّهُ بما فيه الإنسان، تحكمه سنن وقوانين كونية واجتماعية لا تبدّل ولا تتحوّل، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

سِرُّ اقتران العزة بالحكمة:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: القويُّ الغالب المنيع الذي لا يُغلب، ولا يُعجزه شيء ولا يقهره شيء، بل هو الواحد القهار، هو الغالب دائماً، هو القادر دائماً، هو العزيز.

وهو الحكيم. كثيراً ما يذكر مع العِزَّة الحكمة، قرنت الحكمة بالعِزَّة في القرآن في آيات كثيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨].

الحكيم: هو الذي يضع كلَّ شيء في موضعه. ليس هنالك خلل، الحكمة الإلهية وضعت كل شيء بمقدار: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، كلُّ شيء بقدر موزون، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، حتَّى النبات موزون.

يقول علماء البيولوجيا والنبات: موزون ليس الميزان المعنوي فقط، بل هو ميزان حقيقي يمكن بالمليجرام، وما هو أدقُّ من المليجرام، كلُّ شيء موزون، فالله ﷻ هو الحكيم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، هو الذي أتى آدم الحكمة، هو الذي أتى داود الحكمة، هو الذي أتى الأنبياء الحكمة، هو صاحب الحكمة، وهو الحكيم بكلِّ شيء، لم يخلق شيئاً باطلاً، ولم يشرع شيئاً عبثاً، كما قال أولو الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الدرس الثاني

دعوة موسى عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ عَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿ [إبراهيم: ٥ - ٨].

قصة موسى عليه السلام في القرآن:

بعد أن أخبرنا الله سبحانه أنه يرسل رسله بلسان أقوامهم، ليبينوا لهم، وأن هذه سنة من سننه في جميع من أرسلهم من النبيين، قص علينا بإيجاز قصة أحد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم إلى قومهم بلسانهم ليبين لهم، هذا الرسول الكريم هو: أحد أولي العزم من الرسل، الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، خصه من دون الرسل بأنه كلمه تكليماً، أي مباشرة: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، الذي كلمه الله هو موسى عليه السلام.

موسى ﷺ أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن:

وموسى قد عُني القرآن الكريم بقصته مع فرعون وملئه، وبقصته مع قومه بني إسرائيل، ولذلك تكرر ذكر اسم موسى ﷺ في القرآن: مائة وستاً وثلاثين مرة، فهو أكثر نبي من الأنبياء ذكر اسمه في القرآن.

وسيدنا إبراهيم ﷺ ذكر اسمه تسعاً وستين مرة.

وسيدنا نوح - شيخ المرسلين - ذكر اسمه ثلاثاً وأربعين مرة.

وسيدنا عيسى ذكر خمساً وعشرين مرة، وإن كان ذكر أحياناً باسم المسيح، وباسم ابن مريم ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٧].

حديث القرآن عن خاتم النبيين محمد ﷺ:

أما محمد ﷺ فلم يذكر باسمه إلا أربع مرات: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

هل لأنَّ أمرَ مُحَمَّدٍ هَيِّنٌ عندَ رَبِّهِ؟! لا؛ لأنَّ القرآنَ كلَّهُ عن مُحَمَّدٍ ﷺ، فأحياناً يذكر باسم النبيِّ واسم الرسول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣].

فالحديث عنه ﷺ تحت اسم: النبي، والرسول، ورسول الله، وبالخطاب المباشر ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٥]، إلى آخر السورة، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿الَّذِي أَقْنَصَ ظَهْرَكَ﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿[الشرح: ١ - ٤].

فالقرآن خطاب لمحمد، أو حديث عن محمد، وعن دعوة محمد، وعن رسالة محمد ﷺ.

عناية القرآن بقصة موسى عليه السلام :

المهم أن القرآن عني بقصة موسى، حتَّى قال بعض علماء التفسير وعلوم القرآن: كاد القرآن أن يكون كلُّه موسى^(١). بمعنى أنه ذُكر مائة وستاً وثلاثين مرّة، وفي بعض الأحيان يُطيل الحديث عنه، في سورة البقرة تحدّث عن موسى وبني إسرائيل، وفي سورة المائدة، وفي سورة الأعراف أطال ذكر قصّته وخصوصاً بعد أن نجا بنو إسرائيل من آل فرعون، وفي سورة طه، وسورة القصص، وسورة الشعراء، وفي سور كثيرة.

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١٩٩/١)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

قضية الرسل والرسالة في سورة إبراهيم:

وهنا ذكر عن موسى كلامًا موجزًا لمناسبة أن الله لم يُرسل رسولًا إلا بلسان قومه ليبين لهم، ومن يتأمل سورة إبراهيم يجدها تدور حول قضية الرسل والرسالة.

الرسل، وأقوام الرسل الظلمة الذين وقفوا في وجه الرسل، وقاوموهم وعاندوهم، هذا ما نراه في هذه السورة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، إلى آخر السورة.

دلالة كلمة «لقد»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، علماء العربية يقولون: اللام هنا موطئة للقسم، كأن الله يُقسم «والله قد».

و«قد» هنا للتحقيق: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾، يؤكد أنه أرسل موسى بما ذكره: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

الآيات الدالة على ثبوت النبوة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ الآيات هي المؤيدات الدالات على صحة النبوة وصدق النبي، أو ما يسميه علماء العقائد أو علماء

الكلام في تراثنا: «المعجزات». القرآن لم يجيء بهذا المصطلح مطلقاً، فكلمة المعجزات لم تجيء في القرآن أبداً، إنما جاء في القرآن: الآيات والبيّنات، فالله يؤيّد رُسُلَه بآياته وبيّناته: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

فالله أرسل رسله بالآيات، أي: ما يدلّ على صدقهم وصحّة دعوتهم، قد يكون ذلك بمعجزة خارقة للعادة، مثل: قوم صالح حين قالوا: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ * قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * [الشعراء: ١٥٤، ١٥٥]، فأخرج لهم ناقة.

ولكن أحياناً قد تكون لهم آية، وهي: سيرة الرسول نفسه، سيرته دالّة على صدقه، وأنّه غير كذاب، وقد تكون شهادة قومه له بأنّهم لم يروا فيه إلّا خيراً، ولم يسمعوا عنه إلّا صدقاً، إلخ.

سيدنا موسى أوتي تسع آيات بيّنات، حينما تحدّى فرعون ووقف يجادلّه، قال له: ﴿لَیْنِ اتَّخَذَتْ إِلٰهًا غَیْرَی لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِیْنَ﴾ * قَالَ أُولُوْ جِبْتِكَ بِشَیْءٍ مُّبِیْنٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِیَ ثُعْبَانٌ مُّبِیْنٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِیَ بَیْضَاءٌ لِلنَّظَرِیْنَ * [الشعراء: ٢٩ - ٣٣].

سیّدنا موسى كان آدم، أي: أسمر، صارت يده بيضاء من غير سوء، أي: من غير برص أو شيء من هذا. فهذه بعض آياته، غير آيات أخرى، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

رسالة موسى إلى قومه وفرعون وملئه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، هل كان موسى مرسلًا إلى قومه أم إلى فرعون وملئه؟ في

كثير من الآيات يذكر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاتَّبَعُوهُ أَمَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧]، وفي آية أخرى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَفَرَّوْنَ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤].

فظاهر الأمر أنه أرسل إلى الاثنين معاً، أول ما أرسله ربه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩]، وهو أيضاً مُرْسَل إلى قومه، فمهمته تحرير قومه من سلطان فرعون وجبروت فرعون: ﴿أَن أَدُورَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٨، ١٩]، فمن ضمن رسالته إلى فرعون: أَن يُحَرِّرَ بني إسرائيل من هذه العبودية التي تعبدهم بها فرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

فهو كان مرسلاً إلى فرعون وقومه، ومرسلاً أيضاً إلى قومه بني إسرائيل، ككل الرسل الذين أُرْسِلُوا إلى أقوامهم إِلَّا مُحَمَّدًا ﷺ، فإنه أُرْسِلَ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وذكر من خصائصه الحديث المُتَّفَق عليه: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة، وُبُعِثَ إلى النَّاسِ عَامَّةً»^(١). ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الفرق بين رسالتي موسى ومحمد ﷺ:

﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: كما أرسل محمد ﷺ وأنزل عليه الكتاب: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، أنزل إلى موسى: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ﴾،

(١) سبق تخريجه ص ٣١.

فالفرق بين موسى ومحمد: أَنَّ الله يقول لموسى: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾. ومحمد قال الله له: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾. فهذه رسالة محدودة، وهذه رسالة عامة، هذه رسالة لقومٍ مخصوصين، وهذه رسالة إلى العالم.

ولا زال اليهود إلى اليوم لا ينشرون رسالتهم إلى العالم، لا يزعمون أَنَّ عندهم رسالة عالمية، رسالتهم رسالة قومية، رسالة لشعب إسرائيل، حتَّى الإله عندهم يقولون: ربُّ إسرائيل. ونحن نقول: ربُّ العالمين. من أوَّل آية في القرآن بعد البسملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفتح: ٢]، هم يقولون: ربُّ إسرائيل، وربُّ الجنود؛ لأنَّهم مجتمعٌ عسكري عنصري محارب.

التذكير بأيام الله تعالى:

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾: ما المراد بأيام الله؟ أيام الله هي: الأيام الجديرة أن تنسب إلى الله، فلا يقال: هذا يوم فلان إلَّا إذا كان هذا اليوم حصل فيه على شهادة كبيرة، أو جائزة عظيمة، أو تحقق له شيء رائع، فتقول: هذا يوم فلان. فعندما تقول: يوم الله. فمعناه: أَنَّهُ اليوم الَّذي أنزل فيه نِعَمًا سابغة وباهرة، أو الَّذي أنزل فيه نِقَمًا على المجرمين من عباده، فهي أيام الله، فيمكن أن نقول: إِنَّ من أيام الله: يوم أهلك قوم نوح بالطوفان، ويوم أهلك عادًا بريحٍ صرصرٍ عاتية، ويوم أهلك ثمود بالطاغية، صيحة أخذتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ويوم أهلك فرعون وجنده، حينما انفلق بهم البحر وغرقوا جميعًا، فأغرقناه ومن معه أجمعين.

هذه كُلُّها هي أيام الله، فهي إمَّا أن تكون أيامًا لإنزال النعم أو لإنزال النقم، فكأنَّ الله تعالى يقول لموسى: ذكِّرْ قَوْمَكَ بأيام الله، أيام نعم الله

عليهم، وسنأتي في الآية التالية إلى تذكيرهم ببعض النعم: ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

ويذكرهم بأيام نَقِمَ الله على أعدائهم، كيف انتقم الله من أعدائهم، كيف انتقم الله من فرعون الذي أذلهم واستعبدهم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وهذا هو القسم الأول من النقم.

ثم يأتي القسم الثاني، وهو: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهمن وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿[القصص: ٥، ٦]، فهذه أيام الله تعالى، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُكُونُ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٣].

حاجة الناس إلى التذكير بأيام الله:

الناس بحاجة إلى التذكير بأيام الله حتى لا تنسى، من طبيعة الإنسان أن ينسى، كما قال الشاعر:

وما سُمِّي الإنسانُ إِلَّا لَنَسِيهِ وما القلبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ^(١)

الإنسان في حاجة إلى التذكير، والمراد بالتذكير: إزالة النسيان، بحيث يجعل الأمر دائماً حياً في ذاكرته لا يُمحى ولا يُنسى.

(١) ذكره الزبيدي ولم ينسبه في تاج العروس في المقدمة (١/١٢٤)، نشر دار الهداية.

فالتذكير بالنعم لأهلها، وبالنقم لأهلها، والتذكير فيه أيضًا معنى العظة والإنذار، ولذلك يعتبر الرسل مذكّرين، النبي ﷺ أُمِرَ بالتذكير في آيات كثيرة: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

فالتذكير هو منهاج النبوة، والعلماء هم ورثة الأنبياء، ومهمتهم أن يسيروا في طريق التذكير، يذكرون الناس: بأيام الله، وبنعم الله، وبفضل الله، وبهدى الله وَعَجَلْ.

المستفيدون من التذكير بأيام الله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: إِنَّ فِي هَذَا الْإِخْرَاجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَفِي هَذَا التَّذْكِيرِ بِأَيَّامِ اللَّهِ لآيَاتٍ دَالَّةٌ وَمُنْبِّهَةٌ.

لكن لا يتنبّه لهذه الآيات، ولا يستنير بنور هذه الآيات، ولا يهتدي بهدى هذه الآيات إِلَّا كُلُّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ نَصْفَانِ: نَصْفٌ صَبْرٌ، وَنَصْفٌ شُكْرٌ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ يَقَابِلُونَ الْبَلَاءَ بِالصَّبْرِ، وَيَقَابِلُونَ النِّعَمَاءَ بِالشُّكْرِ. وَهَذَا شَأْنُ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شُكِرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبِرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١). هَذَا شَأْنُ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ، بَيْنَ صَبْرٍ وَشُكْرٍ، بَيْنَ سَرَّاءٍ وَضَرَّاءٍ، بَيْنَ نِعَمَاءٍ وَبِئْسَاءٍ.

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٧٦٩٢)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب.

دلالة صيغتي المبالغة في قوله سبحانه: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

وصَبَّارٍ وشكور صيغتا مبالغة - كما يقول أهل اللغة - فهناك رجل أَكَلٌ ورجل أَكَّال، الأكل يأكل مرّة، والأَكَّال: الكثير الأكل، والصَبَّار الكثير الصبر، والشَّكُور الكثير الشُّكر، فليس مجرّد صبره مرّة، أو شُكره مرّة أن يكون الأمر قد انتهى، لا بدّ أن يكون الصبر خُلُقًا له، وأن يكون الشكر خُلُقًا له، فهو دائم الصبر دائم الشكر.

سِرُّ تقديم الصبر على الشكر:

لكن لماذا قدّم الصبر على الشكر؟ مع أن نِعَمَ الله سابغة: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

القرآن يريد أن يوطّن المسلم نفسه على تحمّل البلاء؛ لأنّ البلاء بالمرصاد للإنسان بصفته إنساناً، يعني مجرد كونه إنساناً، أصبح مهيباً لنزول البلاء به: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، فحياته قائمة على الابتلاء، وبصفته من أهل هذه الدنيا، فالدنيا دار ابتلاء من أولها كما قال علي رضي الله عنه: ماذا أصف لك من دارٍ من صحّ فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب^(١).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢٠٨/٣) نشر دار المعرفة، بيروت.



وكما قال الشاعر:

جُبِلْتُ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْآلَامِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدُّ طَبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ^(١)

هذه أيام الدنيا لا تتطلب أن تكون سعادة مستمرة، أو صفاء مستمرًا، فصفاؤها مشوب بالكدر، وسعادتها مشوبة بالشقاء، وسرورها مشوب بالحزن، وهذه طبيعة الدنيا.

تعرض أصحاب الرسالات للبلاء:

وأصحاب الرسالات أكثر تعرضًا للبلاء من غيرهم؛ لأن الله الذي خلق آدم، خلقه ومعه إبليس، وخلق إبراهيم ومعه نمرود، وخلق موسى ومعه فرعون، وخلق محمدًا ومعه أبو لهب وأبو جهل، فالحق يصارعه الباطل دائمًا، فمن يحمل رسالة الحق لا بد أن يعاديه أهل الباطل، ومن دعا إلى الإصلاح حاربه أهل الفساد، من دعا إلى الخير قاومه دعاة الشر، ولذلك لما سئل النبي ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقةٌ خُفِّفَ عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»^(٢). يُكْفَرُ عنه سيئاته بما ينزل به من بلاء.

(١) من شعر أبي الحسن التهامي، يرثي ولده. انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب (٣٥/١)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤م. وانظر: ديوانه ص ٣٠٨، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٩٨٢م.

(٢) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى في الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

«ما يصيبُ المسلمُ من نَصَبٍ^(١)، ولا وَصَبٍ^(٢)، ولا هَمٍّ، ولا حزنٍ، ولا أذى، ولا غَمٍّ، حتَّى الشوكة يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٣).

والقرآن يخاطب المؤمنين طالبًا منهم أن يحملوا دعوة محمد، وأن يصبروا على ما يصيبهم في طريقها من بلاء وبأساء: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿[العنكبوت: ٢، ٣].

وهذا سرُّ تقديم الصَّبَّار على الشكور: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقد تكررت هذه العبارة في القرآن أربع مرات في مناسبات شتى^(٤).

التذكير بالنعم أصلٌ من أصول الرسالات:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: ومن التذكير بأيام الله: أن يذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، حتّى لا ينسوها. والتذكير بالنعم أصلٌ من أصول الرسالات السماوية كلها.

شكر المُنعم من أوّل الواجبات على الإنسان من حيث هو إنسان، الله هو الَّذي هيأ لك هذا الكون كلّهُ، وسخر لك كلّ ما في الكون، جعله جميعاً في خدمتك، فالشمس تضيء لك، والقمر ينير لك، والنجوم

(١) النَّصَب: التعب والمشقة والكد. تاج العروس مادة (ن. ص. ب).

(٢) الوَصَب: دوام الوجع ولزومه، وقد يُطلق الوَصَبُ على التعب، والفُتُور في البدن. النهاية في غريب الحديث مادة (و. ص. ب).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المرضي (٥٦٤١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، عن أبي هريرة.

(٤) في سورة إبراهيم (٥)، ولقمان (٣١)، وسبأ (١٩)، والشورى (٣٣).

تهديك، والأنهار تسقيك، والأرض ذلول لك، كلُّ شيءٍ في الكون مسخرٌ لك، فنعم الله كثيرة، ولكنَّ الإنسان ينسى نعم الله.

ومن أعظم نعم الله على الإنسان: أنَّه أرسل الرسل إليه مبشرين ومنذرين يهدونه إلى الله وإلى طريق الله وإلى الجنة.

فالتذكير بالنعم أصل من الأصول، لذا يذكر القرآن المؤمنين بالنعم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

آيات كثيرة في القرآن تذكر المسلم بنعم الله، وهذا أصل مهم جدًا: أن يذكر النَّاسُ نعمة الله تعالى عليهم.

نسيان أكثر النَّاسِ نِعَمَ الله عليهم:

للأسف كثير من النَّاسِ ينسى نعمة الله، يذكر البليَّة إذا نزلت به، بليَّة واحدة يظلُّ يذكرها ليلاً ونهاراً، وآلاف النِّعم يتغافل عنها، فمن المهمَّ ذكر النِّعم، ولذلك سيِّدنا موسى عليه السلام يؤصل هذا الأصل حينما يقول لقومه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، لا تنسوا ما كنتم فيه من ذلٍّ واستعباد، ظللتُم قروناً وأنتم عبيدٌ عند فرعون وقومه.

النجاة من فرعون ملك مصر:

﴿إِذْ أَنْجَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾^(١): فرعون هو لقب لملك مصر، وقد كان لكل ملك من الملوك تسمية في هذا الوقت، فهناك كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، والنجاشي ملك الحبشة، وتبع ملك اليمن، إلى آخره.

وفرعون ملك مصر من المصريين، إنما الغزاة لا يُسمى ملكهم فرعون، مثل ملك مصر وحاكمها أيام سيدنا يوسف، فالقرآن لم يُعبر عن حاكم مصر بفرعون وإنما بالملك: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٣]، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَذِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤].

السر في تسمية العزيز بالملك:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ ولم يقل: «فرعون»، على خلاف التوراة التي كانت تُسميه فرعوناً؟! لأنه لم يكن فرعوناً، فلم يكن من الأسر الفرعونية التي حكمت مصر، إنما كان من ملوك الرعاة أو العمالقة أو الهكسوس، الذين غزوا مصر من الجزيرة العربية، وحكموا أهلها عدة قرون، إلى أن تجمع المصريون تحت قيادة قائد اسمه «أحمس» لحرب الهكسوس، وحرّر مصر منهم، كما هو معروف في التاريخ المصري.

ولذلك حاكم مصر في أيام سيدنا يوسف لم يكن فرعوناً، ولم يكن

(١) آل فرعون: أتباعه وأصحابه ومعاونوه على الشر. وفي أكثر الآيات لا يذكر القرآن فرعون وحده، إنما يذكر ملاًه أو آله، مما يدل على إثم المؤازرين له، وهذا ينبئ بأن الطغاة لا يطفون بذات أنفسهم، ولكن بمؤازرة من الأشياء والأتباع.

مصريًا، هو من الذين حكموا مصر من الخارج. وذلك من دقة القرآن، وأنه حقًا مُنزل من لدن حكيمٍ خبير، الذي يعلم السِّرَّ في السماوات والأرض.

سبب اضطهاد بني إسرائيل:

تغيّر الوضع في عهد سيدنا موسى، طرد الهكسوس أو العمالقة أو الرعاة، وحكمت الفراعنة مصر من جديد، أسرة من أسر الفراعنة حكمت مصر في ذلك الوقت، واضطهدوا بني إسرائيل.

لماذا اضطهدوا بني إسرائيل؟ البعض يقول: هذا أمر سياسي؛ لأنّ بني إسرائيل لم يساهموا معهم في حربهم ضد الهكسوس؛ لأنّ الهكسوس كان لهم منهم مواقف قديمة من عهد سيدنا يوسف، فيبدو أنّهم لم يساهموا في حرب الهكسوس، فأخذها عليهم المصريون.

وبالعوض الآخر يقول: إنّ فرعون رأى رؤيا.

وقول آخر يقول: إنّ الكهنة هم الذين قالوا له: إنّ غلامًا من بني إسرائيل سيشبّ ويكبر ويزول ملكك على يديه. فقال: نقتل هؤلاء الذكور ولا نبقي منهم أحدًا. فهذا سرُّ العزمة الفرعونية على تذبيح الذكور من بني إسرائيل واستحياء النساء، وهذه كانت القاعدة.

الله سبحانه أنجى موسى عليه السلام بآية من الآيات، ومعجزة من المعجزات، ونجّاه إلى أين؟ نجاه الله ليعيش في قصر فرعون، يعني يرَبِّي فرعون من يزول ملكه على يديه، كأنّ القدر يسخر منه، يقول له: افعلْ ما تفعل، وما أردناه سينفذ رغم أنفك.

سوء العذاب:

﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ﴾: الأعمال الشاقة والأعمال المزرية التي يتأفف منها المصريون، ويأنفوا أن يقوموا بها، يُكَلَّفون بني إسرائيل بها، بتنظيف المراحيض، وحمل الحجارة، وغير ذلك من الأعمال الشاقة المهينة.

﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ﴾: يُكَلَّفونهم بأشدّ الأعمال وأسوأها.

﴿سَاءَ الْعَذَابِ﴾: العذاب هو الألم، فهم يُكَلَّفونهم الأشياء المؤلمة والثقيلة والمتعبة والشاقة، كلّها يُكَلَّف بها بنو إسرائيل.

السرُّ في إضافة الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَذِجُونَ﴾:

﴿وَيَذِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾: في هذه السورة أضاف «واو» العطف في قوله: ﴿وَيَذِجُونَ﴾، وفي سورة البقرة قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ يُذِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، يذبحون هنا - في سورة البقرة - للتفسير أو للبدل يعني: ما سوء العذاب؟ هو تذبيح الأبناء واستحياء النساء.

الفرق بين التقتيل والتذبيح:

في سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]، فأحياناً يعبر عن سوء العذاب بالتقتيل وأحياناً يعبر عنه بالتذبيح.

التقتيل: هو إزهاق روح الإنسان بأي آلة من الآلات، أما التذبيح فهو: تقطيع الرقاب. فهم أحياناً يقطعون الرقاب، وأحياناً يقتلون بالآلات أخرى.

والتعبير القرآني يقول: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، و﴿يُقْتَلُونَ﴾ ولم يقل: «يُذَبِّحُونَ» و«يُقْتَلُونَ»؛ لأنَّ هذا يدلُّ على التكثير، ومعنى ذلك أنَّها مجازر، يُذَبِّحُونَ وَيُقْتَلُونَ.

﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ في آية البقرة والأعراف فسّر هذا السوء بأنّه: التذبيح أو التقتيل للأبناء واستبقاء النساء أحياء.

وفي هذه الآية عطف ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، يعني جعل هذا أمراً آخر، فهم كانوا يُكَلِّفُونَهُمْ بالأعمال الشاقة، ويذبحون أبناءهم، فأضافت هنا معنى جديداً، يعني غير الأعمال الشاقة والمُزْرِية والمُذَلَّة التي كَلَّفُوهم بها، ذَبَّحُوا أبناءهم واستحيوا نساءهم^(١).

والأبناء: الأولاد الذكور، واستحيوا نساءهم، أي: أبقوهم على قيد الحياة للخدمة والمتعة، فالنساء كانت تعمل خادماً عندهم، وهذا أشدُّ من القتل، فالإنسان الكريم يعدُّ استبقاء ابنته وامراته عند عدوه لتخدمه أشدَّ عليه من القتل والذبح.

مرجع الضمير في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ﴾:

﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: هل معنى: ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الإنجاء، فيكون البلاء هنا نعمة، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ﴾

(١) قال الفيروزآبادي: قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: ٤٩]، بغير واو على البدل من ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾، ومثله في الأعراف: ﴿يُقْتَلُونَ﴾، وفي إبراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالواو؛ لأن ما في هذه السورة والأعراف من كلام الله تعالى، فلم يرد تعداد المَحَن عليهم، والذي في سورة إبراهيم من كلام موسى، فعُدَّ المَحَن عليهم، وكان مأموراً بذلك في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ﴾. انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي (١/١٤٢)، تحقيق محمد علي النجار، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿[الأنبياء: ٣٥]، أو يكون معنى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي: في تقتيل الأبناء واستحياء النساء.

﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: بلاء شديد ومحنة عظيمة، وأيُّ محنة أعظم من هذه؟!

رَبُّكُمْ هو الذي فعل هذا، ليؤدّبكم لأنّكم خرجتم على دين التوحيد، واتبعتُم ملة الآخرين، تركتم ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، واتبعتُم ملة المصريين، وعبدتم معهم الأصنام، وانحرفتم عن دين التوحيد الذي جاء به أنبياءكم من قبل.

إعلام موسى قومه بسنة إلهية:

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ لِمَن شَكَّرْتُمْ لَّا زَيْدَنَّاكُمْ وَلَمِنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: لا زال سيدنا موسى يخاطبهم، ويقول لهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ﴾، من الإذن والإعلام، كما قال سبحانه في آية أخرى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ لِمَن شَكَّرْتُمْ لَّا زَيْدَنَّاكُمْ وَلَمِنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. [الأعراف: ١٦٧]، أي: أعلمكم ربكم بهذه الحقيقة، بهذه السنة، بهذا القانون الإلهي: ﴿لَمِنَ كَفَرْتُمْ لَّا زَيْدَنَّاكُمْ وَلَمِنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

الإنسان بين الشكر والكفر:

لأنّ الإنسان بين شكر وكفر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، والشكر له ثوابه، والكفر له عقابه، شكر النعمة والكفر بالنعمة لا يترك، لكن الله من سنته الثواب والعقاب

في الدنيا وفي الآخرة، وهنا هذا الثواب في الدنيا: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

والشكر والزيادة عليه متعلق بالنعمة، فكلُّ نعمة يقابلها شكر أو كفر، فالحديث هنا عن النعم، وهو يذكّرهم بنعم الله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ثم يبيّن لهم هذا القانون.

قوانين قرآنية:

هناك قوانين قرآنية مثل القوانين الطبيعية: ﴿إِنْ نَضُرُّوا اللَّهَ يَضُرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، هذا قانون قرآني.

وهناك: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، هذه قوانين قرآنية.

معنى الشكر وعناصره:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: ما معنى الشكر؟ الشكر معنى مركّب من عدّة عناصر، بعضه يتعلّق بالقلب، وبعضه يتعلّق باللسان، وبعضه يتعلّق بالجوارح.

شكر القلب:

أما ما يتعلّق بالقلب: فأن تعترف بأنّ الله تعالى هو المنعم، فالنعم كلها من عنده: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

لا بدّ أن يعترف القلب بهذا، فليس من المعقول أن يقدم لك أحد

خدمة ولا تشكره، كما جاء في الحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(١). ولكن لا بدّ أن تعلم أن الذي رقق قلبه لك، ويسّره لخدمك هو الله، فلا تنس صاحب الفضل الأول.

فالأمر الأول: أن تعترف بأن الله هو صاحب النعم كلّها، هذا ما يتعلّق بالقلب.

شكر اللسان:

الأمر الآخر: ما يتعلّق باللسان، فتقول: الحمد لله. تشكر بلسانك، وتحمد الله به. كما قال الشاعر^(٢):

لك الحمد مولانا على كلّ نعمةٍ ومن جملة النعماء: قولي لك الحمدُ

يعني: أحمّدك على كل ما أنعمت به عليّ، ومن جملة هذه النعم: أن وفّقني لأن أقول لك: الحمد لله. فهذه نعمة جديدة، كما قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً عليّ له في مثلها يحبُّ الشُّكرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلّا بفضلِهِ وإن طالت الأيامُ واتّصل العُمُرُ^(٣)!

مهما قلتَ لن تستطيع أن توفيّ الله تعالى حقّه من الشكر، لأنّك إذا شكرت الله فهذه نعمة جديدة تحتاج شكرًا جديدًا، فلن ينتهي الشكر أبدًا، لن تستطيع أن تعطي الله تعالى حقّه من الشكر.

(١) رواه أحمد (٧٩٣٩)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب

(٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤) وقال: حديث صحيح. عن أبي هريرة.

(٢) هو محمود الوراق. كما في الفاضل للمبرد ص ٩٥، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٤٢١هـ.

(٣) من شعر محمود الوراق. انظر: المصدر السابق.

حمد الله سبحانه على نعمه:

الشكر باللسان تقول: الحمد لله.

الإسلام علّمنا إذا أكلنا وشبعنا أن نحمد الله^(١).

إذا ركبنا الدابة أو السيارة أن نقول: الحمد لله، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿[الزخرف: ١٣، ١٤]﴾^(٢).

تستيقظ من نومك تقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشُور»^(٣). كلُّ هذا يعلمك الحمد.

كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحبُّ قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال»^(٤)، أي: إذا كان الأمر يكرهه يقول: الحمد لله. لذلك نقول: الحمد لله، الذي لا يُحْمَدُ على مكروهٍ سواه.

رُبُّنا وحده هو الَّذِي يُحْمَدُ على المكروه؛ لأنَّ المكروه قد يكون وراءه خيرٌ وأنت لا تدري: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

(١) إشارة إلى الحديث: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها». رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه مسلم في الحج (١٣٤٢)، عن ابن عمر.

(٣) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢)، عن حذيفة.

(٤) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، والطبراني في الأوسط (٦٩٩٩)، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١، ٥٠٠)، وصحَّح إسناده على شرطهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠)، عن عائشة.

وَرُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٍ، وَكَمْ مِنْ مَنَحَةٍ فِي طَيِّ مَحَنَةٍ. فَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ دَائِمًا. مِنَ الشُّكْرِ الْمَطْلُوبِ أَنْ تَقُولَ ذَلِكَ دَائِمًا، أَنْ تَعُودَ لِسَانَكَ عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ.

شكر الجوارح:

والأمر الثالث: شكر الجوارح. فالبدن كله يجب أن يشكر الله باستعمال النعم فيما يُرضي الله وَعَلَيْكُمْ، فيما يحبُّ الله، لا فيما يكره، فيما يرضى عنه، لا فيما يسخط عليه.

لا يجوز أن تُسخر نعم الله في معصية الله، كثير من النَّاسِ لم يعرفوا قدر النعم التي منَّ الله عليهم بها، فاستخدموها في معصية الله، فمثلاً الله أعطاه هذا الهاتف، فبدلاً من أن يستخدمه في قضاء المصالح، يستخدمه في معاكسة الفتيات أو النساء في بيوتهنَّ، فيقلب النعمة إلى نقمة، والعياذ بالله وَعَلَيْكُمْ.

خلق الله له العقل الذكي ليستخدم ذكائه فيما يُصلح نفسه، ويُصلح أسرته ويُصلح أُمَّتَهُ، فتجده يستخدم هذا الذكاء في الإفساد! فلم يَصِرْ هذا العقل آلة خير، بل صار آلة شرٍّ لإشاعة الفساد في المجتمع.

ومثل ذلك: العلم الحديث الآن، الله سبحانه سخر للنَّاسِ العلم، العلم الطبيعي، العلم الكوني: الفيزياء، والكيمياء، والرياضة، والفلك، وعلم الذرة، والثورات العلميَّة التي نعرفها كلها: الثورة التكنولوجيَّة، والإلكترونيَّة، والفضائيَّة، إلخ.

الإنسان للأسف بدل أن يستخدم هذه القوى التي هيَّأها الله له وهذه النعم العظيمة فيما ينفع البشريَّة، استخدمها فيما يضرُّ البشريَّة، وفيما

يفسد البشريّة، فمثلاً أمريكا آتاه رُبُّنا قارة بَكْرًا، فيها من الخيرات ما يكفي أضعاف أهل أمريكا، ثمّ انظر إلى الصين، ألفٌ ومائتا مليون آخذين قطعة صغيرة من آسيا.

حتى قال «ماوتسي تونج»: نحن ندعو إلى إعادة توزيع البشر على الكرة الأرضيّة من جديد، فغير معقول أنّ الأمريكان والكنديين يأخذون قارة وحدهم، والناس في بنجلادش مائة وسبعون مليوناً، لو تنظر إليها على الخريطة تجدها بلداً صغيراً جداً، وهو مصاب بالفيضانات، تأتي فتقتلع زروعه، وتدمّر عليه أموره.

هؤلاء آتاهم ربُّنا هذه القارة، وآتاهم العلم، وآتاهم التكنولوجيا، وآتاهم، وآتاهم، لكنهم لم يستخدموا هذا في مصالح الخلق، وفي إعمار الكون، وإنّما استخدموه في تدمير الأقاليم، وفي إذلال الشعوب، في الطغيان على خلق الله، في التآله في الأرض، كما قال تعالى عن قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ هكذا أمريكا قالت: من أشدُّ مِنَّا قوة؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، هم تألّوها في الأرض.

من خصائص الألوهيّة: أَنَّ اللَّهَ سبحانه قال عن ذاته المقدّسة: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أمريكا لا تُسأل عمّا تفعل، ولا تحاسب على ما تقول، تفعل ما تشاء، تغزو أي بلد، هكذا هي متألّهة في الأرض.

هذا هو الكفر بالنعم، أمّا الشكر: أن تستخدم النعمة فيما خلقت له، فيما تصلح به الحياة، فيما يصلح به الإنسان، فيما ينهض بالبشريّة، فيما

يرقى بها، فيما يجعل يومها خيراً من أمسها، ويجعل غداً خيراً من يومها، هذا هو الشكر، والكفر عكس ذلك، وهو أن تستخدم النعمة في ضد ما خلقت له، في ضد ما يريد الله منها وما يحب الله منها.

قانون: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾:

والله وِعَلَّ يقول: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، أزيد النعم وأوسعها عليكم وأدبرها، فتستمر هذه النعم، فهذا هو القانون في الشق الأول: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

واللام هنا في قوله تعالى: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ﴾ مؤطّئة للقسم ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ﴾، ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ كأن الله تعالى يقسم ويؤكد أن هذا القانون الإلهي قانون لا يُخرم: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾، بنعمتي ولم تؤدّوا حقّها، ووضعتموها في غير موضعها، وجعلتموها في الإفساد بدل الإصلاح، وفي الشرّ بدل الخير، وفي إبطال الحق وإحقاق الباطل، قلبتم النعم إلى أدوات في يد إبليس، بدل أن تكون وسائل يرضى عن آثارها الرحمن، أصبحت وسائل يرضى عنها الشيطان ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

عقاب كفران المنعم:

﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، عذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، الله تعالى يعاقب من كفر بنعمته، كما قال الله وِعَلَّ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].



سلب نعمتي الأمن والغنى:

أعظم ما تطلبه المجتمعات لتسعد في حياتها أمران: الأمن والاطمئنان، والرغد والسعة في العيش، الكفاية والأمن، وقد امتنَّ الله على قريش بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

فشرُّ ما يصاب به المجتمع هو: الجوع والخوف، الذي يُبتلى بهذين الأمرين - كما هو الشأن في كثير من بلادنا العربيَّة والإسلاميَّة - هو في بلاءٍ عظيمٍ.

إنَّ مجتمعاتنا مبتلاةٌ بالجوع والخوف، أكبر نسبة من البطالة، وأكبر نسبة من الفقر، وأكبر نسبة من الجائعين، ممَّن يعانون من أمراض سوء التغذية، وممَّن يموتون من هذه الأمراض، في بلادنا العربيَّة والإسلاميَّة. انظر إلى الهياكل العظمية التي نراها على شاشات التلفزيون في السنغال وفي الصومال، وفي إفريقيا، هياكل! فهم لا يجدون ما يأكلون، لا يجدون القوت.

بلادنا مصابة بأحد هذين البلاءين: «الجوع أو الخوف»، وأحياناً يُبتَلَوْنَ بالاثنين معاً: بالجوع والخوف.

ومن حقِّ النَّاس في كثير من بلادنا أن يخافوا، الواحد يدخل بيته لا يدري ربَّما جاءه من يأخذه إلى حيث لا يشعر إلى مكان وراء الشمس، مثل إخواننا في العراق الآن، يُخَطَف أحدهم من بيته، ولا يعرف أين ذهب، ولا من أخذه؟ ولا يعرفون له جثَّة، وأحياناً يجدون جثته في خربة من الخرب، أو في طريق من الطُّرُقَات، هذا هو حال من فقد الأمن.

الأمن شيءٌ عظيم، لذا من خصائص الجنة أنها دار أمنٍ ودار سلام: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

سيّدنا يوسف لما استقبل أبويه وإخوته قال لهم: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، فالأمنُ أهمُّ ما يطلبه الإنسان، فإذا كان معه سعة العيش ورغده، كانا نعمتان من أعظم ما يؤتاه الإنسان، فمن كفر بنعمة الله سلب هذين الأمرين.

نتيجة الإعراض عن سنن الله وشرعه:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. بعد رغد العيش أصيبت بالجوع، بعد أن كانت آمنة مطمئنة أصيبت بالخوف، ولم يكن هذا ظلمًا من الله لهم، ولكن بما كانوا يصنعون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

ذكر لنا القرآن من قصص الكفر بنعمة الله في أكثر من سورة، كما ذكر في قصة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ ما هي هذه الآية؟ ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦] أعرضوا عن هداية الله، أعرضوا عن منهج الله، أعرضوا عن سنن الله، حتّى لم يهتمّوا بأمر الزراعة، وأمر السدود، وأمر السقي والحرث، بل أفسدوا، وعاشوا في ترف ككثير من الناس حينما تتسع عليهم النعم، ينسون حقّ هذه النعم. النعم يجب أن تصونها، وصيانتها ليس بأن تقول: يا ربّ، صُنّها، لا، لا بدّ أن تعمل على صيانتها.

كان عند هؤلاء القوم سدٌّ يُسمَّى: سدٌّ مأرب. فأهملوا أمر السدِّ، فكانت النتيجة أن جاءهم سيلُ العرم، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦]، كفروا بالنعمة: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].

إنَّ من يكفر بالنعمة ينزل به عذاب الله، يعجِّل الله له العذاب إذا أهمل سنن الله، أو أهمل شرع الله، فإذا أهملهما معاً كانت المصيبة مصيبتين: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].

﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ هذا القانون الرباني الذي ذكره سيدنا موسى لقومه، وذكره القرآن بهذه الصيغة، وحينما يذكر القرآن مثل هذه الصيغ، يدخلنا في الخطاب أيضاً من ناحية أخرى، لأنَّ مثل هذه القوانين الإلهية لا تنسخ، القوانين هي هي؛ لأنَّ ربَّنَا سيجازي الشكور من بني إسرائيل بالزيادة، وسيجازي أيضاً الشكور عندنا - يعني عند المسلمين - هذه قوانين تمثل عدل الله في الأرض، هي ثابتة غير منسوخة، وكما قال الأصوليون: شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد عندنا ناسخٌ له. ولم يرد في ديننا ما ينسخ هذا، لذا يخاطب به المسلمون، ويخاطب به غير المسلمين: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

الله سبحانه أنعم على أهل الخليج بالبترو، وسَّع عليهم من رزقه، وأفاء عليهم من فضله، بعض النَّاس عرف هذا الأمر، وعرف الله حقَّه، وعرف للمال حقَّه، وعرف للفقراء حقَّهم، وأدَّى الزكاة وغير الزكاة.

وبعض النَّاس يظنُّ أنَّ هذا المال دائمٌ له هو، وأنَّه يستحقُّه، يقول كما

قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، أنا بجهدي وخبرتي، وبمهارتي وبذكائي جمعت هذا المال، أنا أحقُّ به.

هل البترول الذي ظهر تحت الأرض، هل ظهر بذكائنا وبمهارتنا؟ لا، بل ظهر بذكاء الخبراء الأجانب ومهارتهم! الخبراء هم الذين اكتشفوا، ونحن استفدنا منهم، فالله هو الذي سخر لنا هذا، فعلينا أن نشكر نعم الله وَعَجَّلْ، حتَّى يزيد الله لنا من فضله، وحتَّى يثبت الله هذه النعم:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تَزِيلُ النِّعَمَ
وداوم عليها بشكر الإله فربُّ العبادِ سريعُ النِّقَمِ^(١)

الله سبحانه غني حميد:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: لا تظنُّوا أنَّ الله حين يطلب منكم أن تشكروا نعمه، وأن تسيروا على منهاجه، وأن تتَّقوه، وأن تؤدُّوا إليه حقَّه، أنَّ الله في حاجة إليكم. لا، الله هو الغنيُّ عن كلِّ النَّاسِ، وكلُّ من عداه وما عداه محتاج إليه، نحن لا وجود لنا من ذاتنا، ولا قدرة لنا من ذاتنا، نحن كُنَّا عديمًا فأصبحنا شيئًا مذكورًا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. فنحن لم نكن شيئًا مذكورًا، من الذي جعلنا شيئًا مذكورًا؟ من الذي وهب لنا الحياة؟ الله، هو الذي خلقنا من عدم، هو الذي سخر لنا النِّعم، هو الله، فينبغي أن نعلم أنَّنا جميعًا محتاجون إلى الله، فقراء إليه،

(١) ذكرهما الماوردي من غير نسبة في أدب الدنيا والدين ص ٢٤٥، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م. وروى ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز كان يتمثل كثيرًا بهذه الأبيات. انظر: تاريخ دمشق (٧٠/٥٤)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

والله سبحانه غنيّ عنا: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿فاطر: ١٥ - ١٧﴾.

وفي الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(١).

الله سبحانه هو الغني عن طاعة المطيعين، لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وكما قال سيدنا سليمان حينما جاءه عرش بلقيس، جاءه من اليمن في لمح البصر، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، يعني يختبرني: أعرف حق هذه النعمة فأشكر، أم لا أعرفها فأكفر بنعمة الله؟ ليبلوني ويختبرني أأشكر أم أكفر؟ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٣٦٧)، عن أبي ذر.

الدرس الثالث

دعوة الرسل

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا
أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا
إِلَيْهِ مُرِيبٍ * * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ
أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا
سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَازَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى
إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ
خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ
وَرَأْيِهِ جَهَنَّمَ فَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ * مَثَلُ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * [إبراهيم: ٩ - ١٨].



الالتفات من أسلوب القرآن البلاغي:

هل هذه الآيات تكملة وتتمة لخطاب موسى لقومه، أم هي بيان استثنافي، أو ما يسمّيه علماء البلاغة: التفاتاً لموضوع جديد؟!

بعض المفسّرين مالوا إلى أنّها من تتمّة كلام موسى. والبعض قال: لا، هي كلام جديد.

وأنا مع هذا القول الثاني؛ فقد انتهى كلام موسى، وبدأ القرآن في خطابٍ جديد للمشرّكين، بدليل أنّ الخطاب لقوم يكفرون بالله، ويكفرون بالرسول. وقوم موسى ما كفروا بالله، ولا برسولهم، هم يقولون: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ممّا يدلّ على أنّهم كفرّة ومكذبون.

حثُّ القرآن على الاعتبار بالتاريخ والسير في الأرض:

فهو ابتداء كلام من جديد، يوظف فيه التاريخ لخدمة الرسالة، والتاريخ مخزن العبر، وذاكرة الأمم.

والقرآن يحث دائماً على الاعتبار بالتاريخ، تاريخ الماضين، هو مدرسة نتعلّم منها، ونستفيد منها الدروس دائماً، ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

فهو يطلب منا أن نسير في الأرض، نرحل مُشْرِقِينَ وَمُغْرِبِينَ، وننظر في آثار الأمم ونستفيد منها.

مصير الأمم المكذبة:

الأمم التي كذبت رسل الله، وعصت رسل الله، واتَّبعت ما كان عليه الآباء، ورفضت التوحيد. ماذا كان مصيرها؟

التاريخ يحدثنا أن مصيرها كان هو الهلاك، فهو هنا يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾، النبأ: هو الخبر ذو الشأن. وهذه أخبار لها شأن، لأنها تتعلق بأمم صَدُّوا عن رسل الله، ووقفوا ضدَّ الرسالة.

الله ﷻ من لطفه وفضله ورحمته وحكمته لم يدع النَّاسَ هملاً، ولم يتركهم سُدىً، بل أرسل إليهم رسلاً مبشِّرين ومنذرين، ومنبِّهين ومُعَلِّمين: ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

حاجة العقل البشري إلى هداية الوحي:

كان النَّاسُ في حاجة إلى من يأخذ بأيديهم، لِيُعَرِّفَهُمْ ما يحبُّ الله وما يكرهه، وما يرضاه وما يسخطه، لم يكتف بالعقل وحده؛ لأنَّ العقل وحده قد يضلُّ الطريق، قد لا يهتدي إلى سواء السبيل.

رأينا كبار الفلاسفة يقعون في أخطاء كبيرة، حتَّى لا يعرفون حقَّ الله وَجَلَّ ومقام الله جَلَّالاً.

أكبر فلاسفة اليونان «أرسطوطاليس» يقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ فِي الْكَوْنِ شَيْئًا، وَلَا يَحِلُّ، وَلَا يَعْقُدُ، وَلَا يَدْبُرُ فِيهِ أَمْرًا، اللَّهُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا ذَاتَهُ.

حتى إِنَّ مؤرِّخ الفلسفة المؤرخ الأمريكي المشهور ول ديورانت أرخ للتاريخ في كتاب شهير اسمه: «قصة الحضارة»^(١)، وله كتاب آخر اسمه: «مباهج الفلسفة».

يقول في «مباهج الفلسفة»: «يا لآله أرسطو من إله مسكين، إِنَّه لَا يعمل في الكون شيئًا، وَلَا يدبُر فيه أمرًا، إِنَّه مثل ملك الإنجليز يملك وَلَا يحكم»^(٢). فهذا إله أرسطو لَا يعرف شيئًا في هذا الكون إطلاقًا.

وهناك فيلسوف ثانٍ اسمه «أفلوطين»، وإذا كان إله أرسطو لَا يعرف إِلَّا نفسه، فاله أفلوطين لَا يعرف نفسه^(٣).

هؤلاء فلاسفة كبار، ولكنهم انحدروا إلى هذا المستوى من الفهم لمقام الله وَجَّه!

ومن هؤلاء الفلاسفة من يقول بفلسفة اللذة، ومن يقول بفلسفة المنفعة، ومن يقول بفلسفة القوة، ومن يقول: إِنَّ الإله مات والإنسان عليه أَنْ يفعل ما يشاء - (نيتشه) وغيره من الفلاسفة -، واختلف بعضهم مع بعض وناقض بعضهم بعضًا، هذا يثبت، وهذا ينفي، وهذا

(١) هو كتاب موسوعي تاريخي، يتكوّن من أحد عشر جزءًا، يتحدث فيه عن قصة جميع الحضارات البشرية، منذ بدايتها وحتى القرن التاسع عشر، وقد ترجم الكتاب إلى العربية وأصدرته المنظمة العربية للعلوم.

(٢) مباهج الفلسفة ص ١٦١، ١٦٢، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، نشر مكتبة الأنجلو فرنكلين.

(٣) انظر: «الله» للأستاذ عباس محمود العقاد. ضمن موسوعة عبّاس العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠م.

يُحَقُّ وهذا يُبْطِل، حَتَّى قال أحد أساتذة الفلاسفة: «إِنَّ الفلاسفة لا رأي لها؛ لأنّها تعطي الشيء ونقيضه»^(١). هذا يقول شيئاً، والثاني يقول بخلافه تماماً.

ولذلك كان النَّاس في حاجة إلى شيء يُعين العقل؛ لأنَّ العقل وحده لا يستطيع أن يهدي الإنسان سواء السبيل.

رأينا العرب في جاهليتهم هداهم العقل إلى أن يئدوا البنات: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وقتلوا الأولاد من إملاق، أو خشية إملاق - بنين وبنات - إما من فقرٍ واقع، أو خوف فقرٍ متوقع! رأيناهم يفعلون هذا، ورأينا الأمم تفعل أشياء غريبة جداً، لهذا كان النَّاس في حاجة إلى رسالة، إلى وحيٍ من الله ﷻ، الوحي هذا يرشد العقل إذا انحرف، ويهديه إذا ضلَّ، ويصوّبه إذا أخطأ.

خطأ الحواس وتصحيح العقل لها:

هناك هدايات عدة: هداية الحواس، الله سبحانه أعطانا الحواس الخمس: البصر، والسمع، والشم، واللمس، والذوق. هذه الحواس الخمس قد تخطئ، ما الذي يُصحِّح خطأها؟ العقل، يعني أنت قد تنظر إلى النجم في السماء فيتهياً لك أنّه كالكرة الصغيرة.

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَاهُ وَالذَّنْبُ لِلظَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ^(٢)

(١) مقال: الفلسفة للشيخ عبد الحليم محمود (١٤١/٥)، مجلة البحوث، العدد الخامس، من المحرم إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٠هـ.

(٢) من شعر: أبي العلاء المعري. انظر ديوانه: سقط الزند، ص ٦١، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧م.



فهذه النجمة التي في عينيك صغيرة، هي أكبر من الأرض بملايين المرات، أو عشرات الملايين، أو مئات الملايين، علم الفلك والرياضيات وحساب الرياضيات أوصلهم إلى هذا.

يمكن أن ينظر أحدنا إلى الظلّ فيراه ساكنًا، حسب البصر الظلّ ساكن، بعد دقائق الظلّ تحرّك، إذن لم يكن ساكنًا، هو يتحرّك ببطء، ولكنّ البصر لا يراه.

يمكن للبصر أن يرى في الصحراء السراب يحسبه ماءً، حتّى إذا أتيت الموضع الذي رأيت فيه ماءً لم تجد عنده ماءً ولا شيئًا، ﴿كَرَّابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]. فهذا البصر - هو أقوى الحواس - يمكن أن يخدعك، ما الذي يُصحّح خطأ الحواس؟ العقل.

فإذا أخطأ العقل ما الذي يصحّحه؟ الوحي، فالوحي نورٌ على نور، زيادة على نور الفطرة، ونور العقل، كان نور الله بالوحي.

عجائب الطاقة الإنسانية:

وليس بعجيب أن يوحي الله إلى البشر، ما العجيب في هذا؟ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٢]، ما العجب في هذا؟!

العجب أن يكون الإنسان عنده قدرة على أن يتلقى وحي الله! الإنسان أعطاه الله طاقات عجيبة، بعض الناس عنده طاقة جسميّة يحمل مائتين وستين كيلوجرامًا، ناس عندهم قدرات أخرى، كالذي يجرّ سيارة بأسنانه. طاقات عجيبة في الإنسان، ولعلّكم رأيتم بعض هذه الأعاجيب.

الأستاذ أحمد حسين ألف كتاباً سمّاه: «الطاقة الإنسانية»^(١)، وذكر من عجائب الطاقة الإنسانية الشيء الكثير، فما الذي يدهش الإنسان أن تكون عنده طاقة روحية، يستطيع أن يتلقّى بها كلام الله، ووحى الله وُجِّلَ، أو من ناحية الربوبية، ما الذي يُعجز الله أن يخاطب الإنسان بكلام يُسمِّعه إياه؟ ليس هذا بعجيب.

نعمة إرسال الرسل وموقف أقوامهم منهم:

فإرسال الرسل نعمة من الله وُجِّلَ ورحمة منه، وهي تدلُّ على تمام حكمة الحكيم، الذي يريد أن يوصل الهداية الكاملة إلى الناس، فلم يكتف بعقولهم وحدها، ولا بضمايرهم وحدها، ولكن أرسل لهم الوحي، النبوة، الرسالة.

هؤلاء الرسل جاؤوا إلى أقوامهم، ولكن للأسف نرى كثيراً من الأقسام كذبوا الرسل، ومن هنا كان هذا الخطاب: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، أما جاءكم أخبار هؤلاء الأقسام، وكيف وقفوا ضدَّ الرسل الذين أرسلهم الله لهم، وكذبوهم؟!

قوم نوح: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

وعاد قوم هود: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وقوم فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

كذب هؤلاء الرسل، ألم يأتكم نبؤهم؟ نبؤهم فاضت به الأخبار،

(١) كتاب يبحث في إثبات الوجود الغيبي وما وراء المادة، ويعيب على الماديين غرورهم، ويضرب الأمثلة للهفوات والأخطاء التي وقع فيها علماء المادة.

وعرفه القاصي والداني، خصوصًا هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه.

الاستفادة من تاريخ الرسل وأممهم:

قوم نوح هم الذين أغرقهم الطوفان، وقصة الطوفان معروفة عند البشر جميعًا، ولذلك يُعدُّ سيدنا نوح أبا البشرية الثاني؛ لأنَّ آدم يُعدُّ أبا البشرية الأول، ونوحًا أبو البشرية الثاني: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

فقوم نوح جاء الطوفان فأغرقهم، وكذلك عاد وثمود، وقصَّتْهم على وجه الخصوص معروفة عند العرب؛ لأنَّ كلاً من عادٍ وثمود هم قوم من العرب، يُسمَّون العرب البائدة، الذين بادوا، ودرست آثارهم، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، تمرُّون على مساكنهم.

عادٌ كانوا في الأحقاف: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

في جنوب الجزيرة هناك إقليم اسمه إقليم الأحقاف حتَّى الآن، وثمود في مدائن صالح، من يذهب إلى تبوك يمرُّ بمدائن صالح.

والنبيُّ ﷺ هو والصحابة لمَّا ذهبوا في غزوة تبوك مرُّوا بحجر ثمود، وقال النبيُّ ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذِّبين إلَّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٠)، عن ابن عمر.

﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، ولذلك قال الله تعالى في أواخر هذه السورة: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، فهو يُذكّرهم بهذا التاريخ، لا بدّ أن يستفيدوا من تاريخ الأمم وتاريخ الرسل.

القوم المهلكون:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: قوم نوح أهلكهم الطوفان، وثمود قوم صالح أهلكوا بالصيحة، وعاد قوم هود أهلكتهم الريح: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٥ - ٧].

والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله:

﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ هناك قوم إبراهيم، وهناك قوم لوط، المؤتفكات أو المؤتفكة، الذين جعل الله قريتهم عليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، وهناك قوم مدين، وهناك قوم فرعون، كل هؤلاء جاؤوا من بعد عاد وثمود: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، كناية عن أقوام كثيرين، وليس من شأن القرآن أن يُعنى بتفصيل هؤلاء؛ لأنّ المهم هو العبرة.

فالذين كذبوا رُسُلَهُمْ وعَصَوْا رَبَّهُمْ ماذا كان مصيرهم؟ كان مصيرهم العذاب والهلاك، هلكوا لم تُغنِ عنهم حصونهم من الله شيئاً، لم تُغنِ عنهم قصورهم، لم تُغنِ عنهم قوتهم: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ

بَغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ [فصلت: ١٥].

الرسول سفراء عن الله ﷻ :

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الرسول جاءتهم بالبيّنات، وهي الآيات
البيّنات التي تدلّ على صدقهم، وصحّة نبوتهم، وأنّهم لا يمثّلون
أنفسهم، وإنّما يمثّلون الإرادة الإلهيّة.

الرسول هذا بمثابة سفير يمثل السماء في الأرض، كما نرى في
عصرنا، السفراء يمثّلون دولهم، وأيُّ سفير يأتي إلى دولة - لكي تعرف
الدولة أنّ هذا جاء من البلد الفلاني ومن الدولة الفلانيّة - لا بدّ أن يُقدّم
أوراق اعتماده التي تدلّ على أنّه يمثّل هذه الدولة، والرسول حينما يأتون
يقولون: نحن جئنا من قبل الله سبحانه، رسل مبعوثون من عند الله. نقول:
ما الدليل على هذا؟ ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیۡنَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]،
فلا بدّ أن يأتي بالآيات البيّنات التي تدلّ على أنّه مبعوث العناية الإلهيّة،
وأنّه لا يتكلّم من عند نفسه، وإنّما يتكلّم بوحى من ربّه.

مجيء الرسل بالآيات الواضحات:

فكلُّ رسول معه من الآيات البيّنات ما يدلّ على صدقه، وهي قد
تكون معجزة - آية خارقة - يُحيي الموتى، يُبرئ الأكمه والأبرص، أو
العصا تنقلب حيّة، وقد تكون شيئاً آخر.. إلخ.

سيرته نفسها تدلّ على صدقه، القرآن لم يقل: أرسلنا رسلنا
بالمعجزات، ولكن قال: بالبيّنات أو بالآيات، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِآيَاتِنَا﴾ [هود: ٩٦].

الآية والبيّنة: العلامة الدالة على صدق الرسول، وقد تكون آية حسية كونية خارقة، وقد تكون آية أخلاقية. قد تكون دلالة من الدلالات التي تدلّ على أنّ هذا الرجل صادق وليس كاذباً، ليس مزيفاً في دعواه.

وقد تكون البيّنات: العقائد والمناهج والأحكام، جاؤوا بأحكام بيّنة، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، هذه من البيّنات، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فالبيّنات إما الآيات الدالة على الصدق، أو المناهج الإلهية التي تهدي البشر للتي هي أقوم.

موقف الأقوام المكذبة من دعوة الرسل:

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: ردّوا أيديهم في أفواههم. هذه الضمائر لمن؟ هل هم الذين أرسل إليهم الرسل؟ هؤلاء الأقوام، ردّوا أيديهم في أفواههم، يعني وضعوا أيديهم في أفواههم؛ لأنّهم كانوا يضحكون استهزاءً بالرسل، فخشية أن تبدو دواخل أفواههم يضع يده حتّى يداري على فمه. هذا احتمال.

أم الذين ردّوا أيديهم في أفواههم، أو وضعوا أيديهم، هؤلاء الكفار، في أفواه الرسل؟ يعني يُسَكِّتُونَهُمْ: اسكتوا اسكتوا. كما قال الله تعالى عن قوم سيدنا نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، أي: لا نريد أن نراك، ولا أن نسمع صوتك، ﴿وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ لماذا؟ حتّى لا يروه، ووضعوا أيديهم في آذانهم حتّى لا يسمعوه، فكان هؤلاء يردّون أيديهم في أفواههم: يعني يسكتونهم، يضعون أيديهم في أفواههم، لإسكاتهم، مبالغةً في الإعراض عن دعوة أنبياء الله تعالى ورسله.

هل هذا لا بدّ أن يحدث بالفعل، أم هو كناية عن السكوت والإعراض؟

القرآن يستعمل الكنايات، كأن يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، ليس من الضروري أن يعضّ، إنّما هذا كناية عن الندم، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢]، هذه كناية عن الحسرة، فقد تكون هذه كنايات.

الجمود العقلي للوثنيين:

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾: انظر إلى هذا الصدود، إلى هذا الإعراض والاستكبار والجمود العقلي، الذي تصيب به الوثنيات الإنسان، ويصيب به الشرك عقل الإنسان.

الإنسان المشرك يصاب بلوثة في عقله، فلا يميّز بين الحق والباطل، ولا يميّز بين النور والظلام، ولا يفرّق بين الهدى والضلال، يقولون: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾، جاؤوهم بالهدى، جاؤوهم بالبينات، جاؤوهم بالحق الواضح الذي قامت الدلائل على صحّته، فقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾.

هل هم يؤمنون بأنهم أرسلوا؟ يقولون: ﴿كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾، هم لا يؤمنون بأنهم أرسلوا، فكيف يقولون: بما أرسلتم به؟! هذا من باب السخرية، من باب الاستهزاء، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَأَيَّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] كيف يقولون: إنك لمجنون. ويقولون: نزل عليه الذكر؟! - يعني هذا من باب الاستهزاء: الذي زعم

أَنَّهُ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ، فَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿أُرْسِلْتُمْ﴾ أَي: زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أُرْسِلْتُمْ.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: الشكُّ المُوَقَّعُ فِي الرِّبَةِ وَالْحَيَرَةِ، مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ، وَمِنَ الشَّرَائِعِ، وَمِنَ الْأَخْلَاقِ، وَمِنَ السُّلُوكِيَّاتِ، نَحْنُ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَشَكٌّ شَدِيدٌ مُوَقَّعٌ فِي الرِّبَةِ.

دلائل الفطرة على وحدانية الله وقدرته:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فِيمَ الشَّكُّ؟ فِي اللَّهِ؟! أَتَشْكُونَ فِي اللَّهِ؟! أَفِي اللَّهِ شَكٌّ؟! الْفِطْرَةُ تَنَادِي بِأَنَّ هُنَاكَ رَبًّا خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَخَلَقَ الْكَوْنُ وَوَهَبَ الْحَيَاةَ.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ مِنْ فَوْقَكُمْ وَمِنْ تَحْتِكُمْ، مِنَ الَّذِي خَلَقَهَا؟ هُوَ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَهَا، ابْتَدَأَهَا، أَحْدَثَهَا، هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، هَذِهِ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ، وَعَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَعَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وفي هذا يقول أبو العتاهية^(١):

فيا عجباً كيف يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ؟
ولله في كلِّ تحريكٍ وفي كلِّ تسكينٍ شاهدٌ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أَنَّهُ الْوَاحِدُ

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) انظر: الحماسة المغربية (١٤٢٠/٢)، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩١م. وديوان أبي العتاهية ص ١٢٢، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.

هو الله، كيف تشكّون فيه؟ وقد أرسلنا إليكم لمنفعتكم ولمصلحتكم، الله لا يناله نفع إذا آمنتم، ولا يناله ضرر إذا كفرتم، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

حاجة الإنسان إلى المغفرة:

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: هذه الرسائل - الرسائل والدعوات - من الله جاءت لمصلحتكم، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، الله بعثنا لندعوكم باسمه.

﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، معنى هذا أَنَّ الإنسان بطبيعته خطّاء، ولا بدّ أن يقع في المعاصي، ولهذا كان كلُّ إنسانٍ في حاجة إلى المغفرة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، قبل الجنة: المغفرة.

الإنسان في حاجة إلى المغفرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَجَرِّفٍ تُنَجِّمُكُم مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ * تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]، فالمغفرة قبل كلّ شيء.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، أي: يدعوكم إلى التوحيد، والإيمان بالنبوة، والإيمان بالآخرة، وإلى عبادته سبحانه، يدعوكم إلى هذا ليغفر لكم، يدعوكم إلى أسباب المغفرة من الإيمان والعمل الصالح.

سر التعبير بـ«مَنْ» في قوله سبحانه: ﴿مَنْ ذُنُوبَكُمْ﴾:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، أحياناً يقول: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، مثل آية الصف [الآية: ١٢]، وأحياناً يقول: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، ليشير إلى أن هناك من الذنوب ما لا يغفر مثل الشرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

التأخير إلى أجلٍ مُّسمى:

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسمى﴾: ليعطيكم فرصة، ليمهلکم مدة من الزمن، فلا يعاجلكم بالعذاب، فالله ﷻ يمهل ولكنه لا يمهل، يُملي للناس، يُعطيهم فرصة بعد فرصة، ليراجعوا أنفسهم ويتداركوا أمرهم، لا يعاجلهم بالعذاب، يؤخر العذاب إمّا في الدنيا، وإمّا يؤخره إلى الآخرة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

كما قال سيدنا نوح ﷺ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ * يغفر لكم من ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسمى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * [نوح: ٤، ٣].

يؤخركم لوقتٍ محدّد عنده، فإذا جاء هذا الوقت نزل عذابه، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * [نوح: ٤].

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسمى﴾، هكذا قالت لهم رسلهم، فماذا ردّ عليهم هؤلاء الأقوام؟

﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ
ءَابَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

حواجز مصطنعة:

ذكروا ثلاثة حواجز:

١ - الحاجز الأول: قولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾. وهذه قضية - للأسف - متكررة، البشر في كل أحقاب التاريخ، ومع مواكب النبوة يذكرون هذه الدعوى، يدعون على الرسل أنهم بشر مثلهم! وهذه هي الحكمة الإلهية، لا بد أن يكون الرسل بشرًا مثلنا.

إذا بعث الله لنا ملكًا كيف نقتدي بالملك؟! هو لا يأكل ولا يشرب، ولا يتزوج ولا ينام، ولا يخطئ ولا يعصي، كيف يكون لنا أسوة؟!

الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: من جنسكم، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ * ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ - ٩]، إذا نزل ملك كان لازماً أن يكون في صورة رجل، حتى يستطيع أن يعيش مع الناس، وأن يكلمهم ويسايرهم ويعايشهم، وإذا صيرناه رجلاً انتهت العملية وأصبح بشراً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، أي: واحد منهم، أما أنتم لستم ملائكة، فكيف نزل عليكم ملائكة، فمن العجب أن يقول الناس: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَى﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الحكمة تقتضي أن ينزل الله بشراً رسولاً، كان المفروض من البشر أن يعتزوا ويفتخروا بأن الله أرسل منهم رسلاً يخاطبونهم، وينزل عليهم وحيه، هذا موضع عزّة للبشر، وكرامة لهم، ولكن للأسف الجحود والشرك والكفر يطمس على العقول، فلا تعي ولا تميّز.

فهذا أول حاجز حجزهم عن اتباع الرسل: أنهم بشر مثلهم.

٢ - الحاجز الثاني: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، لم يفكروا يوماً، ما الذي يعبد آباؤهم؟! هل هو شيء يستحق العبادة؟! هل هذه الأصنام التي لا تُبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تهدي سبيلاً ولا تتكلم، هل هذه تصلح آلهة؟!!

الإنسان يصنع الصنم - ينحته بيده - ثم يعبد، كما قال سيدنا إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، صنم تنحتونه وتصوّرونه، وتعملون له أنفاً ووجهاً، ثم تسجدون له وتعبدونه، وتطلبون منه الرزق، وتطلبون منه الشفاء، أهذا هو العقل؟! الشرك أضلّ الناس، فلم يفكروا في هذه المعبودات.

التقليد الأعمى:

﴿تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، هكذا قال قوم هودٍ لهود: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

وهكذا قال قوم صالحٍ لصالح: ﴿أَنْهَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾

[هود: ٦٢].

وكذلك قال قوم شعيبٍ لشعيب: ﴿أَصَلَوْتُمْ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧].

وكذلك قال قومُ فرعونَ لموسى وهارون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨].

وهكذا ردّد كلُّ الأقوامِ المكذّبين للرسَل هذه المقولة: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾.

﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]،
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا
ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿قُلْ أُولَئِكَ حِثُّكُمْ
بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]،
هكذا قال أقوام الأنبياء، الحجة العقلية ليس لهم فيها نصيب، لا يطالبون
باستخدام العقل، العقل معطل عند هؤلاء.

٣ - الحاجز الثالث: ﴿فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، إنَّهم يريدون آية
كونيّة خارقة، وهكذا كلُّ الأنبياء، طالبهم أقوامهم بآيات خارقة، حتّى
سيّدنا محمّد ﷺ، قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ
يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ
بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، طلب الأولون آيات مثل:
قوم صالح، طلبوا منه آية وجاءت الناقة، وقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ
شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وجاءت ناقة خلقها الله لهم، فكفروا وعقروها، ذبحوها، الآيات لم
تنفعهم، ولذلك هي حجة يتذرّعون بها، ويتكئون عليها لتبرير جحودهم
وعنادهم.

جواب الرسل على مطالب أقوامهم المكذبين:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: الأنبياء ليس بيدهم السلطان، وليس بيدهم القدرة بحيث يستجيبون لما يطلبه الأقوام من آيات حسية خارقة كونية: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَآئِفَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨]، ولذلك ردت عليهم الرسل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، وهنا تأكيد، أضاف كلمة ﴿لَهُمْ﴾، مثل آية الكهف، حين قال سيّدنا الخضر لسيدنا موسى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، وبعدما وقع في الخطأ الثاني قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

وهنا قال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، نعم، ما نحن إلا بشر مثلكم، نحن لا ندعي أننا ملائكة ولا خلق غير هذا الخلق الآدمي، ما نحن إلا بشر مثلكم، نأكل ممّا تأكلون منه، ونشرب ممّا تشربون، نأكل الطعام، ونمشي في الأسواق، هكذا كل الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، لأنهم قالوا: ﴿مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

تمييز الرسل بالوحي:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: نحن بشر مثلكم، ميّزنا الله بشيء، كما قال نبيّنا ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، أنا واحد مثلكم تمامًا، مكون من جسم وروح وعقل، ومن طين صلصال، ونفخة من روح الله، أنا مثلكم أكل وأشرب، وأفرح وأحزن، وأضحك وأبكي، وأصح وأمرض، وأحيا وسأمت.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، يَمُنُّ عليهم بأن مِيزهم بالوحي، واختارهم من بين خلقه لينزل عليهم وحيه، هذا هو الذي مِيزهم به عن غيرهم من البشر، اصطفاهم الله تعالى لذلك.

النبوة اصطفاء من الله ﷻ :

فالنبوة ليست مكتسبة، أي: ليس معناها أن الواحد - مثلاً - يجتهد في الطاعة، ويتعبد لله، ويقرأ الكتب، ويتعلم العلم، لتنزل عليه رسالة! لا.. النبوة اصطفاء: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]. وكما قال الناظم:

وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَةً وَلَوْ رَقَىٰ فِي الْخَيْرِ أَعْلَىٰ عَقَبَةٍ^(١)

النبوة لا تكتسب، وإنما هي هبة من الله واصطفاء، وقد خُتِمَتْ بمحمد ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولقد قال ﷺ: «أنا العاقب الذي ليس بعدي نبي»^(٢)، خُتِمَتْ النبوات بمحمد ﷺ.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، يقول الرسل الكرام لأقوامهم: من الله علينا بالوحي، وأرسلنا إليكم لندعوكم إلى ساحة الله، ونأخذ بأيديكم إلى طريق الله، نأخذ بأيديكم إلى الجنة، إلى مثوبة الله وإلى رضوانه.

(١) البيت من متن جوهرة التوحيد، للعلامة الشيخ إبراهيم اللقاني (رحمته الله)، انظر: شرح الصاوي على الجوهرة ص ٢٩١، تحقيق عبد الفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، والترمذي في أسماء النبي (٢٨٤٠)، عن جبير بن مطعم.

عدم ردّ الرسل على جميع دعوى أقوامهم:

﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: هم قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، فردّوا على قضية البشرية هذه بأنهم بشر، لا ننكر هذا، ولكننا بشر آتانا الله الوحي، لم يردّوا على قولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، لأنها لا تستحق الردّ؛ فماذا يعبد آبائكم إلا الباطل؟!

آبائكم عبدوا الأصنام والأحجار، عبدوا ما لا يضر ولا ينفع، ولا يملك نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولكن ردّوا على قولهم: ﴿فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ قالوا: ﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

المعجزات من عند الله ﷻ:

﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: نحن لا نستطيع أن نأتي بمعجزة، لا نستطيع أن نحيا الموتى، لا نستطيع أن نبرئ الأكمه والأبرص، إلا بإذن الله، وأمره لنا ومشئته.

يقول الله تعالى لسيدنا عيسى المسيح ﷺ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، المسيح لا يملك شيئا، كل هذا بإذن الله ﷻ.

الاعتصام بالله والتوكل عليه:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أمام هذا التحدي، وأمام هذا التكذيب، ليس هناك إلا ركن ركين، وحصن حصين، يلوذ به صاحب الدعوة في مواجهة هذه التحديات، هذا الركن الركين هو الاعتصام بالله ﷻ، أن يتوكل الإنسان على الله، أن يجعل الله له وكيلاً في أموره كلها أمام المواجهات، أمام الجبروت من المكذبين، من الفراعنة والماردة والقواريين والهوامين، وأصحاب القوة، وأصحاب السلطة، ليس للإنسان ملجأ إلا الله ﷻ يتوكل عليه، وهكذا أمر الله المؤمنين: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، كما جاء في القرآن: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وهكذا قال الرسل جميعاً: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾، ما عذرنا في ألا نتوكل على الله؟! ما الذي يمنعنا أن نتوكل على الله؟! ما لنا ألا نتوكل على الله وهو الذي هدانا سبلنا، وأنار لنا الطريق^(١).

توكل الأنبياء على الله ﷻ:

كل الأنبياء توكلوا على الله، سيّدنا نوح قال لقومه: ﴿يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

سيّدنا هود حينما قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، يظهر لنا أن بعض آلهتنا مسك بسوء، فأصبت بالهوس أو بالخلل العقلي، وأصبحت تدعو إلى نبد الأصنام وإلى هذا الدين: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ

(١) والمراد بالسبل: سبل النجاة من كيد الكفار، ومنها: سبل إعداد المستطاع من القوة، لمواجهة قوات الأعداء، ومنها: التحول عن الدعوة العلنية إلى السرية، إلى غير ذلك من سبل، تجعل لهم مخارج بالفرج والنصر.

اللَّهُ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا * أَنْتُمْ
وَأَصْنَامُكُمْ وَآلِهَتُكُمْ * ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا
مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٥، ٥٦﴾.

سَيِّدنا إبراهيم والمؤمنون معه يقولون: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

سَيِّدنا شعيب يقول: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

سَيِّدنا موسى يقول لقومه: ﴿يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤ - ٨٦].

وهكذا رأينا سَيِّدنا موسى حينما أتبعه فرعون بجنوده، وقد وجد
البحر أمامه وفرعون وجنوده من خلفه، وقال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾،
أدركنا فرعون وجيشه، ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

البحر من أمامه والعدو من خلفه، ويقول: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾،
وقد هداه ربُّه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ
فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ
أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦]. وهكذا رأينا الأنبياء جميعًا.

وهكذا عندما كان محمد ﷺ في الغار، وقد وصل قومه في رحلة
البحث عنه إلى الغار الذي يُقيم فيه هو وصاحبه، وقال من قال منهم:
محمد إماما هبط إلى الأرض من هنا، وإماما صعد إلى السماء من هنا. لم
يغادر هذا المكان.

وقال أبو بكر وقد أخذه الخوف على رسول الله ﷺ: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] ^(١).

﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الشعراء: ٦٢]، قالها موسى.

﴿إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، قالها محمد ﷺ.

هكذا هم الأنبياء يتحدثون من مشكاة واحدة، ولذلك كلهم قالوا: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾، هدى كلاً منا سبيله وطريقه، كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، الله هداهم الطريق المستقيم، ويسر لهم أمورهم.

الصبر والتوكل:

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

قرن الأنبياء ﷺ بين الصبر والتوكل: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

كذا كان شأن الأنبياء جميعاً وشأن محمد ﷺ، سيد الصابرين وسيد المتوكلين، القرآن أمره بالصبر في سبع عشرة آية، ومنها: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٦٣١٩)، عن أنس بن مالك.

وأمره بالتوكل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧، ٢١٨]. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، أمر بالصبر والتوكل.

مواجهة الإيذاء بالصبر:

ولذلك أعلن الأنبياء توكلهم على الله، وأعلنوا الصبر على الأذى، ما دام أقوامهم قد وقفوا منهم هذا الموقف، معناه أنهم صمموا على إيذائهم، فلا بد أن يصمموا على الصبر، أن يواجهوا الإيذاء بالصبر: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

هذه سنة الله في أصحاب الدعوات جميعاً، لا بد أن يصيبهم الأذى، وينالهم العذاب، وتنزل بساحتهم المحن من كل جانب، ولا بد لهم أن يصبروا، ليس هناك إلا الصبر، ولذلك قال الأنبياء: ﴿وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾، اللام للقسمة، والنون للتوكيد، ﴿وَلَنْصَبِرَنَّ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾، يعني لا بد من البلاء، قسم وتوكيد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

لا بد من البلاء، ولا بد من الصبر، فإذا كان البلاء واقعاً لا محالة، فلا بد أن نواجهه بصبرٍ مؤكّد.

صبر الأنبياء على البلاء:

وهكذا صبر الأنبياء جميعاً: ﴿وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، ولذلك كان الأنبياء جميعاً من أهل الصبر، النبي ﷺ

يقول: «أشدُّ النَّاسِ بلاءَ الأنبياءِ ثمَّ الأُمثَلُ فالأُمثَلُ»^(١). وأمثَل النَّاسِ وأفضل النَّاسِ هم أنبياء الله ورسله، ولذلك كانوا أكثر النَّاسِ تعرُّضًا للبلَاء، وعلى قدر منزلتهم عند الله ابتُلُوا.

انظر كيف ابتلي إبراهيم عليه السلام، ابتلي بالنار، وُضِعَ في النَّارِ لِيُحَرِّقَ، وابتلي بذبح ولده، وابتلي بالهجرة من وطنه.

وانظر كيف وجدنا يوسف عليه السلام يُبتلى من محنةٍ إلى محنة، ويخرج من محنةٍ ليدخل في محنةٍ أخرى: محنة إخوته، ومحنة امرأة العزيز، ومحنة السجن، كلُّ هذه محنٌ بعدَ محنٍ.

ووجدنا موسى عليه السلام يُبتلى بالمحن من أول ولادته: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْغَيْمِ﴾ [القصص: ٧]، يقول الوحي لأم موسى: إِذَا خِفْتَ عَلَيْهِ أَرْمِيهِ فِي الْبَحْرِ: ﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ﴾.

هكذا الأنبياء لم يُولَدُوا وفي فم أحدهم مِلْعَقَةٌ من ذهب، كما يقال. الأنبياء كلُّهم ابتُلُوا وأوذوا حينما واجهوا قومهم، نالهم من الأذى الشيء الكثير.

النبي ﷺ آذاه بعض النَّاسِ بكلماتٍ شديدة فقال: «رحم الله أخي موسى، لقد أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبِرْ»^(٢). فقد أُوذِيَ من قومه أكثر ممَّا أُوذِيَ من غيرهم، حتَّى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى كتاب الطب (٧٤٨١)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الخمس (٣١٥٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٤٦)، عن عبد الله بن مسعود.

بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿[المائدة: ٢٥]﴾ هؤلاء النَّاسُ أصحابي لا أملكهم، انظر أي إيذاء أكثر من هذا!

كلُّ الأنبياء أودوا، ولكنَّ الأنبياء جميعًا صبروا وصابروا ورابطوا حتَّى نصرهم الله على أعدائهم، كلُّ الأنبياء نُصروا، حتَّى ولو لم تنجح دعوتهم وتنتشر في النَّاس انتشارًا كبيرًا.

كان أهمُّ شيء أن الله عَجَّلَ أهلك أعداءهم ونصرهم المؤمنين معهم، هكذا سُنَّة الله عَجَّلَ.

تدخلُ القدر الإلهي في مواجهة المتسلطين:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: ماذا يفعل الضعفاء الذين لا يملكون القوة في مواجهة المُتسلطين؟!

ماذا يفعل الإنسان العاجز، الذي ليس معه سلاح ماديٍّ أمام الإنسان المتجبر، الذي لا يخشى خالقًا ولا يرحم مخلوقًا؟!

هنا يتدخلُ القدر الإلهي، هنا يأتي قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

لا يظنُّ هؤلاء الطغاة والظلمة والمستكبرون في الأرض بغير الحق أن الأرض خلت لهم، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون.

هناك مملكة لها ملك يحكمها، هذا الملك لا يمكن أن يدع الظلمة يستبدُّون بالخلق ويفعلون ما يشاؤون، إنَّه يُهمِّلهم ولا يُهمِّلهم، كما قال عَجَّلَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]، وقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، لها دلالة عميقة في هذا المقام: الله ربُّ العالمين، المدبر لهذا الكون، لا يمكن أن يدع المتألهين في الأرض يعملون ما أرادوا، قد يمهلهم فترة من الزمن، ثم يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر. كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

ولذلك نزل الوحي الإلهي أمام هذا الوعيد، وهذا التهديد من هؤلاء القوم: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾، لم يدعهم ربهم، ولا يمكن أن يدعهم.

في الساعة الحاسمة يأتي لطف الله، ويأتي قدر الله، كما قال سيدنا موسى حينما وجد البحر أمامه، والجند وراءه، وقال أصحاب موسى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]، سيدركنا فرعون، ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. عندما تشتد الأزمة تنفجر، عندما يحلوك الليل وتشتد ظلماته ينبثق الفجر.

هلاك الظالمين:

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾: الظالمون كانوا يؤكدون: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بهذا التأكيد والتشديد، لكنه (قوله: لنهلكن) تشديد وتوكيد مَمَّن يملك أن يقول للشيء: كن فيكون.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى الأشعري.

﴿لَنُهْلِكََنَّ الظَّالِمِينَ﴾، الظلم مؤذن بهلاك أصحابه، طبيعة الظلم أنه يدمر، وطبيعة العدل أنه يعمر.

حتى قالوا: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة^(١). لو كان أصحابها مسلمين يقولون: لا إله إلا الله، ولكنهم ظلمة طغاة جبارون في الأرض، ينتهكون حرمان الناس، ويستحلون دماء الناس، ويستبيحون أموالهم، فالله يهلك دولتهم الظالمة، إذ الظلم لا بقاء له، قد يستمر زمنًا، ولكن لا بد من نهاية له، نهايته الهلاك والدمار، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، لا بد من زوال دولة الظلم. ولكن متى يتحقق ذلك؟ هناك فئة من الناس تصبر حتى يأتي الموعد المحدد، وفئة تستبعد وتيئس.

المؤمن لا يئس أبدًا، ويعلم أن ظلم الظالم لا يدوم أبدًا؛ لأن عدل الله يأبى ذلك.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكََنَّ الظَّالِمِينَ﴾، وقد أهلك الله الدول والقبائل والشعوب التي ظلمت.

هؤلاء ظلموا أنفسهم، وظلموا رسلهم، وظلموا المؤمنين معهم، وظلموا الحقيقة حينما عبدوا ما لا يجوز عبادته، حينما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ لَا شُرَكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، هؤلاء ظلموا من أكثر من وجه.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤٦/٢٨)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

سنن الله الثابتة:

﴿وَلَنُكَيِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: هذا قانون من قوانين الله وَجَلَّ، وسُنَّة من سنن الله الثابتة التي لا تجد لها تديلاً، ولا تجد لها تحويلاً، ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

هلاك الظالمين المستكبرين المعتدين على حدود الله وحرمان الناس هذه حقيقة، وإسكان المؤمنين الأرض من بعدهم، ﴿وَلَنُكَيِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

سُنَّة التداول:

هذا صنع الله وَجَلَّ: تبديل الأدوار، والدهر يومان: يومٌ لك، ويومٌ عليك. سُنَّة يُسَمِّيها القرآن سنة التداول، أو مداولة الأيام بين الناس، ف«دوام الحال من المحال»، فبينما قوم مرتفعون إذا بهم ينخفضون، وبينما قوم أقوياء إذا بهم يضعفون، والعكس بالعكس.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، هذه سُنَّة التداول، تداول الأيام بين الناس، الله سبحانه غَيَّر الأوضاع، الَّذِينَ كَانُوا يُهَدَّدُونَ بالإخراج من الديار ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾، مع أَنَّ الْأَرْضَ مشتركة بين الجميع، وَإِنَّمَا ادَّعَوْا أَنَّ الْأَرْضَ أَرْضُهُمْ هُمْ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا حَقَّ لَهُمْ فيها، كَانَتْهُمْ دُخْلَاءَ عَلَيْهَا، مع أَنَّهَا أَرْضُهُمْ مِثْلُهُمْ تَمَامًا.

غَيَّرَ الله سبحانه الأدوار، فأصبح هَؤُلَاءِ هلكى، ولم يعودوا إلى هذه الأرض، وأصبح المهدَّدون هم الوارثين، كما قال وَجَلَّ:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤ - ٦].

الله سبحانه يقول: ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، سُكِنِي الأرض
من بعد أولئك الظلمة المتجبرين المهددين للمؤمنين المستضعفين.

الوارثون للأرض:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: مَنْ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ؟ هم الصالحون،
كما قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فعَبَّرَ اللهُ سبحانه هنا عن هؤلاء العباد
الصالحين بقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ لَأَنَّهُ لَا يَخَافُ
مَقَامَ اللهِ إِلَّا الصَّالِحُونَ.

ولا يخاف مقام الله إِلَّا المتقون: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ
مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وراثاة الأرض، وسُكِنِي الأرض، والتمكين في الأرض بعد هلاك
الظالمين، وبعد أن تزول دولتهم، ويزول سلطانهم، لمن خاف مقام الله
وخاف وعيده، أي: للمؤمنين الصالحين الذين يستحقون أن يرثوا
الأرض؛ لأنَّهم لا يريدون أن يعيشوا فيها فسادًا: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، لا يريدون أن يعلوا على
النَّاسِ ويستكبروا عليهم.

هذا هو شأن المؤمنين الصالحين حينما يأتي لهم الملك والسلطان، ليس لهم هدف شخصي في أنفسهم، بعض الناس إذا آتاه الله الملك، أو مكن له في الأرض يريد أن يخفض ويرفع، ويُعزَّز ويُذِلَّ، وأن يستمتع بالشهوات ويكرع من اللذات، ما هكذا يريد المؤمنون.

المؤمنون قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

لماذا ذكر الخوف هنا ولم يذكر الرجاء؟

والقرآن عادة يزاوج بين الخوف والرجاء: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ ولكنه هنا ذكر الخوف دون الرجاء؛ لأنَّ سياق الآيات في حالة الطغيان والتمادي في معصية الله، فالخوف هو العلاج، والرجاء هنا ليس مطلوباً. كما يذكر الله سبحانه أحياناً النُّذْرَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنْذُرَ﴾ [القمر: ٤، ٥]، لا ينفع التبشير هنا، المطلوب هنا الإنذار والتخويف.

أهمية الخوف:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾، الخوف هو الذي يدفع الإنسان إلى عمل الخيرات وترك الشرور، وإلى سلوك سبيل المؤمنين والابتعاد عن سبيل المكذبين، سبيل الطغاة والشياطين، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

الوعد والوعيد:

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾: أي: خاف وعيدي. يخاف وعيد الله، كما يرجو وعد الله، الله يَعِدُ المؤمنين بالثبوتة في الدنيا والآخرة، وبالجنات والرضوان يوم يلقونه، ويُوعد المسيئين والمكذِّبين بعقوبته في الدنيا والآخرة، وبناره الموقدة، وبما أعدَّ لهم من عذاب شديد. هذا هو الوعيد.

الوعد غالبًا ما يكون في الأمور المحبوبة، والوعيد في الأمور المخوفة، وقد يذكر الوعد في هذا وهذا: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

من الذين طلبوا النصر والفصل بينهم وبين خصومهم؟

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: ما معنى الاستفتاح؟ الاستفتاح: طلب الفتح أي: النصر، أو طلب الفُتَاح، يعني: الفصل والحكم بيننا وبين أعدائنا.

مَنْ الَّذِي استفتح؟ هل الرسل الذين استفتحوا، أي: طلبوا الفتح والنصر من الله على أقوامهم؟ احتمال. أم هم المكذَّبون الذين قالوا لرسولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ مِنَّ أَرْضِنَا﴾، هم الذين طلبوا الفتح والنصر؟ احتمال أيضًا.

هؤلاء الكافرون كثيرًا ما تُسَوَّل لهم أنفسهم أنهم على الحق من طول ما أمهلهم الله وَجَّكَ، سَخَرُوا من الرسل، واستهزؤوا بدعوتهم، وآذوهم وآذوا أصحابهم المؤمنين، والله ﷻ لا يعاجلهم بالعقوبة، يجترئون على الله وَيَحْلُمُ الله عليهم.

إمهال الله للظالمين:

وهذا من عجائب عظمة الله ﷻ، فهذا أحياناً يطغيهم، ويخيّل إليهم أنّهم على حقّ.

ولذلك قال قوم نوح: ﴿فَأِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [هود: ٣٢]، وقال قوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وقال قوم محمّد ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال أبو جهل يوم بدر: اللهمّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأجبه الغداة^(١). أبو جهل يظنّ أنّه أوصل للرحم! وأقرب إلى الحقّ من محمّد ﷺ! ^(٢)

تزيين الأعمال السيئة للكافرين:

هؤلاء النّاس يُخيّل إليهم أحياناً، ويُزيّن لهم سوء عملهم فيرونها حسناً: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ترى الرجل على الباطل، ويخيّل إليه أنّه على الحقّ، هذا ما نراه في حياتنا. جورج بوش الرئيس الأمريكي يحارب المسلمين ويعتقد أنّه

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦١)، وقال مخرّجوه: صحيح. والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٣٧)، والحاكم

في التفسير (٣٢٨/٢)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن ثعلبة الغدري.

(٢) وقد أنزل الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَن نُّعْثِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

مبعوثُ العناية الإلهية. ويقول: ربِّي أمرني أن أحارب في أفغانستان، ربِّي أمرني أن أحارب في العراق. كأنه نبيُّ يوحى إليه.

نتيجة الاستفتاح للكافرين:

هؤلاء الكافرون طلبوا الفتح على الرسل، وجاء الفتح - ليس على ما يظنون - جاء الفتح من الله بنصر الحق وخذلان الباطل، بإزالة دولة الباطل، وإقامة دولة الحق والإيمان.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، كان من نتائج هذا الاستفتاح: خيبة كل جبار عنيد، خيبة هؤلاء الكفار.

والعلماء يقولون: هذا إظهار في مقام الإضمار، يريد أن يُبين لنا صفتهم، هؤلاء الذين خابوا هم الجبابرة المعاندون للحق.

الخيبة والخائبون:

الخيبة: هي فوت المطلوب، ألا يدرك الإنسان ما يريده، أو يتحقق له عكس ما يريد.

يريد النصر فتأتي الهزيمة، يريد النجاح فيأتي الفشل، يريد الربح فتأتي الخسارة. وهذه هي الخيبة كما يقولون: «أطال الغيبة وأتى بالخيبة»^(١). خيبة الله على هؤلاء الكفرة.

القرآن ذكر الخيبة لعدة أناس، قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ [طه: ٦١]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠].

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٦٥/٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

المتجبرون في الأرض:

مَنْ هُوَ الْجَبَّارُ؟ المتَّصِفُ بالجبروت، وهذه من صفات الله وأسمائه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، الجبروت والتكبر صفة مدح بالنسبة إلى الله وَجَلَّ، ولكنها صفة ذم بالنسبة للخلق، الإنسان يُذَمُّ إذا كان جبارًا.

الله جَبَّارٌ يظهر القوَّة والتعالي على الظلمة والطغاة، ويأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا، هذا جبروت في محلِّه، وهو المتكبر على هؤلاء المتعاليين. وأمَّا الإنسان فلا ينبغي له أن يكون جبارًا ولا متكبرًا.

الأنبياء ليسوا جبابرة:

ولذلك قال تعالى لرسوله: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وقال عن سيدنا يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، وقال المسيح ﷺ حينما أنطقه بالمهد صبياً: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

سيدنا موسى حينما استغاثه رجل من شيعته على رجل من عدوِّه: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، ولما استغاثه الرجل مرَّةً أخرى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُْوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. قال له الرجل الذي أراد أن يبطش به موسى: أتريد أن تكون طاغية في الأرض جبارًا

شديد البطش كثير الإيذاء في الأرض؟! وما تريد أن تكون من المصلحين الذين يفضُّون النزاع بين النَّاس. وليس هذا شأن موسى ولا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الجبروت في الأرض ليس من شأن المصلحين:

الجبابرة طغاة مسلَّطون على عباد الله. ولذلك حكم الله تعالى عليهم بالخيبة: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

الراغب الأصبهاني يقول: الجَبَّار في صفة الإنسان، يقال لمن يَجْبُر نقيصته بادِّعاء منزلة من العالي لا يستحقُّها^(١).

الإنسان فيه عيب، يريد أن يستر العيب، يظهر نفسه عظيمًا قويًا مقتدرًا، ولذلك تجد الجبابرة جميعًا عندهم نقائص خفيَّة يعرفها المخالطون لهم.

﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، الله سبحانه ذمَّ قومَ هود، فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

الوقوف في وجه الجبابرة المعاندين:

الله يذمُّ الشعوب التي تتَّبَع الجبابرة وتسير في ركابها، وتحرق البخور بين أيديها، كما شاعت بعض الأمثلة الشعبيَّة على ألسنة الناس: «الذي يتزوَّج أمِّي أقول له: يا عمِّي»^(٢). «إذا كان لك عند الكلب حاجة فقل له:

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني مادة (ج. ب. ر).

(٢) ينظر: الأمثال العامة لأحمد تيمور باشا ص ٧٨، مثل رقم (٤٣٩)، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، ط ٢.

يا سيدي»^(١). هذا هو الذي يضيع الأمم. يجب أن تقف في وجه الجبابرة، وفي الحديث الشريف: «إذا رأيت أُمّتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تُودّع منهم»^(٢).

عذاب الجبارين المعاندين:

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾: ولكن الشيء الذي يشربه أشد من العطش، يعاقب بما هو أشد: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ لا يقدر على بلعه من شدة حرارته ومرارته.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾: يأتيه الموت من يمين وشمال، يأتيه من أمام ومن خلف، يأتيه من فوق ومن تحت، تأتيه أسباب الموت.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، لو مات لاستراح، ولكن الله سبحانه لا يريد أن يريحه، هذا الذي آذى رسله في الدنيا، وآذى المؤمنين معهم، هؤلاء الذين ارتكبوا الموبقات، هؤلاء الذين اقترفوا السيئات، هؤلاء الذين فعلوا الأفاعيل، لا بد أن يجازيهم الله بما فعلوا: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآخرة لا موت فيها:

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ لأن الآخرة لا موت فيها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

(١) الأمثال العامة ص ١١٤، مثل رقم (٦٤٤).

(٢) رواه أحمد (٦٧٨٤)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والحاكم في الأحكام (٩٦/٤)

وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، والبخاري (٢٣٧٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١١٠):

رواه أحمد والبخاري بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البخاري رجال الصحيح، وكذلك رجال

أحمد، إلا أنه وقع فيه في الأصل غلط، فلهذا لم أذكره. عن عبد الله بن عمرو.

قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهية كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة. فَيُشْرَبُونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه، ثمَّ ينادي: يا أهل النار. فيشربون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه، فيذبح ثمَّ يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت»^(١). كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَيَنْجَبُهَا الْأَشَقَى * الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣]، لا هو ميّت فيستريح، ولا يحيا حياةً تستحقُّ أن تُعاش.

أوصاف العذاب في الآخرة:

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: ينتظره فوق ذلك عذاب غليظ، الله سبحانه وصف عذاب الآخرة بأوصاف كما قدّمنا، فهو أليم وشديد ومهين وغليظ، وكلها أوصاف لهذا العذاب بجهةٍ من الجهات، نسأل الله تعالى أن يقينا عذابه، وأن يجعلنا من أهل النعيم.

مثل أعمال الكفار:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾: ثم قال تعالى ضاربًا المثل بأعمال الكفار، الأعمال التي يمكن أن توضع في قائمة الخير.

قد يطعم الكافر جائعًا، قد يصل رحمًا، قد يغيث ملهوفًا، ويفدي أسيرًا، قد يفعل خيرًا للناس، قد يبذل بعض المال للناس.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٤٩)، عن أبي سعيد الخدري.

ما نتيجة هذه الأعمال التي لم تؤسس على أساس مكين؟ ببيان
ولكن بُني على الرمال!

يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ
بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

القرآن يضرب الأمثال لتوضيح الحقائق:

المعقول يظهره الله سبحانه في صورة المحسوس حتى يكون واضحاً
بين الناس: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ
سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاَصَابَهُ، وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا
كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، يضرب الله الأمثال
ليوضح لنا الحقائق، حتى تكون جلية أمام الأعين، واضحة أمام العقول.

فهنا يضرب لنا مثلاً بأعمال الكفار، التي لم تُبنَ على أساس إيمانيٍّ
بالله، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾، كفروا بالله وعملوا أعمالاً
طَيِّبَةً.

ما مصير هذه الأعمال يوم القيامة؟

يقول تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾، أصل الرماد: ما يكون
من أثر احتراق الشيء، والمقصود هنا: الرمل والتراب.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، يوم من الأيام العاصفة، التي تقتلع بها الأشجار،
وتقع أعمدة الكهرباء. في أمس القريب حدث إعصار في لندن أوقع
هلعاً هائلاً.

﴿كَرَمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، بعثر هذا الرماد وذراه في كل ناحية، فجعلته هباءً منثورًا.

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾، لا يستطيع الكفار أن يحصلوا منه على أي شيء من الثواب، كما لا يقدر صاحب الرماد المتطاير في الريح على إمساك شيء منه، ﴿ذَلِكَ﴾ العمل على غير أساس ﴿هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ﴾ عن الصواب.

لماذا لا يكافئ الله الكافرين على أعمالهم الخيرة؟ لأنها فقدت شروط القبول.

شروط قبول العمل:

الأعمال لا تقبل عند الله إلا بشروط، حتى العمل من المسلم، المسلم لا يقبل عمله إلا بشرطين: الإخلاص لله، وأن يكون عمله على السنة على المنهج الشرعي.

لما سئل أبو علي الفضيل بن عياض عن أحسن العمل؟

قال: أحسن العمل إخلاصه وأصوبه.

قيل له: ما إخلاصه وأصوبه؟

فقال: إن الله لا يقبل العمل ما لم يكن خالصًا صوابًا، فإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة^(١). على المنهج

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥/٨)، نشر مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

الشرعي، غير مُبتَدَع، لأنَّ «كل بدعة ضلالة»^(١)، «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌّ»^(٢)، هذا من المسلم.

ولذلك يقول الرسول ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكلُّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها، أو إلى امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٣). اثنان هاجرا معًا، ولكن تُقبل هجرة أحدهما، ولا تُقبل هجرة الآخر، هذا هجرته في سبيل الله، وهذا هجرته لأنَّه كان يحبُّ واحدةً هاجرت، وقال: لماذا أبقى بعدها؟! يجب أن أهاجر وراءها. هذا هجرته في سبيل الله، وهذا هجرته في سبيل المرأة.

مصير الأعمال التي افتقدت الإيمان:

وكذلك غير المسلم: لا يقبل منه عمل ما لم يؤسَّس على الإيمان بالله، أمَّا إذا لم يؤمن بالله كيف ينتظر أن يدخل جنَّة الله؟

الله سبحانه يقول: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي سورة النور صَوَّرَ الله لنا مصير عمل هؤلاء الكُفَّار، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُ لَهُ لَمْ يَكَدْ يَرُهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]، هذه أعمالٌ افتقدت نورَ الإيمان.

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد (١٤٣٣٤)، عن جابر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٧١٨)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر.

شرط قبول العمل: أن يكون مؤسسًا على الإيمان:

وشرط قبول العمل عند الله: أن يكون مؤسسًا على الإيمان: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

يجب أن يتحقق شرط الإيمان: الإيمان بالله خالق هذا الكون، أما إذا لم يكن معترفًا به، فكيف يكافئه؟ كيف تطلب من ملك أن يكافئك وأنت غير معترف بملكه، تقول: إنه لا يستحق الملك. لا يمكن أن يكافئك. فالذي يكفر بالله لا ينتظر منه أن يكافئه.

نتيجة أعمال الخير من الكافر:

هل معنى هذا أنه يضيع عمله الخير تمامًا، ولا يكافأ عليه أبدًا؟! أما في الآخرة، فلا أثر لعمله هذا في دخول الجنة، السيدة عائشة سألت رسول الله ﷺ: يا رسول الله، ابن جُذعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١). لم يذكر ربّه في يوم من الأيام، عمله غير مؤسس على الإيمان. لم يقل: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

يقول بعض الناس: الذي اخترع الكهرباء يدخل النار؟! الذي اخترع الإنترنت يدخل النار؟!!

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢١٤)، وأحمد (٢٤٦٢١).

والجواب: هل عملها لله **وَعَجَلْ** أم لأمر دنيوي؟!

الإنترنت أصله - كما قرأت - عند وزارة الدفاع الأمريكية، اكتشفت هذه الوسيلة من الاتصالات، وكان خاصًا بالجيش الأمريكي، ووزارة الدفاع، ثم بدأت تُعممه على الناس شيئًا فشيئًا، ولم تكن تريد خدمة البشرية.

لا بدَّ لقبول العمل الصالح: أن يكون القصد هو وجه الله **وَعَجَلْ**. وليس معنى هذا أنه لا يُكافأ على عمل الخير إطلاقًا.

مكافأة الكفار على عمل الخير:

يكافئ الله تعالى الكافر على عمل الخير في صورتين:

في الدنيا يُوسَّع له في الرزق، ويعطيه مجداً وجاهاً وأولاداً، ويبارك له في صحته. وكلُّ هذه من المكافآت الدنيوية مقابل أعماله الخيرة. وفي الآخرة لا يساويه بالظلمة المعذبين.

هناك كفرة فقط، وهناك كفرة وظلمة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ [النساء: ١٦٨]، هناك كافر فقط، وهناك كافر ظالم، ليس مجرد كافر، فعل البلايا والمصائب بالبشر، وقتل العشرات أو المئات أو الألوف أو الملايين من الناس، فعلوا بشعوبهم ما فعلوا، هؤلاء لا يكونون مثل غيرهم من الكفار.

الله **سُبْحَانَهُ** يقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، ويقول الله سبحانه عن مؤمن آل فرعون: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، فهناك عذابٌ شديد، وهناك أشدُّ العذاب.

الكافر الذي فعل أفعالاً في ميزان الخير تنفع الناس يكافئه الله بأنه يخفف عنه من العذاب يوم القيامة، هذا من فضل الله تبارك وتعالى، ويسير مع القانون الذي يقول: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فهذا الخير الذي فعله الكافر رأى نتيجه في الدنيا، ورأى نتيجه بوجهٍ ما في الآخرة.

الدرس الرابع

من مشاهد يوم القيامة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ١٩ - ٢٣].

تحدثت السورة عن مواكب الأنبياء، وكيف وقف منهم أقوامهم، وكيف كذبوهم، وكيف نزلت بهم نعمة الله وَعَجَّلَ، وكيف يرى مصير الجبابرة في الآخرة، والنار تحيط بهم من كل جانب.

ثم بعد هذا نقف عند هذا المشهد الجديد من مشاهد يوم القيامة، وما أروع مشاهدتها! وما أعظم صورها! حيث يقول الله وَعَجَّلَ قبل الحديث عن مشهد الآخرة يقول في هذا التمهيد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٩﴾
[إبراهيم: ١٩، ٢٠]، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾ إِلَى آخِرِهِ.

خلق السماوات والأرض بالحق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: هذا خطاب لكلٍّ مَنْ يتأتَّى خطابه، يقول فيه: ﴿أَلَمْ﴾، وهذا استفهام تقريرى كما يقول عنه علماء اللغة، دخلت الهمزة على حرف النفي «لم» كقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فكأنه يقول له: لقد شرحنا لك صدرك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، أي: لقد رأيت أن الله خلق السماوات والأرض بالحق.

كلمة «رأى» في القرآن:

والرؤية هنا رؤية علمية نظرية؛ لأن كلمة رأى في القرآن أحياناً تكون رؤية بصرية، وأحياناً تكون رؤيا حُلُمِيَّة مناميَّة، كما قال الله على لسان الملك: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقوله ﴿وَعَلَى لِسَانِ سَيِّدِنَا يُوسُفَ﴾: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فهذه رؤيا مناميَّة.

وهناك الرؤية العلمية القلبِيَّة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، هذا يفيد النظر العقلي.

تنزه الله تعالى عن العبث والخلق دون غاية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ألم تنظر وتتأمل بعقلك: ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؟! خلق هذا الكون علويَّة وسفليَّة بالحق لا بالباطل، خلقه

لغاية حكمة، فلم يخلق الله تعالى شيئاً عبثاً، ولا شيئاً باطلاً، كما حكي الله تعالى عن أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، لم يخلق الله شيئاً باطلاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

لم يخلق الله السماوات والأرض ولا شيئاً فيهما باطلاً ولا لهواً ولا لعباً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ * ما خلقنهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿[الدخان: ٣٨، ٣٩]، ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

الحياة الآخرة حق:

من هذا الحق: أن هذا الكون لا يفنى فناءً صرفاً، بحيث لا يكون بعده حياة أخرى، ويذهب الظالم بظلمه، والقاتل بقتله، والطاغية بطغيانه، ولا ينال جزاءه، كما يذهب الخيرون بخيرهم، الذين لم ينالوا عليه أجراً في الدنيا، بل ربّما كان جزاؤهم الاضطهاد والإيذاء.

لا بد أن تكون هنالك حياة أخرى تُوفى فيها كل نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧، ٨]، هذا معنى الحق الذي خلقت به السماوات والأرض، والذي قامت به السماوات والأرض.

الله هو الذي خلق هذه السماوات والأرض، كما قال ﴿وَعَلَىٰ﴾ * لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[غافر: ٥٧].

قدرة الله سبحانه على إذهاب الخلق والإتيان بخلق جديد:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: هذا الخالق العظيم الذي لا يعجزه شيء، ولا يحدُّ قدرته حدًّا، يستطيع إذا خالفتم أمره، وانحرفتم عن نهجه، وبعدتم عمَّا خلقكم لأجله، وقد خلقكم لعبادته، وخلقكم لتعرفوه، يستطيع الله وَعَجَّلَ أن يذهب بكم ويأتي بخلق آخر: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٦﴾، إذهابكم وإزالتكم ومحوكم من الوجود، ثمَّ الإتيان بآخرين أفضل منكم، يستطيعون أن يقوموا بما خلقهم الله له، يقومون بعبادته وبخلافته في الأرض، وبعمارة الأرض التي سخرها الله لهم، ليس ذلك على الله بعزيز.

المراد بالخلق الجديد:

وهذا الخلق الجديد، هل هو خلق غير هذا النوع من آدميين الذين لم يقوموا بما أحلَّ الله لهم، وما أمرهم به، أو يأتي بنوع من الآدميين أفضل من هذا النوع؟

كلُّ هذا وارد، وقد قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ [فاطر: ١٥، ١٦].

قدرة الله سبحانه على تغيير الخلق:

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: أي: ليس بعظيم ولا ممتنع ولا متعذرٍ على الله سبحانه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وكقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وكقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴿٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

الله سبحانه قادرٌ على أن يذهب هذا الخلق، ويأتي بخلق آخر غير الجنس الآدمي، أو يذهب بهذه المجموعة من الناس من بني فلان أو بني علان، أو من الشعب الفلاني الساكنين في الأرض الفلانيّة، ويأتي بشعبٍ آخر، كلُّ ذلك داخل في إطار القدرة الإلهيّة، وليس ذلك بعزيرٍ ولا ممتنعٍ على الله وَعَلَى.

مناقشة الإمام الغزالي:

وهنا تأتي مناقشة مع الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث قال في كتاب التوكل من كتاب «إحياء علوم الدين»: «إِنَّ اللَّهَ وَعَلَى لو خلق الخلق كلَّهم على عقلٍ أعقلهم، وعلمٍ أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علمًا وحكمةً وعقلًا، ثم كشف عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات، حتّى اطلعوا به على الخير والشر، والنفع والضّر، ثم أمرهم أن يدبروا المُلْك والملكوت، بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه، أن يُزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة».

ويقول: «ليس في الإمكان أحسن منه ولا أتم ولا أكمل»^(١).

فهو يقول: ليس في الإمكان أبدع ممّا كان، ليس في الإمكان أن

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٥٨، ٢٥٩).

يُخْلَقُ كَوْنٌ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ؛ لِأَنَّ الَّذِي دَبَّرَهُ وَأَحْسَنَ تَدْبِيرَهُ، وَقَدَّرَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ بِقَدَرٍ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ، نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. لا يوجد أفضل من هذا.

«ولو كان وادَّخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله، لكان هذا بخلاً يناقض الجود، وظلمًا يناقض العدل، ولو لم يكن قادرًا لكان عجزًا، يناقض الإلهية»^(١).

هذا الكلام قاله الإمام الغزالي في كتاب: «التوكل» من «الإحياء»^(٢)، وناقشه بعض المتأخرين من العلماء وقالوا: إنَّ في هذا تحديدًا لقدرة الله، وإنَّ قدرة الله لا يمكن أن يحدَّها شيء، واستدلوا عليه بهذه الآيات: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، وبقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

والكلام فيه مناقشة طويلة: هل هذا في التغيير الجزئي، أم التغيير الكلي؟ هل يخلق كونا آخر، أم يستبدل قوماً غيركم ويأتي بخلق جديد، ولكن الكون هو هو بما فيه؟!

يبدو أنَّ هذا الكلام صحيح بأنَّ الكون هو هو، ولا يمكن أن يبدع كون أفضل من هذا الكون؛ لأنَّ الله أحسن فيه كلَّ شيءٍ خلقه، وأبدع كلَّ شيءٍ أعظم إبداع، ووضع كلَّ شيءٍ في موضعه، وليس فيه أمر اعتباطي، ولا أمر عبثي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]،

(١) إحياء علوم الدين (٢٥٨/٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٢٥٨/٤، ٢٥٩).

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًا لَاتَّخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، يعني: ما كنّا فاعلين، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

ثم جاء المشهد الأخرى الذي يعضده القرآن، فيقول: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾.

حوار بين الضعفاء والمستكبرين يوم القيامة:

انتقلنا من الدنيا إلى الآخرة، من الكفرة المكذبين وتهديدهم لرسولهم حين قالوا لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، إلى دارٍ أخرى لها قوانينها، ولها نظامها، ولها ملكها وحاكمها.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: البروز يعني: الظهور والانكشاف، ظهر الجميع أمام الله، وانكشف الجميع أمام الله، لا يوجد ساتر يستر، ولا حاجز يحجز، ولا غطاء يغطي، ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

لم يعد هناك أحد يدعي الملك، في الدنيا ملوك يدعون: أَنَّ الأرض أصبحت ملكاً لهم، وَأَنَّ السلطان في أيديهم، وَأَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ، ويحكمون ويتصرفون، وكأنّما لهم شيء.

في الآخرة زال ملك هؤلاء جميعاً، وبقي الملك للملك وحده: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، انكشفوا، بُليت السرائر، وأصبح كلُّ شيء مكشوفًا، حتّى أصبح النَّاس يحسُّون بكلِّ شيء: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَصَّرَكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: السادة الكبراء والفقراء والضعفاء، المتبوعون والتابعون، المحكومون والحاكمون، وشيطانهم الأكبر الذي أضلَّهم، كل هؤلاء ظهوروا، برزوا لله جميعًا.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: قال ضعفاء الرأي والفكر من الأتباع للقادة المستكبرين: كنّا في الدنيا أتباعًا لكم، نأتمر بأمركم، نستمع لقولكم، ننهي بنهيكم، تديرون أمورنا كأننا قطعان من الأنعام، كنّا تبعًا لكم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ السيادة التي كانت لكم في الدنيا هل نرى لها أثرًا في الآخرة؟! العظمة والهيلمان الذي كنتم فيه من قبل، أين هو الآن؟! هل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله من شيء؟!!

تبرؤ الأتباع من المتبوعين:

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾: لا نستطيع أن نغني عنكم شيئًا، ربّما كانوا في الدنيا يعدونهم بأنّهم يستطيعون أن يخففوا عنهم العذاب، أو يدفعوا عنهم البلاء، أو يشفعوا لهم عند الله أو نحو ذلك.

كلُّ هذا ليس له أيُّ صدى ولا أيُّ أثر، كما حكى القرآن قصّة الأتباع والمتبوعين والتي تكرّرت في القرآن كثيرًا: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وقال الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ

أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦، ١٦٧﴾.

وفي آياتٍ أخرى في سورة الأعراف: ﴿قَالَتْ أَخْرِبْهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ أي: السادة الكبراء، ﴿أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفي سورة الأحزاب: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ رَبَّنَا اتَّهَمَ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿[الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وفي سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣]،

وهكذا يتلاومون ويتبرأ بعضهم من بعض، وكل هذا بعد دخولهم إلى النار، بعد أن ذاقوا العذاب، يلوم بعضهم بعضاً: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الْأُضْعَفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِبَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿[غافر: ٤٧، ٤٨]، نحن وأنتم في هذه النار، في هذا العذاب: ﴿إِبَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، هكذا الأتباع والمتبوعون.

وليس للأتباع عذر أن يسيروا وراء هؤلاء الكبراء والسادة المضللين؛ لأنَّ الله أعطاهم عقولاً يُفَكِّرون بها، أعطاهم ملكات، أعطاهم إرادة يرجحون بها، لماذا تنازلوا عن عقولهم؟!

لماذا تنازلوا عن إنسانيتهم وساروا وراء هؤلاء، ومشوا في ركابهم أتباعاً؟!

لماذا يصبح الإنسان ذليلاً وقد خلقه الله رأساً؟!

لماذا يرضى لنفسه أن يكون عبداً وقد خلقه الله حُرّاً؟!

لماذا رضيتم أن تكونوا أتباعاً؟!

لماذا لم تبقوا سادة أنفسكم؟!

وقد قيل: «كن رأساً لكلب، ولا تكن ذليلاً لأسد». لا تكن ذليلاً لأحد. لكن هؤلاء رضوا أن يكونوا ذيولاً لغيرهم، ولا عذر لهم في اتباع هؤلاء الكبراء.

ذكر القرآن قصة هؤلاء الأتباع، وبراءة المتبوعين منهم، ليبيّن لهم ما يحدث يوم القيامة، ليسارعوا ويحرّروا أنفسهم من التبعية للغير.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ربّما فهموا أنّهم كانوا يقدرّون على ذلك، وربّما وعدوهم بذلك وعوداً كاذبة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]، لا بالعكس، بل يحملون خطاياهم وخطايا الذين أضلّوهم، ﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

لا يحمل أحدٌ ثقل أحدٍ في الآخرة، كلٌ واحدٍ يحمل عبء نفسه، ويحمل وزر نفسه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، لكنّ المضلّ يحمل وزر إضلال الآخرين: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي شيء؟ أي تخفيف؟
 ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾، نحن واقعون في الضلال، لا نستطيع أن ننقذ أنفسنا، فهل نستطيع أن ننقذكم؟! ما لكم من منقذ، وما لكم من مهرب، أنتم تحملون وزر أنفسكم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢]، غوينا فأغويناكم، وضللنا فأضللناكم، ولو هدانا الله لهديناكم، ولكن بعدوا عن الهداية.

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾، الآن يعترفون بهداية الله، وبعظمة الله، وبأنه قادر على أن يهدي من يشاء، ولكن اعترافهم في ذلك الوقت لا يجدي؛ لأنه اعتراف بعد فوات الأوان. ولذلك قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾.

لا مفر من عذاب الله للأتباع والمتبوعين في الكفر والضلال:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾: ما لنا من مفر، ما لنا من مهرب، ما لنا من ملجأ ولا منجى، ما لنا من محيص، جزعنا أم صبرنا؛ لأن الصبر الذي يجدي وينفع، إنما يكون في الدنيا في وقت التكليف، أما في الآخرة فليس فيها تكليف لا ينفع فيها الصبر، الصبر ينفع في أوان الصبر، أما إذا فات الأوان، فهيها هيهات، لا نفع له ولا جدوى منه، ولذلك قال: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، هم قالوا لأنفسهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾، ما لنا من خلاص، ولا من مهرب، ولا من نجاة مما نحن فيه.

الشيطان يخطب في جهنم:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

هكذا نرى هذا التهاوش والتجادل بين الضعفاء وبين سادتهم المستكبرين، ثم قام زعيم الإضلال الأكبر، قام الشيطان الذي أضل هؤلاء وهؤلاء، قام خطيباً في جهنم، قام ليبرئ نفسه، وليحملهم المسؤولية ليزدادوا غمًا على غم، وحسرة على حسرة، وحزنًا على حزن.

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾: لما فرغ الله من حساب الخلائق، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وأصبحوا في العذاب، قال الشيطان في هذه الحالة لما قضى الأمر، واجتمع عليه أهل النار موبّخين له، يطلبون منه العون بعد أن أضلّهم ومَنّاهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾.

وعد الحق:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ على السنة رسله، وعدكم أن من آمن به وبرسله وأطاعه وسلك منهجه؛ سعد في الدنيا وفي الآخرة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن كفر بربه وجحد رسله، وسار في طريق الشر والضلال، فلا بد أن يلقي جزاءه، هذا منذ أنزل الله آدم وحواء إلى الأرض، قال: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَقْبَلُوا عَهْدَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ يَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ حُجُورًا ۖ وَالشَّيْطَانُ عَصِيٌّ يُبْغِضُ الْمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِ جُحُودٌ ۚ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

هذا هو منهج الله، واضح منذ نزول آدم إلى الأرض، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، وبين ذلك فيما أنزل من كتب، وفيما بعث من رسل، وظهرت الحقائق لكم.

وعد الشيطان:

﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، وهذا يدل على أن إخلاف الوعد من أخلاق الشيطان، ولذلك على المؤمنين إذا وعدوا ألا يخلفوا حتى لا يتشبهوا بالشيطان.

وقد جاء في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١). والمؤمن غير ذلك، إذا حدث صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا عاهد وفى.

ليس للشيطان سلطان على الإنسان إلا الوسوسة:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، لم يُعْطِنِي اللهُ القدرة على أن أتَحَكِّمَ فيكم، أو أُغَيِّرَ من خلقتكم، أو أزيل عقولكم، أو أُغَيِّرَ في أجسامكم، كما يظنُّ بعض الناس: أنَّ الجنَّ يمكن أن يتَحَكَّمَ في الإنسان، ويتكلَّم على لسانه، ويزيل عقله.

ظاهر القرآن يخالف هذا، ليس للشيطان سلطان على الإنسان، ما كان له من سلطان إلا الدعوة، الوسوسة في صدور النَّاسِ، أن يدعو النَّاسَ بطريقته، طريقة الوسواس الخناس الذي يتسلَّل إلى النفوس ليُغْوِيَهَا وليُضِلَّهَا بالتزيين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيْبَتِي كُنَّ إِذَا نَاكَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَعْرَبَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

كلُّ هذه الطرق التي يتَّخذها: طرق خفيَّة، ويعتمد فيها على استجابة الإنسان، هناك إنسان يرفض وسوسة الشيطان، ويعتصم بالله وِعِجَلًا، هؤلاء هم عباد الله المخلصون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

والشيطان نفسه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص: ٨٢، ٨٣]، هؤلاء لا يستطيع أن يفعل فيهم شيئًا: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿[النحل: ٩٩، ١٠٠].

سلطان الشيطان على عبيد الشيطان، الذين أصمُّوا آذانهم عن سماع الحقِّ، واستمعوا إلى وسوسة عدوِّهم، الذي طالما حذرهم الله تعالى منه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]،

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة: ١٦٩].

ولكنّ هناك من يستجيب لدعوة الشيطان ولوسوسة الشيطان ولإغواء الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وسلطان مخلوق على آخر، يكون إما بالقهر والقوة، وإما بالخداع والحيلة، والشيطان ليس له قوّة ولا قدرة على الإنسان.

أوهام بعض الناس عن الجنّ:

بعض الناس يظنّ أنّ الجنّ عنده من القدرة ما يستطيع أن يسخر به الإنسان، وهذا ليس بصحيح، القرآن حكى لنا أنّ الإنسان عنده من القدرة ما يستطيع أن يسخر به الجنّ.

رأينا هذا في قصّة سيدنا سليمان، سخر الله له الجنّ: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٧ - ٣٩].

ولكن لم نر جنياً سخر إنسياً، لم يحك لنا القرآن ذلك، الإنسان عنده قدرة كبيرة، انظر ماذا قال العفريت من الجنّ: ﴿أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].

وقال آخر الذي عنده علم من الكتاب - والظاهر أنّه من الإنس -: ﴿أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، بواسطة العلم استطاع أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر.

مكايد الشيطان ومداخله على الإنسان:

فالشيطان لا يستطيع بالقهر والقوة أن يتسلط على الإنسان، إنما يستطيع بالخداع والحيلة، بوسوسة الصدور، يوسوس لبعض الناس فيغريهم بالمعصية، وبالعودة عن الطاعة، كما قال الله تعالى على لسان إبليس: ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾، من كل الجهات، يعني أزهدهم في الآخرة، وأرغبهم في الدنيا، وأغريهم بالسيئات، وأبعدهم عن الحسنات، يأتي من كل الجهات: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

استجابة أكثر الناس لوسوسة الشيطان:

والله سبحانه يقول: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠]، الواقع أنه ضل أكثر الناس، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبأ: ١٣]، استطاع إبليس بوسوسته، بطرقه الخبيثة، بطرقه الخفية أن يتسلل إلى النفوس الضعيفة التي لم تستمسك بالعروة الوثقى، ولم تهتد بهدى الله، ولم تستنر بنور الله ﷻ، استطاع أن يؤثر فيها.

براءة الشيطان من المستجيبين لدعوته:

﴿ فَلَا تَلُمُونِي ﴾، لا تجعلوا كل اللوم عليّ، ﴿ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾، اللوم عليكم أنتم؛ فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم باختياركم الحر! الذنب ذنبكم، كما يقال في المثل: «ذنبك على جنبك»^(١). أنت الذي اتبعتني، أنا أجبرتكم؟! أنت عندك عقل، تركته، عندك نور، عميت عن إبصاره، عندك هداية إلهية، أهملتها.

(١) ينظر: الأمثال العامة ص ٢٣٥، مثل رقم (١٢٦٨) بلفظ: ذنبه على جنبه.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي﴾: أي: ما أنا بمنقذكم مع أنني أسمع صراخكم واستغاثتكم، لست بمغيثكم ولا بمنقذكم، كما أنكم لستم بمنقذي، لا يستطيع أحد منا أن ينفع الآخر في هذا اليوم العظيم، الذي يكون فيه كل إنسان معلق من عُرْقوبه - كما يقال - كل إنسان مسؤول عن نفسه، لا يحمل أحدٌ وزر أحد في هذا اليوم، الشيطان الذي أغراههم وغرَّهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْنَزِكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، والغُرُور هو الشيطان، غرَّهم وأغراههم وزين لهم، وسوَّل لهم ما سوَّل، برئ منهم كما برئ بعضهم من بعض، كما برئ السادة من الأتباع.

كفر الشيطان بالشرك والمشركين:

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾: أنا كفرت بهذا الشرك، كما قال تعالى عنه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، كفر بالشرك بالله، وإبليس لم يكن مشركًا بالله؛ لأنَّ إبليس معترف بالله وعِجَل، وقال: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

معترف بأنَّ الله خالقه، قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فهو معترف بوحدانية الله وبعزة الله، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾، الإِشْرَاك هذا أنا كفرت به من قبل.

عذاب الظالمين:

ثمَّ علَّل تبرُّؤه، فقال: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: إبليس نفسه يعترف بأنَّ الظالمين لا بدَّ أن يلقوا عذابهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

الظالمون لا بدّ أن يلقوا جزاءهم في الدُّنيا وفي الآخرة، فإن أفلتهم جزاء الدُّنيا فلن يُفَلتوا من جزاء الآخرة: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معدّ لهم، ينالونه بما كسبت أيديهم، لا يظلم من الله تعالى لهم، إنّ الله حرّم الظلم على نفسه، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرّة، في يوم القيامة، لا يخاف أحدٌ ظلماً ولا هضمًا، لا يخاف أحدٌ أن يظلم وأن يحمل سيئات غيره، ولا تهضم حسناته، بل سيأخذ جزاء حسناته: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

منهج القرآن في ذكر الوعد والوعيد:

القرآن بعد أن يذكر الوعيد يذكر الوعد، بعد أن يذكر التهيب يذكر الترغيب، بعد أن يذكر النار يذكر الجنة، بعد ذكر المشهد الهائل الرعب الرهيب، مشهد الذين برزوا لله جميعًا من الضعفاء والمستكبرين، الذين تبرّأ بعضهم من بعض، ذكر مشهد الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين أُدْخِلُوا الجنة.

لماذا يذكر الله الوعيد والوعد والترغيب والتهيب؟! لينشئ في أنفس المؤمنين الحذر والأمل، أو الخوف والرجاء: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويتكامل هذان المعنيان في أنفس المؤمنين، في نفس كلّ مؤمن، يكون عنده خوف ورجاء، لا يغلب عليه الخوف حتّى يئس من روح الله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولا يغلب عليه الرجاء حتّى يأمن مكر الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ولكن يكون هكذا بين بين: راجيًا خائفًا، حذرًا آمنًا: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿نَبِئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ * وَأَنَّ

عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨].

هذا هو منهج القرآن وأسلوب القرآن في التخويف والتأمين والتحذير والتبشير، والتحريك والتسكين.

يقول الإمام الغزالي في التعليق على قوله تعالى: ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣]: «عَلَّقَ الخشية باسم الرحمن، دون
اسم الجبار أو المنتقم، والمتكبر ونحوه، لتكون الخشية مع ذكر
الرحمة، فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة، فيكون تخويفاً في تأمين،
وتحريكاً في تسكين.

كما تقول: أما تخشى الوالدة الرحيمة؟ أما تخاف الوالد الشفيق؟ أما
تحذر الأمير الكريم؟ والمراد من ذلك: أن يكون الطريق عدلاً، فلا
تذهب إلى أمن ولا قنوط»^(١).

هذا هو منهج القرآن الكريم، وهذا هو المنهج الذي يجب أن نفهمه
ونتبّعه: أن نعيش بين الخوف والرجاء: خائفين من عذاب الله، راجين
رحمة الله ﷻ.

دخول المؤمنين الجنة:

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾: أهل النار دخلوا فيها يتلاومون
ويتلاعنون، ويلقي بعضهم اللائمة على بعض، ويبرأ بعضهم من بعض،

(١) منهاج العابدين للغزالي ص ٢٥٧، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، نشر مؤسسة الرسالة،

بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

وويرأ الشيطان منهم جميعاً، وأهل الجنة أدخلوا الجنة، أدخلهم الله الجنة، أو أدخلتهم الملائكة الجنة، قالت لهم: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ارتباط الإيمان بالعمل الصالح:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، لم يكن مجرد إيمان لا أثر له، ولكن إيمانهم كان له أثره في عمل الصالحات، فهذا هو الإيمان النافع.

«ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»^(١).

مدلول كلمة الصالحات في القرآن:

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، الذين آمنوا بالله ورسوله، الذين وقفوا عند حدود الله وعملوا خلال الصالحات المَرْضِيَّات عند الله. وكلمة الصالحات: كلمة من الكلمات القرآنية الجامعة، تشمل كل ما يصلح به دينهم، وتصلح به دنياهم، كل ما تصلح به أرواحهم، وتصلح به أجسادهم، كل ما تصلح به حياتهم الروحية وحياتهم المادية، كل ما يصلحون به أفراداً، ويصلحون به جماعات، ويصلحون به أمماً، سواء كانت من صالحات الدين مثل: الشعائر والصلوات والأذكار والدعاء والاستغفار، أو صالحات الدنيا، مثل عمارة الأرض، والعلم النافع من تسخير الكون ومصلحة الإنسان، كل هذه من عمل الصالحات.

(١) إشارة إلى ما رواه ابن أبي شيبة في الإيمان والرؤيا (٣٠٩٨٨)، مقطوعاً عن الحسن البصري.

مراتب المؤمنين في الجنة:

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾: ثماني جنات على حسب منازلهم ومراتبهم، أعلاها: الفردوس الذي أمرنا النبي ﷺ أن نسأله: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنان، وفوقه عرش الرحمن»^(١).

جريان الأنهار في الجنة والخلود فيها:

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، تُسَبِّحُ فِيهَا الْأَنْهَارُ، العرب لأنهم كانوا في الصحراء، والماء عندهم عزيز، فكون الجنات تجري من تحتها الأنهار هذا عندهم شيء عظيم، ولما قال فرعون مصر: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، علامة العظمة، وعلامة العز والرفاهية، أن تكون المياه قريبة منك وفي متناول يدك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: ماكثين فيها أبداً، لم يقعدوا فيها سنة ولا عشر سنين ولا مليون سنة ولا تريليون سنة، لا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. وفي بعض الآيات: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً﴾ [النساء: ٥٧، وغيرها]، وإذا لم تذكر يحمل هذا على ذاك، هذا جزاؤهم، خالدون فيها: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، الجنة فيها الخلود الأبدي، نعيم لا ينقطع أبداً.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، بأمر الله، بتوفيقه لهم، بهدايته ورحمته وإياهم.

تحية أهل الجنة:

﴿تَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: التحية في الجنة هي السلام، ولذلك نقول: السلام تحية المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة. في الدنيا يحيي بعضنا

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

بعضًا بالسلام، إذا لقي بعضنا بعضًا سلم عليه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وفي الآخرة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

التحية يوم القيامة سلام، تحية من الله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

تحية بعضهم لبعض أيضًا: سلام، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، التحية سلام من الرب وعجل، ومن ملائكة الرحمن، ومن المؤمنين بعضهم لبعض.

الجنة دار السلام:

هذه هي الجنة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾؛ لأن الجنة سلام في سلام، سمّاها الله دار السلام: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، دار السلام لأن التحية فيها سلام، أو لأنها هي سلام، سلام من كل خوف، سلام من كل حزن: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].



سَلامٌ مِنْ كُلِّ غِلٍّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ليس في الجنة كراهية، حتّى الأعداء حينما يدخلون الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

الجنة ليس فيها إلا السلام المحض، ليس فيها أحزان، ليس فيها أحقاد، ليس فيها كراهية، ليس فيها مخاوف من المستقبل، أمن مطلق: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، هذه هي الجنة.

* * *



الدرس الخامس

كلمتان وشجرتان

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ
مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُمِثُّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾
[إبراهيم: ٢٤ - ٢٧].

ضرب الأمثال في القرآن:

جرت سُنَّةُ القرآن بضرب الأمثال، لما فيها من بيان وإيضاح يجعل
المعقول في صورة المحسوس، والغائب في صورة المشاهد، يُقَرَّبُ
المعاني، فإن كان يتحدث عن أمور عقلية أو معنوية، فإنه يُجسِّدها حتى
تصبح كأنها مرئية للعيان، ولذلك جرى في القرآن ضرب الأمثال
كثيراً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ
سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّمٍ رَبَّوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَعَانتُ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات،
والأحاديث النبوية فيها الكثير والكثير من ضرب الأمثال.

فالله تعالى يضرب لنا الأمثال، كما قال في سورة العنكبوت: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، أصحاب العلم والفكر هم الذين يعقلون المراد من هذه الأمثال، ويفهمون منها لماذا ضربت، وما المقصود منها؟

وبعض الناس لا يفهمون منها شيئاً، حتّى إنّ المشركين حينما وجدوا القرآن يضرب الأمثال أحياناً بالعنكبوت وهذه الكائنات، ويقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، كل ما حصل في أذهان هؤلاء الكفار والمشركين: أنّ محمداً يريد أن يضرب لنا الأمثال، بالنملة والنحلة والبعوضة وبالعنكبوت وبهذه المخلوقات، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

الله يضرب الأمثال للناس، كما قال في نهاية هذه الآية: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، رجاء أن يُعْمِلُوا فكريهم، أمّا العقول البليدة فهي التي لا تفكر، وهذه هي مشكلة البشرية: أنّ الله أعطى الناس عقولاً، فبعضهم استخدم هذه العقول فعرف نفسه، وعرف ربّه، وعرف الكون من حوله، وبعض الناس عطّلوا هذه العقول، فلم يعودوا يتفكرون: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

الكلمة الطيبة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: هنا ضرب الله المثل بالكلمة الطيبة، فما الكلمة الطيبة؟!

الطيب أحياناً يُراد به الطيب في الطعام، تقول: هذا طعام طيب - يعني مُشْتَهَى أو لذيذاً.

والطيب في الرائحة، تقول: ريح طيبة.

والطيب في النتيجة والثمرة، تقول: هذا أمر نتيجته طيبة، يعني يؤتي ثماراً كريمة، إلخ.

فالكلمة الطيبة هنا: الكلمة التي لها آثار طيبة، هي في نفسها طيبة، وآثارها طيبة أيضاً.

الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله:

ما هذه الكلمة؟ بعض المفسرين قالوا: الكلمة هي كلمة الإسلام، كلمة التوحيد، كلمة الإخلاص، كلمة التقوى، كلمة الشهادة، كلمة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

البعض قال: هذه هي الكلمة؛ لأنها مفتاح الإسلام، ومدخل الإسلام. بماذا تدخل الإسلام؟ أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وهي التي قال فيها الله تعالى: ﴿وَالْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

الكلمة الطيبة: القرآن الكريم:

وبعضهم قال: الكلمة الطيبة المقصود منها: القرآن؛ لأنه يحتوي الكلام الطيب والقول الطيب الذي يهدي إلى الله، ويهدي إلى صراطه المستقيم، ويهدي للتي هي أقوم، ويدل الإنسان على الحقوق والواجبات، ويرشدهم إلى الآخرة، وكيف يتجنبون ما يسخط الله، ويحصلون على ما يرضي الله وعجل.

القرآن هو الذي يشمل هذا كله، وكلام الله أو كلمة الله. كما يقول ابن مالك:

وَكَلِمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمُّ^(١)

تقول كلمة، وليس المقصود كلمة: مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل. لا، الكلمة قد تكون موضوعاً، فتقول: فلان له كلمة في هذا المؤتمر. وقد يتكلم ساعة، فالكلمة قد يقصد بها الكلام.

فيقال: إِنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، أو الشهادة، أو القرآن الكريم باعتباره كلام الله: ﴿الرَّكَيبُ أَحْكَمْتُ بَيْنَهُ، ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

الكلمة الطيبة: دعوة الإسلام:

وبعضهم قال: المراد بالكلمة الطيبة هنا: دعوة الإسلام، الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ، وأرسله الله ﴿بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، دعوة الإسلام التي ختم الله بها الدعوات والرسالات، وجاءت بالشرعية الكاملة والخالدة، شريعة الإسلام الصالحة والمصلحة لكل زمان ومكان.

ونقول: لا مانع أبداً أن تشمل هذه الكلمة كل هذه المعاني، فالكلمة الطيبة تتسع لهذا كله، تشمل كلمة التوحيد (الشهادتين)، وتشمل القرآن الكريم وما يدعو إليه وما يهدي إليه، وتشمل دعوة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ.

(١) أي: يُقصد. وهذا عَجَزُ البيت الثاني من ألفية ابن مالك.

الشجرة الطيبة:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾: مثل الله الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، فما هذه الشجرة؟

بعضهم قال: إنها النخلة. النخلة شجرة طيبة، وجاء ذلك في بعض الأحاديث، وهي التي شبه بها النبي ﷺ المؤمن، أو شبه المؤمن بها، كما في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا (صَيْفًا وَلَا شِتَاءً)، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟». فوقع النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبُؤَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النُّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ. ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هِيَ النُّخْلَةُ»^(١).

كان يمتحن الصحابة: من يعرف هذه الشجرة؟ فقعد النَّاسُ يَأْتُونَ بِشَجَرِ الْبُؤَادِي، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: خَطَرَ فِي بَالِي أَنَّهَا النُّخْلَةُ، وَلَكِنْ وَجَدْتُ فِي الْقَوْمِ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَكِبَارَ الصَّحَابَةِ، فَاسْتَحْيَيْتُ. وَهُوَ صَغِيرٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَوْ قُلْتَهَا لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا^(٢). فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ ضَرَبُوا يَمِينًا وَشِمَالًا وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهَا. قَالَ: «هِيَ النُّخْلَةُ».

بعض المفسرين قال: المراد بالشجرة الطيبة: النخلة؛ لأنَّ النخلة شجرة ينتفع فيها من كل شيء، ينتفع بالثمرة، ينتفع بها بسرًا، وينتفع بها رطبًا، وينتفع بها تمرًا، حتَّى النواة يمكن أن ينتفع بها، تأكلها الحيوانات، وأيضًا جريد النخل يُنتفع به، وورق النخل (الخصوص) يصنع به أشياء كثيرة، وكذلك سعف النخل، وليف النخل، وزيت النخيل، وحتى جذع

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦١)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١١) (٦٤)، عن عبد الله بن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٣١)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١١) (٦٣).

النخل، كل شيء في النخلة يُنتفع به، ولذلك لا عجب أن يضرب بها المثل، «وإنَّها مثل المسلم».

فهي شجرة طيبة؛ طيبة في شكلها، طيبة في رائحتها، طيبة في طعمها، طيبة في منافعها، شجرة طيبة.

ووصف الطيب وصف محمود في الأشياء، تقول: هذا طيب وهذا خبيث، وفي الكلام: كلام طيب وكلام خبيث، وفي الناس: إنسان طيب وإنسان خبيث، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونِ الْآلَبُ لَكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فتقسيم الأشياء والبشر والنبات إلى خبيث وطيب تقسيم معروف.

أوصاف الشجرة الطيبة:

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ٢٤ ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: هذه الشجرة الطيبة من أوصافها:

الصفة الأولى: رسوخ الأصل:

رسوخ أصلها، فهي شجرة ثابتة ليست متزعزعة رخوة، عائمة على وجه الأرض، لو هبَّت ريح تقتلعها، لا... هذه شجرة لها رسوخ، وفعلاً النخلة من الأشجار التي لها رسوخ، ففي العواصف حين تشتد تقتلع كثيراً من الأشجار، إنما النخلة صعب أن تقتلعها إلا على سبيل الندرة، فهي ثابتة، أصلها ثابت ضاربة بعروقه في الأرض لا تؤثر فيها الرياح^(١).

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أصلها ثابت: قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء، يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. رواه الطبري في تفسيره (٥٦٧/١٦)، تحقيق أحمد شاكر، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

الصفة الثانية: علو الفروع:

أنّها عالية الفروع، فرعها في السماء، فهي ثابتة الجذور عالية الغصون والفروع، فروعها عالية.

السماء: تطلق على كل ما علاك، حتّى السقف يمكن أن يطلق عليه سماء، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥]، أي: حبل إلى السقف.

أو يقال: ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في جهة السماء، المراد بفرعها: فرع عالٍ، فهي عالية الفروع ثابتة الجذور.

الصفة الثالثة: تؤتي أكلها كلّ حين:

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ الأكل: ما يؤكل منها من ثمرات. أي: من شدة نموها، تعطي ثمرتها في كلّ حين، في كل وقت عيّنه الله لإثمارها بإرادة خالقها وتسخيره. بعض الشجر يعطي في الصيف، وبعض الشجر يعطي أكله في الشتاء، وبعضه في الربيع، وبعضه في الخريف، وبعضه يعطي في السنة مرّة، وبعضه أكثر من مرتين، وبعضه كل سنتين، إنّما المهم أنّ هذه الشجرة تؤتي أكلها كلّ حين، في الحين المؤقت لها.

دلالة كلمة: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾:

وكلمة: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، أي: بتيسيره وبمباركته وبتوقيقه وبتفهمه؛ لأنّ كلّ ما يجري في الكون هو بإذن الله وعِزِّهِ.

نموّ الشجرة وارتفاعها وإيتاؤها أكلها كلّ ذلك بإذن الله، لو لم يأذن الله للشجرة أن تنمو ما نمت، لو لم يأذن أن تؤتي أكلها ما آتت.

مَنْ الَّذِي يعطي الشجرة غذاءها؟ تمتص غذاءها من الأرض، من الأملاح والمعادن بقدر معلوم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، لا يمكن أن تمتص شجرة الليمون ما تمتصه شجرة التفاح، لا.

هذه شجرة حمضية، وهذه شجرة حلوة، فهذه تأخذ من الأملاح ما لا تأخذه غيرها.

مَنْ الَّذِي عَلَّمَ الشجرة هذا؟ الله هو الَّذِي أذن لها، بإذن ربّها، فالنباتات تختلف: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

العلماء الآن - علماء الجيولوجيا والنباتات والأحياء - يقولون: فعلاً كل شيء موزون.

تعرف أن هذا النبات يأخذ كم مليجرام من الأملاح، ومليجرام من الماء وكذا، كل شيء موزون، وكل شيء بقدر: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾، ولذلك يقول: ﴿يَاْذِنْ رَبِّهَا﴾، إنها ليست سائبة، إنها ميسرة بقدر الله وَجَلَّ، تجري بقدر، وتمضي بقدر، وتأخذ ما تأخذ من الأرض، ومن الشمس، ومن الهواء بقدر.

مَنْ الَّذِي عَلَّمَ النباتات أن تستنشق ثاني أكسيد الكربون، نحن نستنشق الأكسجين، لولا الأكسجين نهلك، والنباتات تتنفس ثاني أكسيد الكربون الَّذِي نخرجه، النبات يمتصه ويستنشقه، نحن نستغني عن هذا والنبات يحتاجه، والنبات يتنفسه.

الأكسجين نحتاجه نحن، مَنْ الَّذِي صنع هذا التبادل بين المملكة

الحيوانية والمملكة النباتية؟! نحن - ونحن أصحاب العقول - لم نركب هذا، وطبعًا الحيوانات والنباتات لم تركب هذا، مَنْ الَّذِي رَكَّبَ هذا كله وقدره فأحسن التقدير، وأحسن كل شيء خلقه؟ ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، إنه الله، ولذلك قال: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

هذه أوصاف هذه الشجرة: أنها شجرة طيبة، وأن أصلها ثابت، وأن فرعها في السماء، وأنها ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. وهذا هو الذي ينبغي أن تكون عليه الكلمة الطيبة، تكون كهذه الشجرة الطيبة، تكون ثابتة، غير مزعزعة، غير متشككة.

بين كلمة الباطل وكلمة الحق:

دائمًا أهل الريب، أهل الكفر، أهل الجحود هؤلاء دائمًا شاؤون مشككون لا يثبتون على شيء، يتشكك في كل شيء، هذه ليست من أوصاف الكلمة الطيبة، فشكُّ المرتاب ليست هي الكلمة الطيبة؛ لأنها ليست ثابتة الأصل، كلمة مزعزعة لأدنى شيء تنهار؛ لأن الباطل لا أساس له، ولذلك الباطل خفيف الوزن وقليل الثبات، لا يثبت أمام الحق: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

القرآن يقول: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، الزبد: الرغاوي المنتفخة التي تطفو على سطح الماء أو الأشياء، والغثاء التي يحملها السيل، الأوراق والقش والحطب وأمثال هذه الأشياء، هذا هو الزبد الذي يذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وهكذا الكلمة الطيبة ثابتة وفرعها في السماء، عالية المقدار واضحة

لا تتخفى، إنها تنبئ بنفسها، تُعبر عن نفسها، الباطل دائماً يحب أن يتخفى، إنما الحق يريد الظهور، فالحق ثابت؛ وهذا معنى كلمة حق.

حقّ يَحِقُّ أي: ثبت يثبت، فالحق من شأنه الثبات، وأول من أطلق عليه كلمة الحق هو الله تبارك وتعالى؛ لأنه هو الثابت الذي لا يتغير ولا يزول ولا يحول: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

الحق من شأنه الثبات، ومن شأنه العلو والظهور، والحق أيضاً الكلمة الطيبة - كلمة الحق - من شأنها أن تعطي ثمارها وفوائدها للناس في كل حين، الحق هو حق في ذاته، ولكن مع هذا ينفع الناس: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

ليس هناك أنفع للناس من الحق، وليس هناك أضر على الناس من الباطل، الحق هو الذي ينفع الناس في الدنيا، وينفعهم في الآخرة، ينفع الناس أفراداً وينفعهم جماعات، ينفعهم مادياً وينفعهم روحياً.

بين النفع المادي والنفع المعنوي:

الناس أحياناً تبحث عن النفع المادي فقط، وتنسى النفع الروحي المعنوي، الحق يعطيك الحلاوة كما سمّاها النبي ﷺ في بعض الأحاديث حلاوة الإيمان: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

من كانت فيه هذه الخصال الثلاث وجد حلاوة الإيمان، هذه الحلاوة لا يحسها إلا من كانت عنده هذه الحاسة المعنوية التي تتذوق الأشياء، لم تفقد هذه الحاسة بالكفر ولا بالشك ولا بالريب.

فالكلمة الطيبة ثابتة في أصولها، عالية ظاهرة في فروعها: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

المقابلة في القرآن الكريم:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، كما ضرب الله لنا مثل الكلمة في هذه الآية الكريمة، ثم على طريقة القرآن دائماً يقرن الأشياء بأضدادها، كما قال الشاعر:

ضِدَّانٍ لِمَا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِّدِّ^(١)
وقيل: وبضدّها تتميّز الأشياء.

فلكي يعرفنا الحق تماماً يذكر الباطل، يذكر الشيء وما يقابله، يذكر الوعد والوعيد، يذكر الترغيب والترهيب، يذكر الجنة والنار، يذكر الطيب والخبيث.

وبعد أن ذكر لنا وضرب لنا المثل بالكلمة الطيبة، ضرب لنا المثل في المقابل بالكلمة الخبيثة، لنتمسك بالكلمة الطيبة ونتجنب الكلمة الخبيثة.

ولماذا يضرب لنا الأمثال؟ لنستفيد منها، لننتفع بها، لنهتدي

(١) بيت من القصيدة اليتيمة المنسوبة لكل من ذي الرمة ودوقلة المنبجي، انظر: القصيدة اليتيمة برواية التنوخي ص ٣٠، تقديم د. صلاح الدين المنجد، نشر دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ م.

بهداها، لا لمجرد أن نتعلّم فقط، التعلم مهم، ولكن المهم بعد العلم: العمل. فعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر.

ولذلك ضرب لنا المثل بالكلمة الطيبة؛ لنبحث عنها، ونستمسك بعراها، وضرب لنا المثل بالكلمة الخبيثة؛ لنبتعد عنها، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

لم يفصل الله في الكلمة الخبيثة، وفي وصفها، كما فصل في الكلمة الطيبة؛ لأنها هي المقصود، فالمقصود من ذكر الكلمة الخبيثة التحذير منها، إنما المقصود بذكر الكلمة الطيبة التمسك بها.

الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، يرى كثير من المفسرين: أنها شجرة الحنظل؛ لأنها شجرة كثيرة الشوك، شوكها يؤذي، وليس لها رائحة طيبة، ولا ثمر لها، لا تستفيد من ثمرها، ولا تستفيد برائحتها، وأيضاً تؤذيك بشوكها، فهي مثل السوء في الأشجار.

والبعض قالوا: ليس المهم أن نحدّد الشجرة، المهم أن نحدّد أوصافها؛ فهي شجرة ليس من ورائها ثمرة، شجرة عائمة على وجه الأرض، ليس لها ثبات، ولا رسوخ.

الشجرة الطيبة أصلها ثابت، وهذه ليس لها أصل، قليلة الأصل، ليس لها أصل بالمرة، لذلك قال: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾.

اجتثت: أي اقتلعت. الاجتثاث: قطع الشيء من أصله، أي: اقتطعت فلم يبق لها من باقية في الأرض: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾، كما أنها

أيضًا ليس لها جذور ثابتة، فهي لا تتعب الذي يريد أن يجتثها؛ لأنها من فوق الأرض: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

من شأن الباطل الزهوق والزوال:

هكذا شأن الباطل، فإذا كانت هذه الشجرة تمثل تعاليم الشرك في مقابل تعاليم القرآن، والدعوة إلى الشرك في مقابل الدعوة إلى الإسلام، وتمثل كلمة الشرك والوثنية في مقابل كلمة التوحيد، فهذه ليس لها أي قرار، ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾، ما لها من ثبات. وهكذا شأن الباطل، الباطل سريع الزوال. فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

من شأن الحق الثبات:

الحقُّ من شأنه الثبات إلى أن تقوم القيامة، والباطل شأنه الزوال، حتَّى وإن ظهر في بعض الأحيان لا يدوم: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

المسلمون ظلُّوا يقاومون الباطل، والشرك، والوثنيَّة، وعبادة الأوثان والأحجار، ظلُّوا يقاومونها ثلاثة عشر عامًا في مكة، وثمانية أعوام في المدينة، يقاتلون المشركين والوثنيين، حتَّى إنَّ الوثنيين هؤلاء غزوا المسلمين - غزوا الرسول وأصحابه - في عقر دارهم بالمدينة، في غزوة أحد، وغزوة الأحزاب، كانوا يريدون استئصال شأفتهم واقتلاع جذورهم، ولكن سرعان ما ظهر الحق، وانكشف الباطل في السنة الثامنة من الهجرة، حين دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا.

مكة التي خرج منها مطارداً دخلها فاتحاً، خرج منها ليلاً ودخلها نهاراً، خرج منها سرّاً ودخلها جهاراً، وأصبح هو الحاكم في أهلها،

جمعهم في المسجد، وقال لهم: «ما تظنون أنني فاعل بكم؟». هؤلاء الجبابرة الذين - طالما طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، طالما عذبوا المؤمنين وأذاقوهم ما أذاقوهم من ألوان الأذى، ماذا قالوا حينما قال لهم: «ما تظنون أنني فاعل بكم؟». قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فعفا عنهم، وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

إنَّ الرسول ﷺ وأصحابه عندما دخلوا مكة، ودخلوا الكعبة البيت الحرام، وكان فيها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا، ظلت طوال هذه السنين، موجودة حول الكعبة، حتَّى إِنَّ المسلمين حينما اعتمرُوا «عمرة القضاء» طافوا بالكعبة، وهذه الأصنام حولها، لم يستطيعوا أن يفعلوا معها شيئًا، ولكن يوم الفتح كانوا يطعنون هذه الأصنام برماحهم، ويضربونها بسيوفهم، فتسقط خارة على وجهها، والنبى ﷺ يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]^(٢)، من شأن الحق أن يحق ويثبت، وشأن الباطل الزهوق والزوال.

تثبيت المؤمنين بالقول الثابت:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، هذه سنة من سنن الله في الأرض، فبعد أن ضرب لنا هذين المثالين، بيّن لنا هذه السُّنة، أَنَّ من شأن الله تبارك وتعالى أن يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت، لا يتزحزون عن حقهم أبدًا، لا يرتابون في

(١) رواه ابن أبي إسحاق، وقال: حدثني به بعض أهل العلم. انظر: السيرة النبوية لابن هشام

(٢/٤١٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،

القاهرة، ط ٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٢٨٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨١)، عن ابن مسعود.

أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ؛ لَأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَأَنَّ مَا مَعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

وكما أمر الرسول بهذا، المسلمون أيضاً مأمورون به: ﴿فَأَسْتَمِمْكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

وهكذا يشعر المؤمنون أَنَّهُمْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَنَّ مَعَهُمُ الْحَقِيقَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ صَافِيَةٌ وَاضِحَةٌ لَيْسَ فِيهَا غُمُوضٌ، وَلَيْسَ فِيهَا إِشْكَالٌ وَلَا إِغَارٌ.

مِنْ أَوْصَافِهَا: أَنَّهَا بَيِّنَةٌ، وَالرَّسُولُ جَاءَ بِالْبَيِّنَةِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

القرآن نزل بالبيّنات: ﴿وَبَيَّنَّتْ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَلِذَلِكَ يَسْمَى الْقُرْآنُ: الْهُدَى وَالْهُدَايَةُ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيَّنَّتْ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، مَهْمَا نَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى، وَمَهْمَا نَزَلَتْ بِهِمْ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَمَهْمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمَحَنِّ وَإِذَاءِ الْكُفَّارِ، يَثْبُتُهُمُ اللَّهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهَذَا تَثْبِيتٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَوْ لَا أَن تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

إِتْيَاءُ الْحُجَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ:

الْمُثَبَّتُ هُوَ اللَّهُ، لِذَلِكَ قَالَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، يَعْطِيهِمُ الْحُجَّةَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَتَجِدُ أَهْلَ الْإِيمَانِ أَظْهَرَ حُجَّةً،

وأقوى تعبيراً عن حقهم، وعلى بيان باطل خصومهم، كما أتى الله إبراهيم الحجة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

أوتي الحجة، كما ذكر القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، هذا الذي يقال عنه النمرود الذي يجادل إبراهيم في ربه قال: كما أن إلهك يحيي ويميت أنا أحيي وأميت. وبعد ذلك قال: ائتوني باثنين من عرض الطريق. فجاؤوا باثنين، وحكم عليهما بالإعدام، وقال للسياف: اضرب هذا بالسيف. فأعدمه، وادّعى الإمامة له، والإحياء لصاحبه، وقال: أنا أعدمته هذا، وعفوت عن هذا، أحييت هذا.

هكذا جادل إبراهيم، فلم يرد إبراهيم ﷺ أن يدخل معه في معنى الإحياء ومعنى الإمامة، والمراد بالإحياء والمراد بالإمامة، ولكن انتقل من دليل إلى آخر، قال: طالما أنت قادر على كل شيء، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، إذا كنت أنت إله وقادر على كل شيء، افعل هذا العمل، تطلع الشمس بأمر ربنا من هذه الناحية، أطلعها أنت من هذه الناحية. ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾.

وهكذا، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، طول حياتهم، يثبتهم الله وجزل بالقول المؤيد بالحجة، فلا يتزحزون عن دينهم، مهما اشتدت عليهم المحن والفتن والتعذيب، يعطيهم الحجة، يقوِّيهم على أعدائهم؛ لأنَّ معهم الحق، ومن كان معه الحق كان الله معه، ومن كان الله معه فلن يخذل، ولن يغلب، ولن يضيع أبداً.

تثبيت المؤمنين بالقول الثابت في الآخرة:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: في القبر، والقبر أول منازل الآخرة، يثبتهم الله، إذا سألهم الملكان في القبر عن ربهم ونبیهم والكتاب المنزل عليه من ربه - كما جاء في الأحاديث^(١) - يثبتهم الله، أما الكفار والمنافقون لا يثبتون عندما يسألون عن محمد، يقولون: لا ندري سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثلهم.

أما المؤمن فهو يعرف من هو ربه، وما دينه، ومن رسوله، وما كتابه. يثبتته الله وينطقه بالحق في هذا الموقف، ولذلك جاء في الأحاديث: أن المراد بالقول الثابت هنا، القول الثابت في القبر. ولكن الآية تشمل أيضاً، القول الثابت في الآخرة، حينما يسأل الناس يوم القيامة: ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

هناك تزل الأقدام، وتضل الأفهام، وتطيش العقول، يوم تنشر الدواوين، وتنصب الموازين: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، حين يسألون يجيبون، تثبيت من الله، ثبتهم في الدنيا، ويثبتهم في الآخرة.

(١) منها الحديث المتفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٩٩)، ومسلم في الجنة (٢٨٧١)، عن البراء بن عازب مرفوعاً: «المسلم إذا سئل في القبر: يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وروى البخاري في الجمعة (١٣٣٨)، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وُضِعَ العبد في قبره، وتولَّى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً خيراً منه». قال رسول الله ﷺ: «فيراهاما جميعاً، وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».



إضلال الظالمين:

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(١): وإذا كان هذا هو شأن الله تبارك وتعالى مع المؤمنين، يثبت المؤمنين، فشأنه مع الظالمين أن يضلّهم، فلا يهتدون إلى حق؛ لأنّهم لا يعرفون الحق، ظلموا أنفسهم؛ ظلموا الربوبية فلم يعرفوا حقّها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وربما ظلموا المؤمنين وآذوهم، وهؤلاء الظالمون المحاربون للحق لا يستحقون أن يهديهم الله **وَعَجَلٌ**؛ فإنّ الله لا يهدي القوم الظالمين، إنّما يهدي الله من كان عنده استعداد للهدى، أما من ليس عنده استعداد للهدى فلا يستحق هداية الله، ولذلك قال: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ لأنّ القوم الظالمين يرفضون الهداية، ويأبونها.

الهداية تأتي عندهم وهم يرفضونها، فهم لا يستحقونها، ولذلك يقول تبارك وتعالى عن المؤمنين: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النُّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، كانوا أهلاً لها، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، الذين عندهم استعداد للشكر، فأهل الشكر يستحقون الهداية من الله، وأما الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا غيرهم، فهؤلاء يضلّهم الله **وَعَجَلٌ**: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

(١) أي: ويحكم الله على الظالمين من ذرّة الكفر بالضلال، ويكون مصيرهم إلى جهنم، بعد إصدار الحكم عليهم في محكمة العدل الربّانية يوم الدين.

مشيئته سبحانه المطلقة لا تنفصل عن حكمته:

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: هو صاحب الملك يتصرف فيه كيف يشاء، يهدي ويضل، ويعز ويذل، ويفقر ويغني، ويضحك ويبكي، ويحيي ويميت، يفعل ما يشاء.

هل يلام صاحب الملك أن يتصرف في ملكه؟ هو يفعل ما يشاء، ولكن مشيئته سبحانه لا تنفصل عن حكمته، كل ما يشاؤه وَعَجَلٌ لا يخرج عن الحكمة؛ لأنه حكيم، ومن أسمائه الحسنی: الحكيم. فهو حكيم في أقواله، حكيم في أفعاله، حكيم فيما شرع وأمر، وحكيم فيما خلق وقدر، فلا يخلق شيئاً باطلاً، ولا يشرع شيئاً عبثاً، يفعل الله ما يشاء، لكن هل من الممكن أن يظلم؟! لا،

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

أيمكن أن يفعل الأشياء عبثاً؟

لا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]؟! لا،

وكما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَلْهَمْنَاهُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْتٍ مَّا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، فكلمة: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] مقيدة بالحكمة - بحكمة الله وَعَجَلٌ -، مشيئته مقيدة بالحكمة، ولهذا قال أولو الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، لم يخلق الله السماوات والأرض، وما بينهما، ولا شيئاً فيهما باطلاً أبداً، كل ما خلقه بالحق وبالحكمة اللائقة به، وبكماله وَعَجَلٌ.

الدرس السادس

موقف العباد من نعم الله تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ * قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٣١].

ذكرنا من قبل أن سورة إبراهيم تدور حول محورين أساسيين:

المحور الأول: الرسالة والرسول، وموقفهم من قومهم، وموقف قومهم منهم، وموقف الله تعالى من الجميع، بأن ينصر الرسل، ويهلك الظالمين، ويسكنهم الأرض من بعدهم.

والمحور الآخر: هو محور النعم، نعم الله تعالى على عباده، وموقف العباد من هذه النعم، فقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

دلالة التعبير بقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: حول محور النعم تتحدث هذه الآية، تخاطب رسول الله ﷺ، وهو أول وأولى من يخاطب بالقرآن، أو تخاطب كل من يصلح للخطاب، حين تقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

وقد رأينا هذا التعبير في القرآن أكثر من مرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، يقول فيها العلماء: استفهام تقريرى أو إنكارى، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم ينته إلى علمك؛ لأنَّ الرؤيا هنا علمية.

الرؤيا - كما ذكرنا من قبل - لها ثلاثة معانٍ: الرؤيا البصرية: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أي: ألم تنظر ببصرك.

أو الرؤيا المنامية: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فهو رأى في المنام.

والرؤيا العلمية كما في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾.

وإن كان بعض العلماء يقول: الرؤيا هنا بصرية؛ لأنَّه يكلمهم عن كفار قريش، كفار مكة، وهؤلاء يراهم. ولكنَّه يقول: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ﴾، وهذا أمر لم يُر بعد، وإنَّما عرف بالعلم عن طريق الوحي.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾، أي: ألم ينته إلى علمك يا محمَّد، أو يا أيُّها المخاطب، إلى ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، يقصد بهؤلاء أول ما يقصد: كفار مكة، يقصد مشركي العرب، الذين جاءهم محمَّد ﷺ برسالة التوحيد، رسالة الحق والخير، رسالة الهدى والنور، رسالة العدل والإحسان، فكذبوا وعصوا، وردوا هذه النعمة الَّتِي أنعم الله عليهم بها.

النعم قسمان: مادية ومعنوية:

والنعم قسمان: نعم مادية، ونعم معنوية. وكثير من الناس لا يهتمهم إلا النعم المادية، النعم الحسيّة، التي يبصرونها بأعينهم.

لا يرى هؤلاء النعمة إلا في الأكل والشرب، والنعم التي يحسونها بحواسهم، لا يهتمهم نعمة العلم، أو نعمة الإيمان، أو نعمة الأخلاق، ولكن في الواقع النعم المعنوية هي أعظم النعم.

أعظم النعم على العباد:

وأعظم نعم الله على عباده: نعمة الهداية بالنبوة والرسالة والوحي.

الله سبحانه ينعم علينا بألوان من الهداية: الهداية الحسيّة عن طريق البصر والحواس الخمس.

والهداية العقلية عن طريق ما آتى الله الإنسان من عقل به يفكر وبه يدبر.

وأعظم من ذلك: نعمة الهداية العظمى عن طريق وحي الله ﷻ، إذا كان العقل يصحح خطأ الحواس، فإن النبوة تصحح خطأ العقول، العقول لو تركت لنفسها كثيراً ما تضل.

ترك الناس لعقولهم فعبدوا الأحجار.

ترك الناس لعقولهم فوأدوا البنات، وقتلوا أولادهم من إملاق أو خشية إملاق.

ترك الناس لعقولهم فشربوا الخمر، وارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ولذلك كان لا بدّ من نهج النبوة هذه، وختم الله هذه النبوات بنبوة محمد ﷺ، وهي نعمة تعدّ من أعظم النعم، وتستحق الشكر، ولكنّ الناس بدل أن يشكروها كفروها، والله تعالى يقول: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ * فَذَكِّرُوا أَنِّي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا * [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. مقابل إرسال هذا الرسول، الذي يعلمكم الكتاب والحكمة، ويزكّيكم، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، ويتلو عليكم آيات الله: اذكروا الله واشكروه، هذه النعمة يجب أن تذكر وتشكر. ولكنهم لم يقابلوا هذه النعمة العظيمة بالشكران، بل قابلوها بالكفران، بدّلوا نعمة الله كفرًا، ولذلك يعجب الله نبيه، ويعجب كل مخاطب من شأن هؤلاء.

التعجب من أمر المُبدّلين نعمة الله كفرًا:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، عبارة تعجب لأمر هؤلاء، أي: اعجب من موقف هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا.

وقياسًا على هؤلاء، يجب أن يعجب الإنسان ويدهش من كل من بدّل نعمة الله كفرًا، من آتاه الله نعمة فلم يستخدمها فيما يحب الله ويرضى، لم يستخدمها فيما جعلت له، وإنّما استخدمها في معصية الله، وفي إيذاء خلق الله.

أعطى الله الإنسان الذكاء، وبعض النَّاس استعمل ذكائه فيما يضر الخلق، أعطى الله الإنسان العلم: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، علّمه أشياء يسيرة، كيف يكتشف أسرار الكون، وكيف يكتشف الظواهر الكونيّة، وسخر له هذه القوانين، ولكنّه للأسف لم يسخرها في خدمة النَّاس ومنفعة الخلق، وفي العمران والحياة، ولكنّه استخدمها في

الخراب والموت. كما نرى الحضارة الغربيّة كيف استخدمت العلوم، استخدمت الأسلحة النووية، والأسلحة المتطورة والقنابل الذكية، ومثل هذه الأمور؛ استخدمتها في التدمير والتخريب والإهلاك والبوار.

أعطى الله الإنسان هذا الهاتف المحمول (الموبايل) بعض الناس بدل أن يستخدمه في المصالح وإجراء المنفعة وتيسير الأمور؛ استخدمه في الصفقات المحرمة، وفي معاكسة النساء والفتيات؛ كل هؤلاء بدّلوا نعمة الله كفرًا.

كثير من الناس بدّلوا النعمة، أنعم الله على الناس بأشياء كثيرة في هذا العصر من جراء استخدام العلم والتكنولوجيا، وكان المفروض أن يستخدم الناس هذا التسخير الإلهي في طاعة الله، وفي مصلحة عباد الله، ولكنهم لم يفعلوا، وبدّلوا نعمة الله كفرًا كما بدل عتاة كفار العرب وكبار مشركي قريش الذين أسكنهم الله حرماً آمناً يُجبي إليه ثمرات كل شيء، وشرفهم بإرسال رسول منهم، فكفروا بكل ذلك، كفروا بالقرآن، وكفروا برسالة محمد ﷺ، وأذوه وأذوا أصحابه، وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا: ربنا الله.

دار البوار:

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾: البوار: أي الهلاك، كما قال سبحانه: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، أي: هالكين.

ودار البوار هي: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾: يدخلونها، ويقاسون حرّها وهولها وعذابها.

﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، جهنم: بئس القرار، أي وساء سوءاً - لا يوجد أشد منه - مكان إقامتهم واستقرارهم. وأي قرار هذا الذي يقر أو يستقر أو يستمر في جهنم، لو كان يدخل فيها يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، أو سنة أو سنتين، أو مائة سنة أو مائتين، أو ألفاً أو ألفين، لا.. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، والعياذ بالله.

الإنسان يعيش في الدنيا مستمتعاً باللذائذ والشهوات، ومن كل ما لذ وطاب من الحلال ومن الحرام، فإذا جاء به يوم القيامة، وغمس في جهنم غمسة واحدة، ثم يسأل: «هل أصابك نعيم قط؟» هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: «لا، ما أصابني نعيم قط»^(١). غمسة واحدة تنسيه كل نعيم الدنيا، فما بالكم بمن يقر في جهنم ويقاسي حرّ نارها، وقبحت المستقر.

الكبراء والزعماء الذين قادوا قومهم إلى الهلاك:

﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، وهذا إشارة إلى أن هؤلاء القوم هم كبار القوم، زعماءهم الذين قادوا قومهم إلى هذا الهلاك والدمار والعذاب.

الذين يقودون الأقوام دائماً هم السادة والكبراء والزعماء الذين يتبعهم الناس، كما يقال: الناس على دين ملوكهم.

لذلك يقول الضعفاء يوم القيامة: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، هؤلاء الكبراء هم دائماً سبب هلاك أقوامهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وكذلك الملاء دائماً - كما يعبر القرآن - يعني أشرف القوم، هم الذين

(١) رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧)، وأحمد (١٣١١٢)، عن أنس بن مالك.

يُضِلُّونَ الْقَوْمَ، رَأَيْنَا فِرْعَوْنَ يَقُودُ قَوْمَهُ إِلَى النَّارِ، فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]، هُمْ أَيْمَةٌ، وَلَكِنْ أَيْمَةٌ فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ فِي الضَّلَالِ، مِثْلُ إِبْلِيسَ زَعِيمِ الزَّعَمَاءِ، فَهَؤُلَاءِ أَيْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٨].

بين قادة الشر وقادة الخير:

فهناك قوم يوردون قومهم المهالك، وأي مهلكة أعظم من النار. وهنالك قوم يقودون قومهم إلى الخير، خيري الدنيا والآخرة، كما قادت ملكة سبأ قومها أهل سبأ في اليمن، قادتهم إلى خيري الدنيا والآخرة، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وجنبتهم حرباً خاسرة، وذلك كان بحكمتها وما رزقها الله من حسن الفطنة والفهم والكياسة والتدبر في عواقب الأمور.

اتخاذ الأنداد لله:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْلُوا قَوْمَهُمْ جَهَنَّمَ دَارَ الْبَوَارِ، جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا مِمَّا ثَلِينَ لِلَّهِ، وَنَظَرَاءَ لَهُ، أَشْرَكُوهُمْ مَعَ اللَّهِ، أَوْ عَبْدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَاتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. وَكَذَبُوا؛ فَلَا يَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا التَّوْحِيدُ، وَلَا يَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْخَالِصُ لَوَجْهِهِ، الشَّرْكَ لَا يَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ، بَلْ يَبْعَدُ عَنِ اللَّهِ.

وكلمة ﴿أَندَادًا﴾، أي: شركاء، كأنهم قرناء أو أمثال لله عَجَلًا!

الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

الله تعالى ليس له ند، وليس له مثل، وليس له شريك، وليس له ولد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولكن هؤلاء اتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا ينفعهم ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فهؤلاء اتخذوا أنداداً، اتخذوا أصناماً، اتخذوا آلهة زائفةً وعبدوها مع الله، وظنوا أنها تجلب لهم الخير أو تدفع عنهم الضر! وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فكيف تملكه لغيرها؟ هي لا تبصر ولا تسمع، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تضر ولا تنفع.

معنى اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾:

هل هذه اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾. لام التعليل؟ أو لام العاقبة والصيرورة؟

بعضهم يقول لام تعليل: هكذا فعلوا ليضلوا الآخرين عن سبيل الله، يعني: الزعماء يفعلون ذلك ليضلوا أتباعهم.

والبعض يقول: هذه لام العاقبة، أي: إِنَّ عاقبة عملهم أن يضلوا الآخرين عن سبيل الله. كما قال تعالى: ﴿فَالنَّقَطَةُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، يعني هذه اللام تسمى لام الصيرورة أو العاقبة، يعني هم لم يلتقطوا هذا الطفل، أو هذا الوليد ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، ولكنَّ العاقبة والنتيجة كانت كذلك، فهؤلاء جعلوا لله أندادًا لتكون النتيجة: ليضلوا عن سبيل الله، عن طريق الله، عن طريق الحق، عن طريق التوحيد.

متاع المشركين الزائل:

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾: أي: تمتّعوا أيُّها المشركون، تمتّعوا بشرككم، تمتّعوا بضلالكم، تمتّعوا بشهواتكم، تمتّعوا بدنياكم، فهذا المتاع، متاع زائل، مهما طال فإنه سيترككم أو تتركونه، وتنتقلون إلى دار أخرى مصيركم فيها إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

هؤلاء يقول لهم: ﴿تَمَتَّعُوا﴾، تمتّعوا بكفركم، وامتّعوا بدنياكم، ولكن هذا المتاع متاع الغرور، متاع قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، ومن كان مصيره إلى النار فكيف يتمتع، وما قيمة ما يتمتع به، إذا كانت العاقبة والنهاية هي جهنم وبئس القرار!

وصية الله لعباده بإقامة الصلاة والإنفاق ممّا رزقهم سبحانه:

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾.

دلالة قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ ﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، والقرآن تتكرر فيه هذه اللفظة: ﴿ قُل ﴾، ومعناها أن محمداً مأموراً، فهناك من يلقيه، من يأمره ويقول: ﴿ قُل ﴾، ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، قل كذا.

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، لم يقل: (وقل لعبادي)، إنما أراد ألا يعطفها على قوله سبحانه: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾، لأن هذا نوع وهذا نوع، فينبغي فصل هذا عن ذاك.

شرف العبودية لله وعجل:

هؤلاء هم الخالص من عباد الله: ﴿عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أضافهم الله إلى نفسه: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ ﴾، تشريفاً لهم وتكريماً، وأنهم الأحقاء بعبودية الله، فلا يستحق أن ينسب إلى الله غيرهم. الجميع عباد الله وخلق الله، ولكن لا يضاف إليه إلا أمثال هؤلاء الذين لا يستطيع الشيطان أن يتسلط عليهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢].

تميز جماعة المؤمنين:

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، آمنوا بالله رباً، وآمنوا بالإسلام ديناً، وآمنوا بمحمدٍ رسولاً، وآمنوا بالقرآن إماماً ومنهاجاً. القرآن سمّاهم بهذا الاسم: ﴿ءَامَنُوا﴾، لأنه أصبح مصطلحاً على هذه الجماعة من الناس، فعرفوا بـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

يوجد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ويوجد ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ و﴿النَّصْرَى﴾ و(المجوس) و(الصائبون).

جماعة الذين آمنوا أصبحت جماعة متميزة، الذين آمنوا بمحمد، وبالقرآن.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، أمرهم أن يسيروا في طريقهم المخالف عن طريق أولئك الذين أحلوا قومهم دار البوار، والذين جعلوا لله أندادًا ليضلوا عن سبيله، هذا الطريق غير هذا الطريق، هذا هو الصراط المستقيم.

أمران أساسيان في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم:

وأول ما يؤمر به لهذا الصراط المستقيم أمران أساسيان: إقامة الصلاة، والإنفاق ممّا رزقهم الله. الصلاة تمثل حق الله، والإنفاق يمثل حق الإنسان، الصلاة تمثل العبادة البدنية، والإنفاق يمثل العبادة المالية، فكثيرًا ما يذكر القرآن هذين الأمرين، وقد قرن القرآن الصلاة والزكاة في ثمانية وعشرين موضعًا، وأحيانًا يأتي بدل كلمة الزكاة: الإنفاق.

كما في وصف المتقين في أوائل سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

وكما في وصف المؤمنين في أوائل سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢، ٣].

وفي سورة فاطر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾

لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
[فاطر: ٢٩، ٣٠].

وفي سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، فهذا أمران أساسيان في بناء الشخصية المسلمة، وفي بناء المجتمع المسلم.

معنى إقامة الصلاة:

لم يقل: (يؤدوا الصلاة)، أو (يفعلوا الصلاة). لكن قال: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. ومعناها: أداؤها قائمة مستوية على وجهها، بأن تؤدي في أوقاتها الخمس، وأن تؤدي كاملة الشروط والأركان، بركوعها وسجودها، وبروحها وهو الخشوع: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، كل هذا من إقامة الصلاة.

دلالة قوله سبحانه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾:

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، لم يقل: ينفقوا من أموالهم سرًّا وعلانية؛ لأنه أراد أن يذكرهم بأن الأموال التي يمتلكونها، وتسجل بأسمائهم في السجل العقاري، أو الأماكن المختلفة لتسجيل الممتلكات، هي في الحقيقة ملك الله، الله مالكها، والله رازقها، ولذلك بدل أن يقول: (من أموالهم) يقول: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، يعني: لا تظن أنك متفضل بما تنفق، هذا من رزق الله وفضله عليك.

كم من أناسٍ من حولك يكدحون ويتعبون، ويواصلون تعب النهار بسهر الليل، ولا يحصلون على شيء، ولكن الله يسر لك ورزقك،

فاعرف فضل الله تعالى عليك. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، من رزق الله تعالى تنفق، وهذا يذكر بالفكرة الإسلامية المعروفة في الاقتصاد الإسلامي، (فكرة الاستخلاف)، أن المال في الحقيقة مال الله، والإنسان مستخلف فيه، أي: الإنسان موظف عند الله مالك المال: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، أي: أنك مستخلف في المال، نائب عن الله، عن صاحب المال في إنفاق هذا المال وتوزيعه بالعدل، وتنميته بالحق، وكسبه بالحلال.

قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، أي: من بعض ما رزقناهم من الحلال، فهو لم يطلب منك أن تنفق كل ما رزقك الله، ثم تقعد عالة على غيرك - كما يقولون - يدك والأرض. لا، بل تنفق بعض ما رزقك الله، وهذا من فضل الله علينا أنه يطلب منا قليلاً من كثير.

شمول معنى الإنفاق:

والإنفاق يشمل أول ما يشمل إيتاء الزكاة، فكلمة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، أول ما ينطبق عليها: إيتاء الزكاة؛ لأنها هي الركن الثالث، والفريضة المعظمة في الإسلام، وهي قنطرة الإسلام، كما أن الصلاة عمود الإسلام.

يطلب منا قليل من كثير، غيض من فيض، اثنان ونصف في المائة، ترك لك سبعة وتسعين ونصف، وطلب منك اثنين ونصف في المائة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، سواء كان هذا الإنفاق هو الزكاة، أو الإنفاق على الأهل والأولاد والأقارب الذين تجب نفقتهم عليه، أو على الجيران: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم

به»^(١). أو إحسان إلى الناس عامة، كلمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾، تشمل هذا كله.

الإنفاق في السر والعلانية:

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، حيث ما تيسر له، ينفق في السر خفية دون إطلاع أحد إذا كان السر أولى وأفضل، إذا خاف على نفسه الرياء ينفق في السر، يتصدق: يعطي بيمينه حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، كناية عن شدة الخفاء. ولكن أحياناً يطلب العلانية، أداء الزكاة يجب أن يكون علانيةً جهاراً بعلم الآخرين حتى لا يتهم بأنه لا يخرج زكاته، وليعطي القدوة لغيره.

الفرائض يعلن بها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالإنفاق يكون سرّاً، ويكون علانية: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

يوم الأناية الفردية:

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾: هؤلاء عليهم أن يبادروا بالإنفاق: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، بادر بالإنفاق قبل أن يغلق الباب أمامك ولا تستطيع الإنفاق، وذلك في يوم

(١) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (٢٥٩/١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٧٤)، والهيثمى في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٥)، عن أنس بن مالك.

ليس فيه معاوضات، وليس فيه تبرعات، ليس هناك مال حتى تباع وتشترى، وليس هناك أحد يتبرع لك؛ لأن في يوم القيامة كل واحد يقول: نفسي نفسي.

إنه يوم الأناية الفردية المطلقة، يوم ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، لا أحد يغني عن أحد.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، الخلال: يعني المخالة. نقول عنها: مصدر خال خالل يخالل خلالاً ومخاللة، وتعني الصداقة. ليس هناك صديق يتبرع لك بشيء، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ليس هناك إنسان يبيع لأحد أو يشتري من أحد، ولا خلة - لا صداقة - ولا شفاعاة: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، هذا يوم القيامة.

المبادرة إلى الإنفاق:

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾، هل هذا راجع إلى الأمرين: الصلاة والإنفاق، أم إلى الإنفاق وحده؟

قد يرجع للأمرين، إنما الأغلب والأقرب إلى الذهن أنه راجع إلى الإنفاق؛ لأن الإنسان يبخل به، ويشح به، وتغلبه نفسه الشحيحة: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

فالقضية هي قضية الإنفاق، فيقول له: أنفق قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وآية سورة البقرة: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ترجّح هذا.

* * *



الدرس السابع

آفاق النعم

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

ثم انتقلت الآيات بنا إلى أن فتحت أمامنا آفاق النعم، فكما قلنا سابقاً: إنَّ أحد محوري السورة: الحديث عن النعم.

وهي تعرض الآن لنا لوحة، يبين الله لنا فيها عظام نعمه، وأكابر مننه على خلقه، حينما قال ﴿عَلَّكَ﴾: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ (٣٢) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾.

تكرار كلمة: ﴿لَكُمْ﴾:

انظر إلى كلمة ﴿لَكُمْ﴾، تكررت في سياق هاتين الآيتين خمس

مرات.

﴿لَكُمْ﴾، الله لا يناله شيء من هذا، كل هذا لكم، الله هيأ هذه النعم كلها من أجلكم.

خلق السماوات والأرض:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: انظر إلى هذه النعم، أول هذه النعم: إنه خلق السماوات والأرض، وخلق السماوات والأرض أعظم من خلق الناس، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، هذه الأجرام العظيمة: السماوات التي فوقنا، كما يقول النبي ﷺ: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»^(١)، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

هذه الأفلاك العظيمة من ملك الله، وما يتحدث عنه الفلكيون: أن بعض النجوم تأتينا أضواؤها بعد كذا وكذا مليون سنة ضوئية، وبعض النجوم لم تأتينا أضواؤها إلى الآن منذ أن خلقت!

هذا النظام الكوني والمجرات تثبت أن الله ﷻ هو الخالق العظيم، خلق الكون من الذرة إلى المجرة، من أصغر وحدة في الكون إلى أكبر وحدة في الكون، هو خالق السماوات وما فيها من أجرام عظام، ومن مجرات، وخالق الأرض وما فيها وما عليها من ممالك: ممالك الحيوانات، وممالك النباتات، وممالك الحشرات، وممالك الزواحف، وممالك الأحياء المائية، وممالك الإنسان، وممالك الجماد، كل مملكة من هذه الأملاك فيها ما لا يحصيها إلا الله ﷻ، وكل هذه الممالك في خدمة الإنسان.

(١) سبق تخريجه ص ٤٣.

نزول الماء من السماء أم من السحاب؟

﴿وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾^(١): أنزل من السماء ماءً، هو المطر، ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾، أي: من السحاب. أكثر العلماء قالوا: (من السماء)، أي من السحاب. لأنّ العرب يجعلون كل ما علاك فهو سماء، كل شيء أعلى منك فهو سماء، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَدَاكَ يُزْنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥]، إلى السقف، والسبب هو الحبل، أي: يشنق نفسه إذا لم يعجبه الحال. فكل ما علاك فهو سماء.

وبعض العلماء قالوا: المطر ينزل من السماء نفسها، ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾، والإمام الرازي ردّ على هذا القول، بأنّ هذا ليس صحيحاً؛ إنّما الماء من السحاب. قال: «لأنّ الإنسان ربّما كان واقفاً على قُلة جبل عالٍ، ويرى الغيم أسفل منه، فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرًا عليهم، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً بالبصر - وهو ما نسّميه نحن التجربة - كان النزاع فيه باطلاً»^(٢).

(١) قال العلامة الخطيب الإسكافي في قوله ﴿وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢] وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]. للسائل أن يسأل فيقول: ما الذي أوجب (لكم) في الثانية، ولم يوجبها في الأولى؟

والجواب: إن (لكم) في آخر الآية الأولى مذكورة لأنه قال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ فأغنى ذكرها هناك عن ذكرها أولاً. والآية الثانية لمّا لم يكن في آخرها ذكر أنه فعل ذلك لهم، ذكر في أولها (لكم) لأن بعدها: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وليست (لكم)، في قوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ تكفي من ذكرها في أولها؛ لأنها في معنى غير معنى: خلق لكم أصناف النعم. انتهى. انظر: درة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي (٧٧٠، ٧٦٩/٢)، نشر معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٩٧/١٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وهذا المعنى، العرب قالوه في أشعارهم قديماً، قالوا:

كالبحر يطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه^(١)

البحر يطره السحاب وما له فضل عليه؛ لأنَّ السحاب من ماء البحر حين تبخر.

إخراج الثمرات رزقاً للعباد:

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: أول موضع ذكر فيها ﴿لَّكُمْ﴾ هذه، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾، لأنه كيف يحيا الإنسان؟ كيف يعيش؟ إنه القوت - أول شيء - والقوت يأتي من أين؟ من الزرع.

الرزق يأتي من الزرع، من الأرض: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَ لَكُمْ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤].

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، ليرزقكم وليقوتكم وليمدكم بالمادة الغذائية التي تحتاجون إليها.

هل يخلق الله سبحانه بأسباب وسنن؟

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾، أي: بسبب هذا الماء؛ أي: إنَّ الله جعل في الماء قوَّة حيوية تؤثر في خروج النبات، وهذا هو القول الصحيح: أنَّ الله يخلق بالأسباب، ربنا يخلق الأشياء بأسباب - بسنن - بعض العلماء يقول: لا. أي: خلق عندها، وليس بها.

(١) من شعر هبة الله البغدادي، كما في معجم الأدباء (٢٧٧١/٦)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

الله سبحانه قال ﴿يَهْءَ﴾، ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] الباء هذه للاستعانة - يستعان بها كسبب - ولا مانع من أن يخلق الله تعالى بالأسباب، بأن يودع في الأشياء قوة، يودعها الله فيها.

القوة المودعة:

كما قالوا: إنَّ الله أودع في الماء قوَّة ليروي، وأودع في السكين قوَّة لتقطع، وأودع في النَّار قوَّة لتحرق، وهذا هو مذهب السلف.

إنكار هذا في الحقيقة - كما قال الإمام الألوسي - ضرب من الجنون، لأنَّ بعض النَّاس يقول: من أثبت شيئاً كهذا فهو للكفر أقرب منه إلى الإيمان.

علّق على ذلك المفسر الكبير الإمام الألوسي فقال: «ومعنى كون الإخراج بسببه: أنَّ الله تعالى أودع فيه قوَّة مؤثِّرة بإذنه في ذلك، حسبما جرت به حكمته الباهرة، مع غناه الذاتي سبحانه عن الاحتياج إليه في الإخراج، وهذا هو رأي السلف الذي رجع إليه الأشعري، كما حُقِّق في موضعه.

وزعم من زعم أنَّ المراد أخرج عنده، والتزموا هذا التأويل في ألوف من المواضع، وضلُّوا القائِلين بأنَّ الله تعالى أودع في بعض الأشياء قوَّة مؤثِّرة في شيءٍ ما، حتَّى قالوا: إنَّهم إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان.

وأولئك عندي أقرب إلى الجنون وسفاهة الرأي»^(١).

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (٢١١/٧)، تحقيق علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

في بعض المنظومات - قديمًا - في علم التوحيد يقول الشيخ أحمد الدردير في خريدته^(١):

وَمَنْ يَقُلْ بِالطَّبْعِ أَوْ بِالْعِلَّةِ فَذَاكَ كُفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّةِ
وَمَنْ يَقُلْ بِالْقُوَّةِ الْمُودَعَةِ فَذَاكَ بَدْعِيٌّ فَلَا تَلْتَفِتْ

الذي يقول: الأشياء تعمل بطبعها، أو بالعلة خارج الألوهية؛ هذا كفر، أما الذي يقول بالقوة المودعة، وأن الله جعل في الشيء قوة مودعة تؤثر فيه، ما المانع من هذا؟ يقال: هذا بدعي!

وهذا في الحقيقة كما قال الألوسي: ضرب من الجنون.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، أخرج من الماء النازل من السماء - أي السحاب كما قال الرازي - أخرج به من الثمرات رزقًا لكم.

تسخير السفن في البحار:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾

البحار العظيمة، نحن نعلم أن حوالي أربعة أخماس الأرض التي نعيش عليها محيطات وبحار وأنهار، هذا الكوكب أربعة أخماسه مياه، والخمس يابسة، هذه البحار سخرها الله للإنسان، كما قال في سورة النحل: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

(١) انظر: شرح الخريدة البهية للدردير ص ٦٤، ٦٥، تحقيق عبد السلام بن عبد الهادي شنار،

مطبعة جريدة الإسلام، ١٣١٥هـ.

هنا اهتم بجريان الفلك في البحر: ﴿الْمَرَّانَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان: ٣١]، كيف للبحر أن يحمل الفلك؟
لو رميت مسمارًا صغيرًا في البحر ينزل في قاع البحر، لكن البواخر
على ضخامتها تطفو على وجه الماء، كما قال ﷺ عن تلك السفن
العظيمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢].

السفن هذه كالأعلام، كالجبال، وكأن القرآن كان يتحدث عن
عصرنا، البواخر كالمدن العائمة، هذه حاملة الطائرات وحاملة آدميين.
كل هذا وهي تجري في البحر بأمر الله، بتسخير الله، بإذن الله، بمشيئة
الله، بالسنن والقوانين التي وضعها الله. لولا هذه القوانين لما استطاع
الماء أن يحمل هذا الكيان الكبير، ولكن وفق قوانين درسناها في علم
الأحياء والطبيعة - قاعدة «أرشميدس» - وبمعرفة هذه القوانين استطاعوا
أن ينشئوا هذه السفن، التي هي في البحر كالأعلام: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ
فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾: تنقل الناس، وتنقل البضائع من بلد إلى بلد
﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه ومشيئته، وهذه الظاهرة في بلاد الخليج واضحة، تأتي لنا
في أيام الشتاء فاكهة الصيف من أستراليا ومن جنوب إفريقيا وبالعكس،
كيف تأتي هذه الأشياء؟ كيف تأتي الفواكه؟ كيف تأتي اللحوم من
بلاد شتى؟ تأتي عن طريق البواخر - عن طريق الفلك - التي تجري
في البحر بما ينفع الناس؛ لأن هذه البضائع الضخمة والكثيرة
لا تحملها الطائرات، ولو حملتها الطائرات لكانت أثمانها مضاعفة،
فالتى تحملها في الحقيقة هي الفلك التي تجري في البحر بنعمة الله
ليرينا من آياته.

تسخير الأنهار:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾: المياه العذبة نوعان: نوع ينزل من السماء، وهو ماء المطر، ونوع آخر يجري في الأرض، وهو ماء الأنهار. وقد يكون ماء الأنهار من الأمطار أيضاً، ولكن يتجمّع في هذه المسارات، وهذه المجريات، فينتقل من بلد إلى بلد.

انظر مثلاً نهر النيل: ينابيعه إما في الحبشة وإما في أوغندا، منطقة البحيرات الكبرى، تأتي هذه المياه من أواسط إفريقيا، تأتي وتمر على بلاد شتى على الكونغو وعلى السودان، لتصل إلى الناس في القاهرة. مَنْ الَّذِي سَخَّرَ هذه الأنهار؟ وسيرّها من مكان إلى مكان؟!

هي تنبع في بلد وتصل إلى بلاد أخرى، الَّذِي سَخَّرَهَا هو الله، وسخر الماء العذب ليشرب منه الإنسان ويرتوي، وتشرب منه الأنعام، وتسقى منه الزروع، ويستعمله الناس في النظافة، ويستعملونه في أشياء كثيرة، فالماء هو الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وهذه المياه هي النعمة العظيمة.

في عصرنا يخوّفوننا، ويقولون: الحروب القادمة ستكون من أجل المياه، من أجل شحّ المياه، قطرة الماء هذه نعمة عظيمة، الله هو الَّذِي سَخَّرَ هذه المياه.

أنزلها من السماء وأجرى بها الأنهار.

تسخير الشمس والقمر دائبين:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾: الشمس والقمر في السماء، ونحن لا ننتفع بهما مباشرة كما ننتفع بالماء أو الفلك، نحن ننتفع بآثارهما.

الشمس، هذا النجم العظيم بحرارته العظيمة وبأشعته هو الذي يعطينا الحرارة، يعطينا الضوء، لولا ضياء الشمس، ولولا نور القمر ما قامت الحياة.

الله الذي خلق الشمس والقمر، ووضعهما في الموضع الذي ينفع ولا يضر، ويحيي ولا يميت.

تقدير الله سبحانه:

علماء الطبيعة والفيزياء والفلك يقولون: إنَّ الشمس لو كانت أكبر ممَّا هي عليه ما بقيت الحياة على الأرض! الحياة لا تحتمل أشعة أكثر من هذه، ولو كانت أقل ممَّا هي عليه لا تقوم الحياة على الأرض، لو كانت تدور بسرعة أكبر من السرعة التي تدور بها ما انتفعت الأرض بأشعتها، لو كانت تدور بسرعة أبطأ لتسلَّطت عليها أشعة الشمس فأحرقت الأحياء على الأرض، والجانب الآخر منها يموت من البرد والصقيع.

السرعة التي تدور بها الأرض حول نفسها وحول الشمس - والتي تدور بها الشمس؛ هذه السرعة، هذا الحد، هذا الكم كلُّ مقدَّر: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

لا تظن أنَّ الأمر فوضى، لا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، الماء الذي ينزل في الأرض ينزل بقدر: ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

فالشمس والقمر وضعهما الله وضعا معينا لكي يخدم الحياة على الأرض، حياة الإنسان.

لو أنَّ القمر ليس بهذا الوضع لحصل خلل في مسألة المد والجزر القمري، لو أنَّ هذا المدَّ يسري باستمرار لجعل البحر يموج ويغرق الناس. أحياناً تسمع البعض يقول: غضب الطبيعة! الطبيعة لا تغضب، الطبيعة مسيرة، عندما تقوم الأعاصير - تسونامي وغيرها - حينما تهيج البحار، الله هو الذي يسيّر هذه الأشياء بقدر من عنده: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ولذلك سخر لنا الشمس والقمر بعلمه وبمشيئته دائبين متتابعين في خدمة الحياة على هذه الأرض، وذلك من فضل الله تعالى وتقديره وحكمته وعلمه جل شأنه.

عناية القرآن بالشمس والقمر دون غيرهما من الكواكب:

السماء فيها نجوم كثيرة، وفيها كواكب شتى، ولكنَّ القرآن يعنى دائماً بالشمس والقمر لصلتهما المباشرة بالحياة على ظهر الأرض، خصوصاً حياة الإنسان.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾، لأنَّ الشمس والقمر أحسن النَّاس من قديم أنَّهما نافعان للناس، لذا عبد بعض النَّاس الشمس والقمر، كما ذكر الهدهد لسليمان عن قوم سبأ: ﴿وَجَدْتُهُمَا وَقَوْمَهُمَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]، ولكن في الحقيقة الشمس والقمر مسخران من قبل الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾، فكيف يعبد الإنسان المسخر، ولا يعبد المسخر؟! هذا من غفلة الإنسان ومن جهل الإنسان!

تسخير الليل والنهار:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: الزمن سخره الله للإنسان، كما يحتاج الإنسان إلى المكان ليعمل فيه، كذلك يحتاج إلى الزمان - الليل

والنهار - لأنَّ الإنسان لا بدَّ أن يعمل في مكان، ولا بدَّ أن يعمل في زمان، والزمان يعبر عنه بالليل والنهار؛ لأنَّ الله نوَّع الزمن جعل بعضه ليلاً وبعضه نهاراً: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۖ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣]، تسكنون في الليل، وتبتغون من فضله في النهار، ولعلكم تشكرون.

فالله هو الذي خلق الليل والنهار: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

تسخير الكون للإنسان ووجوب استفادة المؤمنين من هذا التسخير:

القرآن يؤكِّد على هذه النعم كلها بهذه العبارة: ﴿لَكُمْ﴾، ليعلم الناس أنَّ هذه الأشياء مسخرة لهم، وليعلم أهل الإيمان أنَّ هذه الأشياء مسخرة لهم، وليست مسخرة للأوربيين ولا للأمريكان وحدهم، فيسخرون الطاقات، ويكتشفون القوانين الكونية، وهم بمعزل عن هذا، كأنَّ كلمة ﴿لَكُمْ﴾، ليست لهم. لا، هذه لنا، فلذلك ينبغي أن نستفيد من الطاقات التي بثَّها الله في الكون.

ومن شكر النعم التي أنعم الله بها علينا في هذا العالم: أن نستخدمها ولا نهملها ولا ندع غيرنا يستعملونها، ونبقى نحن عالةً عليهم، نستورد

ولا نصدر، ونقلد ولا نبتكر، ونستقبل ولا نرسل، لا، ﴿لَكُمْ﴾، يجب أن نعلم أن ﴿لَكُمْ﴾، خطاب للإنسان، أول هذا الخطاب للمؤمنين من بني الإنسان، ﴿لَكُمْ﴾، هم الذين ينبغي أن يستفيدوا من هذه النعم قبل غيرهم.

إجابة السؤال بلسان المقال أو الحال:

﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: آتاكم من النعم التي تسألون الله إياها، تسألونه بلسان المقال أو تسألونه بلسان الحال، ليس من الضروري أن تطلبوها بالسنتكم، ولكن حاجاتكم إليها هي كأنما سألتكم الله، فيعطيكُم الله من غير ما تسألوه بالسنتكم، يعطيكم من النعم ما لا تطلبونه بمقالكم ولكن تطلبونه بحالكم، الله يعطي بغير سؤال وبغير حساب: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

كثرة النعم:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾: نعم الله نعم مادية، ونعم معنوية، ونعم روحية، ونعم أخلاقية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، بحيث لو حاولتم أن تعدوها لا يمكن إحصائها، لا تطيقون حصرها، تغز عن الإحصاء.

والإحصاء: الضبط بالعدد. كان العرب يحصوا بالحصى - يعدوا بالحصى - فسمي الإحصاء بهذا.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، يعز عليكم، ويثقل عليكم، وتعجزون عن إحصائها؛ لأنها ليست نعمة ولا عشرة ولا مائة ولا ألفاً ولا ألفين ولا مليوناً.. نعم لا تعد ولا تحصى، وكل نعمة فيها آلاف النعم.



لا تقل: نعمة ماذا؟ هناك نعمة الصحة، نعمة العقل، نعمة المال، نعمة الأولاد، نعمة العلم، نعمة الذكاء.. كل النعم، نعم عظيمة جدًا، وإن كان الإنسان لا يعرف قيمتها.

بعض الناس يشتكي من الفقر، وأنه ليس عنده شيء، وكأنما يسخط على الله سبحانه، وعلى القدر، فقال له بعض العلماء: تعال، أنت تقول: ليس عندك شيء؟ قال: نعم، لا أملك شيئًا.

قال: أتود أن تؤخذ عينك وتعطى مائة ألف؟ قال: لا. مائتا ألف؟ قال: لا. خمسمائة ألف؟ قال: لا. ألف ألف؟ قال: لا. لو أخذت عينك الاثنتان؟ إذن نأخذ سمعك بكم؟ مائة ألف، مائتي ألف.. فقعد يقول: السمع، البصر، والحواس الخمس، واليد والرجل... قال: أنت إذن عندك كنوز من النعم بآلاف الآلاف، وأنت لا تدري!

معرفة النعمة عند فقدانها:

كل واحد عنده من النعم التي لا يحسُّها، متى يعرفها؟ إذا فقدها، يعرف النعمة عندما يفقدُها، كما يقولون: (الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى). لا يعرف قيمة الصحة إلا المريض، الصحة هذه كأنَّها تاج، يعني يتوج به الملوك، إنَّ الذي يرى هذا التاج هو المريض، الصحيح لا يعرفه.

نعمة اللقمة:

نعم الله كثيرة، لو أخذت نعمة اللقمة التي تأكلها، هذه اللقمة أولاً كيف تأكلها؟ الله أعطاك الأسنان لتمضغ هذه اللقمة، ووضع الأسنان وضعًا معينًا بحيث تساعد على المضغ، يوجد ناب وخرس وهكذا،

وبعد أن تمضغها تبلعها، يوجد المريء والحلقوم، وبعد ذلك أين تذهب؟ تذهب إلى المعدة، هذه المعدة التي كتب أحد العلماء عنها: أنها أعظم مصنع كيماوي في العالم. انظر ماذا تضع فيها؟ لحوم وبروتينات وسكريات ونشويات، وأشياء صلبة وأشياء مائعة، وخليط من هذا وهذا، هل تتفكر كيف تعمل؟ هل أنت تشغلها؟ هي تعمل وحدها، هذا المصنع الذي يعمل باستمرار يحوّل هذه الأشياء إلى عجينة، وإلى مادة أخرى. وبعد ذلك يتم تحويلها، هذا إلى الأمعاء الدقيقة، وهذا يذهب إلى الأمعاء الغليظة، وهذا يذهب إلى كذا، انظر لهذه النعمة - الجهاز الهضمي - لو تعطل هذا الجهاز كم تكون البلوى!

هذه اللقمة جاءت من رغيف ملفوف بورق السلفان، وجاء لك من المخبز، هذا المخبز الذي يخبز لك هذا الرغيف، أناس يعملون فيه، بعضهم من العرب، وبعضهم من العجم، وبعضهم جاؤوا من إفريقيا، وآخرون من آسيا، جاؤوا من بلاد الدنيا لأجل أن يعملوا لك هذه اللقمة، والفرن الذي يخبز هذا الرغيف، الله أعلم جاء من أين، أجا من أوروبا، أم جاء من اليابان، أم من كوريا؟ والدقيق - الطحين المخبوز - جاء من أين؟ من أستراليا أم أين؟ وحملته الفلك التي تجري في البحر، والناس الذين يعملون في هذا القمح، لو حسبت اللقمة هذه كم اشتغل فيها من أناس حتّى أتتك!

أناس زرعوها في الأرض، أي: إنّه لا بدّ من فلاح عمل من أجل أن يزرع الأرض بمحراث آليّ كهربائي، أو بمحراثٍ عاديّ تجره الأبقار، يعني اشتغل الناس من أنحاء مختلفة من العالم من أجل هذه اللقمة التي وصلت إليك، وأنت تأكلها فقط! آلاف مؤلفة من الناس اشتغلوا فيها حتّى وصلت إليك، وأنت تأكلها، ولم تمر تلك الحقائق في دماغك.

ذكر الإمام الغزالي أنَّ عابداً دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفاناً، فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها، فقال له العابد: مه، أي شيء تصنع، أما علمت أنَّ في الرغيف الذي رغبت عنه كذا وكذا حكمة، وعمل فيه كذا وكذا صنعة، حتَّى استدار من السحاب الذي يحمل الماء، والماء الذي يسقي الأرض، والرياح والأرض والبهائم وبني آدم حتَّى صار إليك، ثمَّ أنت بعد هذا تقلِّبه ولا ترضى به^(١).

الإمام الغزالي يضيف إلى ذلك فيقول^(٢): كم من الملائكة اشتغلوا في هذه الأشياء - الحاجات التي لا تراها، الأشياء الأخرى - الله هو الذي سخر هذا، سخر الرياح لتجري الفلك، وسخر البحار، وسخر الأنهار، وسخر الماء؛ كل هذا من أجل أن تأتيك اللقمة، حتَّى تعرف نعمة الله عليك، حينما تأكل وتشبع وتقول: الحمد لله، تحسُّ بأنَّ هذا الحمد صادر عن شعور بنعمة، بل بنعم عظيمة، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

عجز الإنسان عن الشكر:

النعم عظيمة، والنعم كثيرة، والنعم أكثر من أن تعد، وأكثر من أن تحصى، ولكنَّ الإنسان لا يقوم بشكرها، مع أنَّه كما قال بعض السلف: الله أعطى من النعم على قدره، وكلفنا من الشكر على قدرنا - على قدر حالنا - وليس على قدر النعمة. لا يقدر أحدنا أن يقوم بالشكر لله سبحانه على قدر النعمة، حتَّى ولو شكرت؛ لأنَّ هذا الشكر نعمة من الله عليك، كونه وفقَّك للشكر على النعمة هذه نعمة أخرى، ولذلك يقول الشاعر:

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٩٤/٣).

(٢) المصدر السابق نفسه.

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلله وإن طالت الآمال واتسع العمر^(١)
لا يستطيع الإنسان أن يفي شكر الله مهما طال أجله، واتسع عمره.

الإنسان ظلوم كفار:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾: يظلم نفسه، ويظلم النعمة التي
أوتيها، ويضع النعمة في غير موضعها، لا يستعملها فيما يحبه الله
سبحانه، بل يستعملها فيما يغضب الله، وفيما يؤذي الناس، هذا هو
الظلم، ظلم الإنسان لنفسه، الإنسان ظلوم وكفّار، يكفر بنعمة الله،
لا يقابل النعمة بالشكران، ولكن يقابلها بالكفران للأسف الشديد.

طبيعة الإنسان:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، هل هذا الإنسان هو الكافر؟ أو
الإنسان من حيث هو إنسان؟

بعض المفسّرين يقول: هذا الإنسان غير المؤمن، ولكنّ الراجح أنّه
الإنسان بطبيعته، لأنّ (أل) هنا للجنس، الإنسان من حيث هو إنسان، إذا
ترك لطبيعته البشريّة ظلم وكفر بالنعمة: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾
[العاديات: ٦]، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ
شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

هذه هي طبيعة الإنسان، فالذي يسمو بالإنسان، ويرقى بالإنسان،
ويزكّي نفس الإنسان هو الإيمان، فالإنسان بالتزكية يرتقي: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

(١) الفاضل للمبرد ص ٩٥.



سَوَّيْنَهَا * فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْنَهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّيْنَهَا ﴿[الشمس: ٧ - ١٠]. هذه هي النعم التي أنعم الله بها على الإنسان.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا أهلاً لشكرها، وأن يجعلنا من الذين
يشكرون نعمه فيستحقون المزيد منها، ويستحقون حفظ هذه النعمة.

* * *



الدرس الثامن

دعوات إبراهيم عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١].

هذه الآيات الكريمة من سورة إبراهيم، تتحدث عن توجه إبراهيم بهذه الدعوات الطيبات المباركات المخلصات، فسورة إبراهيم يدور محورها من أول السورة حول النعم، وموقف الناس منها بين الشكران والكفران، وخاصة نعمة النبوة والرسالة، وموقف الناس من النبوة والرسالة.

وقد ذكرنا في الدرس السابق تعجيب القرآن من الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار.

وعما ذكره الله سبحانه من مظاهر نعمه في كونه، من خلق السماوات والأرض، وإخراج الثمرات رزقاً للناس، وإنزال الماء من السماء، وتسخير الليل والنهار، إلى أن قال سبحانه: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إبراهيم النموذج الشاكر لله تعالى:

ثم ذكر بعد هذا الشوط شوطاً آخر من الآيات الكريمة عن إبراهيم خليل الرحمن، أبي الأنبياء وأبي المسلمين ﷺ، باعتباره يمثل النموذج الشاكر لله تعالى من بني الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

إبراهيم ﷺ، يمثل العبد الشاكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَّهُ وَهَدَنَّهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

شاكراً لأنعم الله ﷻ، فمن صفات إبراهيم التي يتحلّى بها، والتي يتميز بها: الشكر لله ﷻ، يشكر نعم الله، ويعرف نعم الله، حتّى في البلايا التي تنزل به يرى فيها نعم الله ﷻ عليه.

إبراهيم هذا الشكار الذكار لله ﷻ، تحدّثنا عنه هذه الآيات الكريمة التي من أجلها سُميت هذه السورة باسمه.

دعاء إبراهيم ﷺ :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾: هذا تعبير منتشر وشائع في القرآن الكريم: (إِذْ)

يعني: اذكر إذ قال إبراهيم، اذكر يا محمد قصّة هذا النبي العظيم، فأحياناً كلمة (اذكر) تذكر في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]. ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١] وأحياناً تذكر (إذ) بمعنى: اذكر.

﴿وَإِذْ قَالَ: أَي: واذكر حين قال، اذكر لقومك ما قاله إبراهيم ﷺ، ففيه عظة وعبرة.

عناية القرآن بأدعية الأنبياء ﷺ:

والقرآن يحتفي بأدعية الأنبياء لله ﷻ، فأدعية الأنبياء تمثل ضراعات وابتهالات إلى الله ﷻ من قلوب مخلصة، وألسنة صادقة، وبعبارات قوية مؤثرة.

هنالك من دعا الله حين أصابه الضر، مثل أيوب ﷺ: ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ومنهم من دعا في بطن الحوت في الظلمات - ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت - مثل يونس ﷺ: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وهنا إبراهيم خليل الرحمن ﷺ دعا بتسع دعوات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾

المطلب الأول: الأمن للبلد الحرام

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا﴾:

الدعوة الأولى: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾: إشارة إلى مكة، شرفها الله، ﴿أَمْنًا﴾، وفي سورة البقرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا أَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

السفر في التعريف في سورة إبراهيم والتنكير في سورة البقرة:

هنا - في سورة إبراهيم - قال: ﴿الْبَلَدَ﴾. بصيغة التعريف، فالبلد قائم ومعروف: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا﴾، هناك - في سورة البقرة - ﴿بَلَدًا﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ لأنه لم يقم بعد، فاجعل هذا المكان بلدًا آمنًا، فيطلب له البلدية والأمن. هنا - في سورة إبراهيم - البلدية موجودة، يطلب له الأمن؛ لأنَّ الأمن من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان^(١).

(١) قال العلامة الخطيب الإسكافي: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا أَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]. للسائل أن يسأل فيقول: لم كان في سورة البقرة بلدًا نكرة، وفي سورة إبراهيم معرفة؟ والجواب عن ذلك من وجهين: أحدهما: أن يقال: إن الدعوة الأولى وقعت، ولم يكن المكان قد جعل بلدًا، فكأنه قال: رب اجعل هذا الوادي بلدًا آمنًا، لأن الله تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] بعد قوله: (اجعل هذا الوادي بلدًا آمنًا)، ووجه الكلام فيه: تنكير بلد الذي هو مفعول ثانٍ، وهذا مفعول أول. والدعوة الثانية وقعت، وقد جعل الوادي بلدًا، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصّرت كما سألت ذا أمنٍ على مَنْ أوى إليه ولاذ به فيكون البلد على هذا عطف بيان على مذهب سيئويه، وصفة على مذهب أبي العباس المبرد، و(آمنًا) مفعولًا ثانيًا، فعرف حيث عرف بالبلدية، ونكر حيث كان مكانًا من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس.

والجواب الثاني: أن تكون الدعوتان واقعتين بعد ما صار المكان بلدًا، وإنما طلب من الله تعالى أن يجعله آمنًا، وللقائل أن يقول: اجعل ولدك هذا ولدًا أديبًا، وهو ليس يأمره بأن يجعله ولدًا، لأن ذلك ليس إليه، وإنما أمره بتأديبه، فكأنه قال: اجعله على هذه الصفة، وهذا =

الآمن من أعظم نعم الله على الإنسان:

سئل أحد الحكماء: ما السعادة؟ قال: السعادة هي الأمن، فإني رأيت الخائف لا سعادة له.

قد يكون الإنسان معه المال والولد والقصور والخدم والحشم، ولكنه يعيش في رعب، هذا ليس سعيداً، الأمن هو السعيد، ولذلك امتنَّ الله على قريش، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤]، أطعمهم حامياً لهم من جوع، وآمنهم حامياً لهم من خوف.

= كما يقول: كن رجلاً موصوفاً بالسخاء، وليس يأمره بأن يكون رجلاً، وإنما يأمره بما يجعله وصفاً له من السخاء، فذكر الموصوف وأتبعه الصفة، وهذا كما تقول: كان اليوم حاراً، فتجعل يوماً خبر كان، وحاراً صفة له، ولم تقصد أن تخبر عن اليوم بأنه كان يوماً؛ لأنه يصير خبراً غير مفيد، وإنما القصد أن تخبر عن حرِّ اليوم، فكان الأصل أن تقول: كان اليوم حاراً، وأعدت لفظ يوم لتجمع بين الصفة والموصوف، فكأنك قلت: كان هذا اليوم من الأيام الحارة، وكذلك تقول: كانت الليلة ليلة باردة، فتنبص ليلة على أنها خبر كان، وحكم الخبر أن يتم به الكلام، ولو قلت: كانت الليلة ليلة لم يكن الكلام تاماً، لأن القصد إلى الصفة دون الموصوف. فكذا قولته تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، يجوز أن يكون المراد: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، فيدعو له بالأمن بعد ما قد صار بلداً على ما مثلت، ويكون مثل قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله تعالى عنها في الموضعين. انظر: درة التنزيل للإسكافي (٢٧٢/١ - ٢٧٦).

وهناك جواب ثالث وهو: أنه تقدم في سورة البقرة ذكر البيت في قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد؛ لأن ذكر البيت يقتضي بالملازمة ذكر البلد الذي هو منه، فلم يحتج إلى تعريف، بخلاف آية سورة إبراهيم، فإنها لم يتقدم قبلها ما يقتضي ذكر البلد ولا المعرفة به، فذكره بلام التعريف. وإلى هذا ذهب ابن الزبير في ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٥٠/١)، تحقيق عبد الغني محمد علي الفاسي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

الجنة دار أمان، ولذلك يقول: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

ولمّا جاء يعقوب وأولاده إلى مصر، آوى نبيُّ الله يوسف أبويه، وقال لهم: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

الأمن هنا شيء مهم جدًّا، ولذلك سأل إبراهيم ربه الأمن للبلد الحرام: ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، وقد جعل الله مكة بلدًا آمنًا، يأمن فيه الإنسان، ويأمن فيه الوحش، ويأمن فيه الطير أن يصاد، حتّى الحشائش والخضراوات والأشجار لا تمسّ في هذا البلد الحرام، من لقي في هذا الحرم قاتل أبيه لا يمسه بسوء، كان العرب في الجاهليّة يقتل بعضهم بعضًا، فإذا تلاقوا في المسجد الحرام أمن بعضهم بعضًا، فهو كما قال الله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

سأل إبراهيم ربه لهذا البلد: الأمن؛ لأنّ الأمن من أهداف الحياة الطيبة، ولا يمكن للناس أن تستقيم لهم الحياة إلّا بالأمن.

هنا تقوم وزارات للأمن، وإدارات للأمن؛ لمنع عدوان الناس بعضهم على بعض، حتّى لا يحدث الخوف.

الحدود الشرعية توفر الأمن للناس:

الشرع جعل في السرقة الحد، قطع اليد: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. ولم يجعل في الغصب حدًّا كالسرقة؛ يعني لو أنّ شخصًا نهب شخصًا وأخذ ماله، هذا ليس فيه حد؛ لماذا؟



لأنَّ السارق يهدّد الأمن، يسرق النَّاس وهم في نومهم، وهم في بيوتهم، فيصبح النَّاس خائفين في البيوت أن يدخل عليهم أحد، أما النهب والسلب فهو علني لا يخيف، فالأمن شيء مهمّ جدًّا، ولأجل ذلك شرعت الحدود، مثل حد السرقة وحد الحرابة، حد قطع الطريق، وما فيه من العقوبات الشديدة لتوفير الأمن للناس.

* * *



المطلب الثاني: حمايته وأبنائه من عبادة الأصنام

﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]: هذا هو المطلب الثاني لإبراهيم، طلب مطلباً للبلد (الأمن)، وطلب لنفسه وبنيه التوحيد - أن يرزقهم الله التوحيد - ويحميهم من عبادة الأصنام هو وبنيه، طلب لنفسه ولبنيه: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

إبراهيم عليه السلام نبي وهو مع ذلك يخاف على نفسه عبادة الأصنام؟! لكن هذا الدعاء تضرع لله وعجل، فيه هضم النفس، فيه شعور بالافتقار إلى الله وعجل، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة»^(١). وهذا حديث صحيح، وهناك حديث ضعيف «الدعاء مخُّ العبادة»^(٢)؛ لأن حقيقة العبادة، وروح العبادة ليست هي الطقوس والحركات، روح العبادة: الشعور بالافتقار إلى الله، والتوجه إليه بقلب خالص، شاعر بأنه لا يستغني عن الله، هذا هو الأساس، وهذا يتمثل في الدعاء، ولذلك يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، أبعدني عن هذا الخطر.

خطر الشرك على البشرية:

لأنَّ أخطر شيء على البشرية الشرك بالله وعجل، لم يكن الإلحاد - الجحود بالله وعجل - والكفران بالله وبوجود الله لم يكن مشكلة البشرية

(١) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الوتر (١٤٨١)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩) وقال: حديث صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٢٩)، عن النعمان بن بشير.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٣٧١) وقال: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. والطبراني في الأوسط (٣١٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٠٠٣)، عن أنس.

في تاريخها؛ لأنَّ الملاحظة طوال التاريخ قلة لا وزن لهم، عدد قليل الذين ينكرون وجود الله، إنَّما الذي مثَّل الخطر في تاريخ البشرية هو الشرك.

وُجدت في التاريخ مدن - كما قال المؤرخون - بلا حصون، ووُجدت مدن بلا مدارس، ووُجدت مدن بلا قصور، ولكن لم توجد في التاريخ أبدًا مدن بلا معابد^(١). كل المدن في الشرق وفي الغرب، في الشمال وفي الجنوب وجدت فيها المعابد، ولكن المهم: من يُعبد في هذه المعابد؟

كثيرًا ما عُبدَ غير الله، عُبدَت الشمس والقمر، وعُبدَت الكواكب والنجوم، وعُبدَت العجول والأبقار، وعُبدَت الجن والبشر، وعُبدَ الوثن والحجر، عُبدَ النَّاسُ أشياء كثيرة من دون الله ﷻ، اتخذوها آلهة من دون الله، أو آلهة مع الله ﷻ.

ولذلك حين بعث الله الرسل، بعثهم لمحاربة الشرك لا لمحاربة الإلحاد، لم يبعث الأنبياء ليقيموا الدليل على وجود الله، لأنَّ هذه فطرة؛ إنَّما بعثوا ليقيموا الدليل على توحيد الله، وليقاوموا الشرك بالله ﷻ، ولذلك وجدنا النداء الأول في كل رسالة: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فكل نبيِّ دعا قومه أن يعبدوا الله، ولا يعبدوا أحدًا غير الله ﷻ، ولذلك حرص إبراهيم أن يدعوه ربه أن يجنِّبه، وأن يجنِّب بنيهِ - سواء كانوا بنيهِ من صلبه أو من غير صلبه - أن يعبدوا الأصنام، هذا ما توجَّه به إبراهيم ﷺ إلى ربه ﷻ.

(١) انظر: الله والإنسان ص ١١٦، نشر دار الجمهورية، القاهرة، سلسلة كتب للجميع، العدد (١١٣).



كثرة الأصنام المعبودة من دون الله:

وبعض المفسرين يقول: الأصنام هنا أيضًا ليس المراد منها الحجارة المعبودة من دون الله، هناك أصنام أخرى، لعل إبراهيم حينما قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، أراد أن يجنبه الله إياها مثل: عبادة الدينار، وعبادة الدرهم، وعبادة هذه الأشياء كما جاء في الحديث: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقُطَيْفَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(١). أي: إذا أصابته شوكة فلا أخرجت منه بالمنقاش، فهذه أصنام يعبدها الناس، لذلك قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾. فالأنبياء ﷺ يطلبون أن يجنبهم الله عبادة الأصنام، لذلك استعاذ النبي ﷺ من الشرك: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ»^(٢)، أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق وسوء الأخلاق.

* * *

- (١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦)، عن أبي هريرة.
- (٢) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وابن أبي شيبة في التعوذ من الشرك (٣٠١٦٣)، والطبراني في الأوسط (٣٤٧٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٦٠): رواه أحمد والطبراني، ورواه إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان، ولم أر أحدًا جرّحه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٧٤): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان. وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦)، عن أبي موسى الأشعري.

المطلب الثالث: التحذير من الأصنام

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ إِنَّهِنَّ: هذا الضمير راجع إلى الأصنام، فهذه الأصنام أضلّت كثيراً من الناس.

الأصنام سبب في إضلال الناس:

وهل هذه الأصنام - وهي جمادات - يمكن أن تضل؟! والجواب: أنّها كانت سبباً في إضلال الناس. حينما تقول: الدنيا أغوتهم وغرتهم، كيف تغر الدنيا وتضحك على الناس؟ المقصود أنّها كانت سبباً في ذلك، فنسب إليها ما ينسب إلى العقلاء.

﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾، كما رأينا هذه الأصنام أضلّت العرب فعبدوها مع الله، أو عبدوها من دون الله، وقالوا: ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

ضلال البشرية بعبادة الأوثان:

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾، للأسف الملايين، بل البلايين من البشر ضلوا بعبادة الأوثان، الوثنيات الكبرى إلى الآن في العالم أضلّت العالم، هناك بلاد بالملايين تعبد الأوثان: البوذية والهندوسية، وأديان في آسيا، في اليابان وغيرها، وفي إفريقيا، وثنيات كبرى أضلّت مليارات من البشر، فلا عجب أن يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾، لا تقل: هذا كان في زمن الجاهليّات، وقبل أن يتقدّم الإنسان، وقبل أن يملك العلم والتكنولوجيا، وقبل الثورات

العلمية، والثورة المعلوماتية، والثورة التكنولوجية، وصعود الإنسان إلى القمر. إلى الآن، وقد وصل الإنسان إلى ما وصل إليه، لا زالت الوثنيات موجودة، نرى الناس إلى الآن يقدّسون الأحجار، نراهم يقدّسون الأبقار، فلا عجب أن يقول إبراهيم: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

أتباع إبراهيم:

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: مَنْ تبعني، وقبل رسالتي، وصدّق بنبوتي، وعمل بما جئت به من عند الله، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: واحد من أمتي ينسب إليّ كأنه مني، هو مني وأنا منه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

المراد بالمعصية:

﴿وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ﴿وَمَن عَصَانِي﴾، هل هو من عبد الأصنام؟ أم من عصاني بارتكاب الكبائر؟ أم من عصاني بمعصية الله وعبادته غير شرك؟!

النصّ عامٌ ومجمل ليس فيه تفصيل، هو قال: ﴿وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أنت أهل لأن تغفر وأن ترحم.

هل يغفر الشرك؟ الله تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إشفاق إبراهيم على عباد الله:

ولا يقال: إنّ هذا كان في ديننا وليس في دين إبراهيم، ولكن الواقع أنّ هذا من سيدنا إبراهيم هو نوع من القلب الحنون - القلب المشفق على عباد الله - قال: يا رب أنا أترك الأمر لمغفرتك ورحمتك، تتوب

عليه، تهديه بعد ذلك، تطيل عمره حتى تتيح له فرصة للهداية، أنت صاحب المغفرة والرحمة.

وهذا يشبه ما قاله سيدنا عيسى عليه السلام، حينما قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

أنا لا أتدخل في شأن بينك وبين خلقك وبين عبادك: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، تتصرف فيهم، صاحب الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء، ﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. هنا لم يقل: «إنك أنت الغفور الرحيم»؛ لأنك إذا غفرت أو رحمت فلا تفعل ذلك عن ضعف، ولكن تفعل ذلك عن عزة وعن قوة، وتفعل ذلك عن حكمة لا عن سفه، حكمة تضع الشيء في موضعه: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.



المطلب الرابع: إقامة الصلاة

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: القرآن دائماً يأتي بصيغة الدعاء إما بـ(رب)، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، أو (ربنا)، ومعظم أدعية القرآن: (ربنا)؛ لأنه يدعو بصيغة الجماعة.

الإنسان حينما يدعو بصيغة الجماعة، يحشر نفسه في زمرة الداعين، وفي زمرة المؤمنين، لو أنَّ عنده مانعاً من إجابة الدعاء، إذا أدخل نفسه في المؤمنين فلعل الله يستجيب له ببركتهم، ولذلك شاع في القرآن صيغة: (ربنا).

﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]... إلى آخر ما في القرآن من صيغ الدعاء (ربنا)؛ لأنَّ كلمة الرب تعني: السيادة، وتعني الملك، وتعني الرعاية والترقية في مدارج الكمال، كأنه يقول: يا سيدنا، يا مالكننا، يا راعيننا، يا مربيننا، يا مرقيننا في مدارج الكمال.

كلمة (ربنا)، تعني: أنك لست غريباً عنَّا، أنت الذي تشملنا بعنايتك ورعايتك، وتغمرنا بإحسانك من قروننا إلى أقدامنا.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: سيدنا إبراهيم عليه السلام على هذه السنة بدأ بقوله: (رب)، ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي

بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴿١٠﴾، يعني: أسكنت بعض ذريتي، مثل: إسماعيل وأمه، كما جاءت الروايات: أَنَّ الذرية الَّتِي أَسْكَنَهَا عِنْدَ بَيْتِهِ الْمَحْرَمِ كَانَتْ تَتَمَثَّلُ فِي إِسْمَاعِيلَ ابْنِهِ الْبَكْرِ، وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ هَاجِرَ الْمِصْرِيَّةِ، الَّتِي وَهَبَهَا لِمَلِكِ مِصْرَ لَهُ، أَوْ لَزَوْجَتِهِ سَارَةَ، وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا تَنْجِبَ سَارَةَ، وَأَنْ تَنْجِبَ الْأُمَّةَ - الْجَارِيَّةَ - وَأَنْجَبَتْ إِسْمَاعِيلَ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ، اتَّقَدَّ قَلْبُ سَارَةَ حَرَارَةً وَاشْتَدَّتْ غَيْرَتُهَا. قَالَتْ: لَا أُرِيدُ أَنْ يَبْقَى هَؤُلَاءِ مَعِي، أَبْعَدُهُمْ عَنِّي. فَأَخَذَهُمَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَحَلَ بِهِمَا إِلَى مَكَّةَ، عِنْدَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.

مكة وادٍ غير ذي زرع:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴿١١﴾﴾: الوادي لا زرع فيه، ليس فيه شجرة، وطبعًا الَّذِي يَذْهَبُ مَكَّةَ الْآنَ يَجِدُ فِيهَا الْأَلْفَ مِنَ الْأَشْجَارِ، إِنَّمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَجَرَةٌ، لِأَنَّهُ وَادٍ مِنَ الْجِبَالِ - أَحْجَارٌ - لَيْسَ فِيهَا مَجَالٌ لِلزَّرْعِ.

البيت المحرم:

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴿١٢﴾﴾: أسكنت بعض ذريتي بجوار هذا البيت المحرم والمعظم، البيت العظيم الحرم، الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ مَهْيَبًا، يَهَابَهُ حَتَّى الْجَبَارُونَ، مَمْنُوعًا مِمَّنْ يَرِيدُ بِهِ شَرًّا.

إقامة الصلاة شريعة الأنبياء:

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴿١٣﴾﴾: أسكنت بعض ذريتي ليكونوا بجوار هذا البيت؛ ليقوموا الصلاة، ليقوموا بعبادتك عند بيتك المحرم، وأعظم عبادة يتقرب بها عبادك إليك هي إقامة الصلاة، الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ فِي كُلِّ دِينٍ، شَعِيرَةٌ فِي كُلِّ مِلَّةٍ مِنَ الْمِلَلِ، فَهِيَ نَرَاهَا فِي كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ونراها أيضًا في شريعة موسى ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

والمسيح ﷺ حينما نطق في المهد صبيًا: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

ولقمان يوصي ابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان: ١٧]. فالصلاة موجودة في كل الأديان.

والله تعالى يقول عن أهل الكتاب: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥]، فالصلاة شعيرة في كل دين، فلهذا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ليقوموا بهذه الشعيرة.

دلالة قوله سبحانه: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾:

قال: ﴿لِيُقِيمُوا﴾، لم يقل: يؤدوا الصلاة، أو يفعلوا الصلاة، لا بل ليقيموها، ليؤدوها قائمة على أصولها، بأركانها وسجودها وركوعها وآدابها وخشوعها.



المطلب الخامس: مهوى الأفئدة

﴿فَجَعَلَ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: دعا الله سبحانه أن يحرك قلوب طوائف من البشر، فتهوي وتسرع إلى هذا المكان القفر، إلى هذا الوادي غير ذي الزرع، واستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام، وتحركت أفئدة الناس وقلوب الناس شوقاً إلى هذا المكان، من عهد إبراهيم وإلى يومنا هذا، تتحرك القلوب إلى هذا المكان، وتشتاق إليه؛ لتؤنس أهله، وتهيئ لهم أسباب الخير.

يقول عبد الله بن عباس - ترجمان القرآن - رضي الله عنه: قال: ﴿أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾، ولم يقل: أفئدة الناس؛ لأنه لو قال: (أفئدة الناس) لازدحم عليه فارس والروم، والناس كلهم^(١). ولو حدث ذلك لهلكوا من الزحام.

لو أتى كل البشر إلى هذا المكان، لا يمكن أن يتسع لهم، إنما قال: ﴿أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾، وأفئدة من الناس، التي تجعل اثنين مليون يصلون في الحرم في ليلة سبعة وعشرين من رمضان، وحوالي ثلاثة ملايين يحجون إلى هذا البيت أيام موسم الحج العظيم، فهؤلاء أفئدة من الناس.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٦/١٧).

المطلب السادس: الرزق من الثمرات

﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: ارزقهم من الثمرات: من الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها وخيراتها، وارزقهم من الثمرات: بأن تسخر لهم من عبادك من يجلبها إليهم من كل ناحية. ممّا تأتي به التجارات من البلاد البعيدة، ومما تأتي به القرى القريبة منهم أيضًا؛ كل هذا كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

تحقيق الحياة الطيبة:

هذا كله من استجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهنا تكاملت الطيبات التي يحتاج إليها الناس؛ لينعموا في حياتهم الدنيا بعيش رغد.

العيش الطيب والحياة الطيبة تحتاج إلى أمرين: الأمن، وهو الذي دعا به إبراهيم أولاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

والشيء الآخر: الرخاء، الكفاية: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، لا بدّ للمرء أن يأكل ويأمن.

سيدنا إبراهيم قدّم الأمن في هذا المقام لحاجة الناس إليه في مثل هذه البلاد القفرة والصحاري.

فالناس تحتاج إلى الأمن أولاً، ثمّ دعا بالثمرات، كما قال في سورة البقرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، أي: ارزق المؤمنين.

قال ربنا معقبًا على سيدنا إبراهيم: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] ليس الأمن والرزق من الثمرات مقتصرًا على من آمن بالله واليوم الآخر فقط، بل ومن كفر سأمته قليلًا، ثم مأواه إلى جهنم وبئس المصير.

شكر المؤمنين:

﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، هذه ميزة المؤمن على الكافر، أن الله تعالى يرزقه من الثمرات؛ ليكون على رجاء الشكر لله، إنه حينما يرى نعمة الله تعالى عليه يشكر ربه، يشكر صاحب النعمة، يعترف له بالفضل، ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ويحمده بلسانه، يقول: الحمد لله، ويستخدم نعمه في طاعته. هذا هو الشكر ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ رجاء أن يقوموا بواجب شكر حتى يستحقوا المحافظة على النعمة فتبقى ولا تزول، وحتى يستحقوا الزيادة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثناء إبراهيم عليه السلام على الله عز وجل:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾: هنا قال: ﴿رَبَّنَا﴾، لكنه لم يدع بدعاء، لم يطلب شيئًا، إنما كان يريد الثناء على الله عز وجل، أن يحمد الله تعالى بما هو أهله، أن يقول: يا رب، نحن إذا دعوناك أو لم ندعك فأنت تعلم ما في قلوبنا، ويمكن أن تعطينا من غير سؤال، وعلمك بحالنا يغني عن سؤالنا.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، ما أسررناه في أنفسنا تعلمه، وما أعلنناه بألسنتنا تعلمه، ولا يخفى عليك شيء، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ﴾

﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾
[غافر: ١٩].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، لا نستطيع أن نخبئ عنك شيئاً؛
لأن ما نخبئه في صدورنا فأنت تعلم به، تعلم ما في السرائر، وما تخفي
الصدور.

﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، هل هذا من
كلام إبراهيم؟ أم هذا تعقيب من الله ﷻ على كلام إبراهيم، تصديقاً له،
ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، بعد حكاية قول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ
الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]؟
الأميرين، وأنا أرجح أنه من كلام إبراهيم ﷺ نفسه.

وضع المظهر في موضع المضمرة:

﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، لم يقل: «وما يخفى عليك»؛ لأن وضع
المظهر في موضع المضمرة؛ ليتبرك بذكر لفظ الجلالة، ويستحضر
هذا اللفظ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾
مطلقاً ولو كان صغيراً ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، كما قال تعالى في
سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾
[آل عمران: ٥].

لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية: ﴿وَأَسِرُّوا
قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

يعلم بما تخبئه الصدور والضمائر: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]، أخفى
من السر.

نعمة الذرية الصالحة:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾: بعد أن نادى إبراهيم ربه بهذا النداء: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾، جمع إلى ذلك الحمد لله وَعَلَى.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾، كلاهما وهبهما الله إبراهيم على الكبر، في الشيخوخة.

لم يذكر القرآن كم كان سنه، ولكن جاءت الروايات والإسرائيليات أنَّ عمره حينما رُزق بإسماعيل تسعة وتسعين عامًا، وحينما رُزق بإسحاق كان مائة واثنتي عشرة سنة، أي بعد ثلاثة عشرة سنة رُزق بإسحاق^(١)، حينما بلغ إسماعيل معه السعي، وبعد حادثة الذبح: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢].

فوهبه الله سبحانه على الكبر إسماعيل وإسحاق، وهبه أولاً إسماعيل، ثمَّ كافأه على التسليم بأمر الذبح، حينما رأى في المنام أنه يذبح ابنه، وقال له: ﴿ يَبْنِيْٓ إِنِّيْٓ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّيْٓ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَأَبَّعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْٓ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ * ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٢، ١٠٣]، أسلم الوالد ولده، وأسلم الولد عنقه لله، وصرعه على جبينه، وأمسك السكين ليذبحه؛ فجاءه الفرج من السماء: ﴿ يَتَابَرَهُمَا ﴾ * ﴿ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبِّيَّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ * ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ * ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١٠٧]، ثمَّ قال سبحانه: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١١٢].

(١) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس (٣٥٧/٤)، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين، نشر

دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

فبشر بإسماعيل أولاً بعد هجرته إلى الله حينما قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠١].

الغلام الحليم والغلام العليم:

سَمَّى الله إسماعيل بالغلام الحليم، حيث ظهر حلمه حينما قال: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أما إسحاق فقال عنه: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِعُلْمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، فهذا تميز بالعلم، وهذا تميز بالحلم، كلُّ منهما له فضيلته.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾: حينما دعا إبراهيم وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وهب الله له إسماعيل، ولعل له دعوة لم يذكرها القرآن، فوهب له إسحاق ﷺ.

مجيب الدعاء:

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: هو الذي يسمع الدعاء، أي: يقبله ويستجيبه، ليس فقط يسمعه يعني يصل إلى سمعه، كما نقول: سمع الله لمن حمده. أي: استجاب الله ذكر من حمده. كما نقول: سمع كلامه، قال له كذا فسمع كلامه، أي: نفذ ما طلبه منه، أو ما اقترحه عليه. ف ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، يعني مجيب الدعاء، هو الذي يجيب دعاء من دعاه، خصوصاً دعاء المخلصين المضطرين: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

المطلب السابع: إقامة الصلاة

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: دعا ربه أن يجنّبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وهنا ارتقى درجة أخرى، لا يكتفي بأن يبعدهم عن الأصنام، وأن يحميهم من عبادة الأصنام، ولكن يريد شيئاً إيجابياً أكثر، أن يدخل في الطاعات، ورأس الطاعات هي الصلاة - هي العمود - عمود الإسلام.

سِرُّ التعبير بـ(من) في قوله: (ومن ذريتي):

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، لم يقل: (وذريتي)، أو (كل ذريتي)؛ لأنه يعلم أن من ذريته مشركين وكفاراً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ليس كل ذريته، ومن ذريته قريش ومشركو مكة ومشركو العرب، الذين عبدوا الأصنام، والذين قاوموا الدعوة المحمدية، ولذلك قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

حرص المؤمن على صلاح الذرية:

ومن شأن الإنسان المؤمن أن يحرص على ذريته، لا يكتفي بالدعاء لنفسه، يدعو لنفسه ولذريته، أن يكونوا من أهل الخير، ومن أهل الصلاح، مهما كان الإنسان أنانياً فإنه يدعو لأبنائه وبناته وذريته من بعده.

إنَّ الإنسان يحبُّ أن يكون أحسن النَّاسِ، وأفضل النَّاسِ، إلَّا مع أولاده، يحب أن يكون أولاده أفضل منه. أحياناً يأتي بعض الإخوة

فيقول: هذا ابني سلّم عليه. فأقول: بارك الله فيك، وجعلك خيرًا من أبيك. فيبتسم الوالد ويقول: أرجو الله أن يجعله خيرًا مني.

لكن لا يحب أحدًا أن يكون خيرًا منه سوى أولاده، ولذلك الإنسان لا بدّ أن يحرص على ذريته، والقرآن الكريم يقول عن دعاء الإنسان الصالح: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. والإنسان الصالح يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، أي: اجعل الصلاح ساريًا في ذريتي، فالإنسان يطلب الخير لنفسه، ويطلب الخير لذريته، ولذلك سنّ لنا سيدنا إبراهيم عليه السلام هذه السُنّة حينما دعا: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ لأنّ الذرية الصالحة تنفع أهلها، تنفع آباءها في الدنيا وفي الآخرة، حتّى بعد الممات ممّا ينفع الإنسان بعد موته: الولد الصالح يدعو له، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١). فهو ينفعك بعد مماتك، وينفعك في الآخرة؛ لعله أن يكون من الشافعين لك، إذا كان أصلح منك، يشفع في أهله، وأحقّ النَّاس بشفاعته أبواه.

(١) رواه مسلم في الهبات (١٦٣١)، وأحمد (٨٨٤٤)، عن أبي هريرة.

المطلب الثامن: قبول الدعاء

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾: وأما المطلب الثامن: فهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾، هذا مطلب عام، يقول: يا رب، ما دعوتك به تقبله مني. لأنه ليس المهم هو الدعاء، ولكن المهم قبول الدعاء، قد تدعو ليل نهار، قد تدعو بعشرات الدعوات، قد تقرأ كتابًا في الدعاء وتدعو، ولا يستجاب لك، إنما المهم هو قبول الدعاء.

معنى قبول الدعاء:

ومعنى قبول الدعاء: أن يرزقك الله من صفاء القلب، ومن نقاء السريرة، ومن طيب النفس ما يزيل الحواجز بينك وبين الله، حتى إذا دعوت قلت: يا رب، يا رب. قال: لبيك عبدي وسعديك. الصلة بينك وبين الله قائمة، الباب مفتوح، والطريق ممهّد.

حين تحدث أحدًا في الهاتف والخط موصول، يردُّ عليك صاحبك. إنّما إذا كان الخط مقطوعًا، مهما حاول التوصل إليه لن يردَّ عليك، لأنّ الخط مقطوع. فإذا كان الطريق مقطوعًا بينك وبين الله، فادع ما شئت لن يستجاب لك. إذن صلّ ما بينك وبين ربك قبل كل شيء، أوصل الحبال بالله، ثم ادع الله وَعَلَيْكَ، فهذا معنى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أي: هيئ لي من الأسباب - من أسباب القبول - ما تجعل دعائي مقبولًا عندك، ولا ترد دعائي ولا تخيب رجائي.

كيف يتقبل الدعاء؟

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾، الدعاء إذا صدر من قلبٍ خالصٍ استجاب الله له، حتى دعاء المشركين - الذين يعبدون الأوثان - حينما يركبون



السفن وتجري بهم بريح طيبة ويفرحون بها، ثم يتغير الحال، ويهيج البحر، ويلعب بهم الموج، كما قال سبحانه: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، يا رب، يا رب. وهم مشركون، إنما لا يدعون هبل ولا مناة، لا اللات ولا العزى، بل يقولون: يا رب، يا رب. تركوا الشرك: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وعرف الله إخلاصهم في هذه الحالة، فاستجاب لهم، ثم نكسوا على رؤوسهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، إنما في هذه الحالة - حالة الإخلاص - حينما دعوا الله بها، استجاب الله لهم الدعاء.

ثم بعد أن أثنى على الله عز وجل، وأظهر فقره وعبوديته وشكره لله سبحانه بأن وهب له مع كبره في السن إسماعيل أولاً وإسحاق ثانياً.



المطلب التاسع: طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾: أما المطلب التاسع والأخير: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾، سأل الله لفروعه - لذريته ولبنيه - ولكنه لم ينس أصوله، فقال: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾، كما ينبغي على الإنسان ألا ينسى أولاده، ينبغي عليه أيضاً ألا ينسى آباءه وأمهاته، لذلك قال: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾.

وهكذا دعا سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

انظر دعا لنفسه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾، ابدأ أولاً بنفسك، ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾، أقرب الناس إليك، وأحق الناس أن تبرهم، ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾، لأن الذي يدخل بيتي من جيراني ومن أقاربي لهم حقوق عليّ، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾.

كذلك سيدنا إبراهيم يقول: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

يقول الإمام الشعبي: ما يسرني بنصيب من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم^(١).

يقول: لا أحب أن يكون لي الجمال الحمر - أغلى أنواع الإبل - وأحرم من نصيبي في دعوة نوح وإبراهيم، لأن نوحاً قال: ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾، فهذه تشمل المؤمنين والمؤمنات إلى

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٢٢٥٠/٧)، تحقيق أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.

يوم القيامة، يقول: ما أحب أن يكون بنصيبي من هذه الدعوة حمر النعم، وكذلك نصيبي من دعاء إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾.

استغفار إبراهيم لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله:

كيف طلب المغفرة لوالديه؛ وأبوه - كما هو ظاهر القرآن - كان مشرکاً؟!

هذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله؛ فإن القرآن يقول: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧]، وعده وأراد أن ينجز موعدته، ينجز وعده ويدعو الله له، ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

قال بعض المفسرين: أمه كانت مؤمنة، أما أبوه فكان مشرکاً، وأصر على شركه، يقول له: ﴿ يَتَّابَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ ﴿ يَتَّابَتْ إِيَّيَ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ ﴿ يَتَّابَتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ ﴿ يَتَّابَتْ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥]، لم يستجب له؛ لأن الهداية من الله ﷻ، وقد رأينا الأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح ﷺ، ورأينا الأب الكافر والابن المؤمن في قصة إبراهيم ﷺ.

دعوات جامعة:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾، جمع إبراهيم الخير لبنيه، والخير لأبويه، وهذه أفضل الدعوات التي ينبغي أن يحرص

عليها المؤمن - دعوة إبراهيم - ونحن - بحمد الله - من أكثر الناس استبشاراً بهذا الدعاء، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]، دعوات جامعة، وعلى الإنسان أن يحرص على هذه الدعوات.

احتفاء القرآن بدعوات إبراهيم:

رأينا القرآن حفيًا بدعوات إبراهيم عليه السلام، في سورة البقرة وهو يرفع القواعد: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

وفي سورة الشعراء: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ ﴿وَاعْفِرْ لِأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣ - ٨٩].

وفي سورة الممتحنة: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

عني القرآن بدعوات إبراهيم، وبدعوات الأنبياء، خصوصًا دعوات المغفرة، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

طلب الأنبياء المغفرة:

الأنبياء دعوا ربهم بأن يغفر لهم، وقد عصمهم الله من الكبائر، أو عصمهم من الكبائر والصغائر جميعًا، ومع هذا يدعون الله عز وجل ويستغفرونه.

كل الأنبياء دعوا، إبراهيم دعا ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ونوح دعا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

وداود: ﴿ فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤].

وسليمان عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥].

وهكذا رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ، بل إنَّ محمدًا كان أكثر الأنبياء استغفارًا لربه، وورد عنه من صيغ الاستغفار ما لم يرد عن نبيٍّ من الأنبياء، ومن ذلك:

«رَبِّ، اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني.

اللهم اغْفِرْ لِي خطاياي، وعمدي وجهلي وهزلي، وكلُّ ذلك عندي.

اللهم اغْفِرْ لِي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كلِّ شيء قدير»^(١).

«اللهم اغْفِرْ لِي ذنبي كله، دِقَّةً وَجِلَّةً، سرَّه وعلا نيَّته»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه مسلم (٤٨٣)، وأبو داود (٨٧٨) كلاهما في الصلاة، عن أبي هريرة.

ودعاء سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١).

كل هذا يدلنا على أنّ الإنسان في حاجة ماسة إلى أن يستغفر ربه.

إياك أن تقول: أطلب المغفرة من أي شيء؟ أنا ما أذنبت، ولم أرتكب معصية تحتاج إلى استغفار؟! فالأنبياء طلبوا من الله المغفرة، وأنت لو لم تفعل شيئاً يكفي هذه الكلمة، هذه الكلمة هي سيئة في حدّ ذاتها، هذا هو العجب، هذا هو الغرور الذي يهلك الإنسان، شعورك بأنك لم ترتكب ذنباً، هذا هو الذنب العظيم.

ينبغي أن يشعر الإنسان - مهما عمل من الصالحات - أنّه في حاجة إلى مغفرة ربه، فالمؤمن يعمل الصالحات ويقول: أخشى ألا تقبل مني: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وأما المنافق فهو يعمل السيئات ويقول: أطمع أن تغفر لي. كما قال الله تعالى عن اليهود: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فإياك أن تتشبه باليهود.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾، طلب إبراهيم من ربه عدة مطالب:

المطلب الأول: أن يجعل البلد الحرام - مكة المشرفة - آمنة، فاستجاب الله دعاءه، كما علّمنا التاريخ، وكما ينبئنا الواقع الآن.

والمطلب الثاني: أن يجنّبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام.

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦)، عن شداد بن أوس.

والمطلب الثالث: يتعلق بالموقف من الأصنام، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

والمطلب الرابع: يتعلق بذريته، الذين أسكنهم بوادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم. وقد طلب أن يقيموا الصلاة.

والمطلب الخامس: أن يحرك قلوب الناس لتهوي إليهم وتميل ميل محبة وشوق.

والمطلب السادس: أن يرزقهم من الثمرات رجاء أن يشكروه، وقد حقق الله ذلك منذ عهد هاجر وولدها إسماعيل عليه السلام، فقد جاءت الروايات الصحيحة، أن إبراهيم وضع هاجر وابنها الرضيع في هذا المكان وتركهم، وأراد أن يمشي، فقالت له هاجر: أين تذهب وتتركنا في هذا المكان، الذي لا أنيس فيه ولا زرع؟ فلم يرد عليها، تكلمت فلم يرد عليها، تكلمت فلم يرد عليها، قالت: الله أمرك بهذا؟ قال لها: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا^(١).

ما دام هذا أمراً من عند الله عز وجل، فلن يضيعنا الله، وقد هيا الله لها ماء زمزم بعد ذلك، وهيا الله لها من قبائل العرب من جاء يساكنها، وهي تعطيهم من ماء زمزم، وهم يعطونها من ألبان أغنامهم وإبلهم.. وهكذا. ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

ثم كان المطلب السابع: أن يجعله مقيماً للصلاة ومن ذريته.

وطلب المطلب الثامن: وهو قبول الدعاء.

وفي المطلب التاسع: طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين.

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٣٣٦٤)، عن ابن عباس.

الدرس التاسع

الظالمون يوم القيامة

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبَّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٥٢].

مصير الظالمين:

يأتي الشوط الأخير من هذه السورة الذي يشتمل على آيات كلها وعيد، نحن نعلم أن القرآن دائماً ينزل بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ولكن هذا الشوط من الآيات كله وعيد وتخويف؛ لأنه يتعلق

بمصابير الظالمين، ولا نجد كتابًا كالقرآن اهتم بمحاربة الظلم، ومقاومة الظالمين، والتحذير من شرهم، وما أعدَّ الله لهم من سوء العقاب في الدنيا والآخرة، لأنَّ القرآن الكريم يهتم بهذه القضية غاية الاهتمام.

من قرأ القرآن مكيه ومدنيه وجد فيه العناية بكرهية الظلم، وما ينتظر الظالمين من سوء المصير في الأولى وفي الآخرة، ولذلك تكررت كلمة (الظلم) باشتقاقاتها المختلفة: الماضي والمضارع، واسم الفعل، والفعل المبني للمعلوم والمجهول، ظلم وظلم، ويظلم، والظالمون والظالمين، عشرات بل مئات الآيات الكريمة في هذه القضية؛ لأنَّ الظلم هو أساس خراب الدين والدنيا معًا، والإسلام يحب من المسلم ألا يكون ظالمًا، وألا يكون عونًا لظالم، فلا يكفي من المسلم ألا يكون ظالمًا، بل لا يكن سندًا لظالم، وعونًا له، بل لا يركن إليه، مجرد الركون - أي الميل للظلمة - يعرضك للخطر، للنار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

عاقبة الظلم:

الظلم سبب الهلاك في الدنيا: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩].

سبب الخراب - خراب الديار والبيوت - كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

الظلم سبب كل شر، ولذلك أعلمنا القرآن: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وأنَّ الله

لا يجعل للظالمين فلاحًا: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١، ١٣٥] و[يوسف: ٢٣]، و[القصص: ٣٧]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

آيات كثيرة تحذّر من الظلم، ومن شرور الظالمين، وتعدّهم بأسوأ المصير في الدنيا وفي الآخرة.

جزاء الظالمين في الدنيا والآخرة:

ربما لم يصب الظالمين - في بعض الأحيان - في الدنيا جزاء ما ظلموا، أحياناً - بل في أغلب الأحيان - الظالم ينال جزءاً من مصيره في الدنيا قبل الآخرة، هذا الأغلب، ولكن أحياناً يترك الله الظلمة إلى الآخرة، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

يملي لهم: يمهّلهم، ولذلك شاع حتّى في لغتنا العامية أنّ الناس يقولون: (يمهل ولا يهمل). يملي لهم: يمهّلهم فترة من الزمان، ثمّ تأتي نقمة الله تعاجلهم بما لا يخطر ببالهم. وفي هذا جاء الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ»، ثمّ قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]^(١). يملي لهم، ثمّ يأخذهم أخذاً أليماً شديداً، أخذ عزيز مقتدر، هذا صنع الله وَجَلَّ، وهذا رأينا في دنيانا، رأينا كثيراً من الظالمين، يلقون مصارعهم أمامنا، وكانوا يظنون أنّهم بعيدون عن العقوبات، مطمئنون إلى أنّهم بمنجاة.

كنّا في السجن الحربي، وكان قائد السجن حينما يقول البعض:

(١) سبق تخريجه ص ١٢١.

يا رب، يا رب. يقول: هات لي ربك، وأنا أضعه في زنانه. وبعد هذا مات شرّ ميتة، ومُزّق شرّ ممزّق^(١)!

إجابة دعوة المظلوم:

أحياناً ينتقم الله ﷻ من النَّاس في هذه الحياة، يأخذ بحق المظلومين؛ لأنَّ المظلوم يدعو، والله ﷻ يستجيب له، كما جاء في الحديث: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، ويقول الربُّ: وعِزَّتِي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين»^(٢). المظلوم يستجيب الله تعالى له:

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فالظلمُ ترجع عُقْبَاهُ إِلَى النِّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يدعو عليك وعينُ الله لم تَنَمْ^(٣)

أخذ الظالمين بغتة:

كثيراً ما يعيش الظالمون في بحبوحة من النعم، ويخيّل إليهم أنَّ الأقدار نسيتهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

(١) حمزة البسيوني الذي كان مديراً للسجن الحربي في عهد عبد الناصر، وقد عُرف بفسقه وتفننه في ممارسة التعذيب ضد المعتقلين. مات ميتة شنيعة سنة ١٩٦٩م، إذ اصطدمت سيارته وهو خارج من القاهرة إلى الإسكندرية بسيارة لنقل أسياخ الحديد المخصّص للبناء، فمزّقت ضلوعه، ودخل سيخ في رقبته، وأخذ يخور كما يخور الثور المذبوح.

(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الدعوات (٣٥٩٨) وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢)، عن أبي هريرة.

(٣) ذكره بلفظ مشابه من غير نسبة: ابن الجوزي، في التبصرة، ص ٩٢، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

يقول الله تعالى في شأن هؤلاء: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أغدق عليهم من الخيرات والنعم عن يمين وشمال، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

لكل شيء إذا ما تم نقصانٌ فلا يُغْرِ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ^(١)
﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وانظر إلى كلمة: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قطع دابر الظالمين، يدلُّ على أنَّ هنالك ربًّا لهذا العالم يدبره، ولا يتركه للجبابرة والظالمين والمستبدين والمستكبرين في الأرض، يعيشون في الأرض. هنا يتدخل القدر الإلهي، فيذيقهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة.

ولكن أحياناً يتركهم الله إلى الآخرة، من أراد الله أن يشدد عذابه ويدخر له كل العذاب في الآخرة، لا يعذبه في الدنيا، من عذبه في الدنيا خفف عنه، ولكن الذي يدخر له كل العذاب في الآخرة، يتركه إلى النهاية، ويموت وهو حاكم وظالم، وهو غني عنده من الأموال ما عنده، وعنده من الخدم والحشم والقصور، وقد ظلم الناس وبغى في الأرض بغير الحق، ولكن يكون العقاب في الآخرة.

كمال العدل الإلهي:

الآخرة هي التي يتحقق فيها كمال العدل الإلهي، الدنيا قد لا يحدث فيها كل العدل، قد يظلم الظالم، ويقتل القاتل، ويسرق السارق، ويستبد

(١) مطلع قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس، انظر: نفح الطيب للمقري (٢٣٢/٦ - ٢٣٤)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

المستبد، ويعبث بأرزاق النَّاس وأموالهم وأعراضهم، ويفعل ما يفعل، ويسفك الدماء، ويظن أنَّ يد العدالة قد غفلت عنه، وأنَّ العدالة في الدنيا لم تنله، فكَذلك العدالة في الآخرة. وهيئات هيهات، الآخرة هي التي يقوم فيها العدل والقسطاس المستقيم، توفى فيها كلُّ نفسٍ ما كسبت:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

من لم ير جزاءه في الدنيا، وقد فعل الخير، ولم يلق إلا التكر والاضطهاد، وربما قتله النَّاس ظلمًا؛ سيجد جزاءه على أعماله الصالحة في الآخرة.

ومن أفسد في الأرض، فظلم وطغى وبغى على عباد الله، وأكل أموال النَّاس بالباطل، وأكل حقوق النَّاس، سيأخذ جزاءه في الآخرة، العدل الإلهي يتحقَّق في هذه الدار: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

هيهات، لا يمكن، ولذلك الظالمون ينتظروهم يوم هائل.

ومن هنا قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، لا، الله ليس بغافل عنهم، إنَّه يراقبهم، إنَّه مطلع عليهم، إنَّه يعلم سرَّهم ونجواهم، إنَّه يعلم السرَّ وأخفى، ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ [الملك: ١٣، ١٤]، إنَّه يؤخِّرهم وهو عالم بهم.

المقصود بالخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا﴾:
 ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾: الخطاب
 للنبي ﷺ، ولكن المقصود غير النبي، «إياك أعني واسمعي يا جارة». الرسول لا يظن أبداً أن الله غافل. ولكن هذا كما جاء في الآيات الأخرى:
 ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾
 [الشعراء: ٢١٣] إلخ، فالمقصود غير النبي ﷺ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، لا والله ما هو
 بغافل، إنه مطلع على كل ما يفعلون، وفي الآية تهديد للمشركين،
 وتسلية للمؤمنين.

حال الظالمين في الآخرة:

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٣﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

وقد وصف الله حال الظالمين في ذلك اليوم، فذكر أنها خمسة
 أحوال، كل حال تنبئ عن شدة ما يلقونه من هول وفزع.

الحال الأولى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، إنه
 يوم القيامة، يوم تشخص فيه الأبصار، العيون مفتحة تنظر أمامها،
 متجمدة، متسعة الأحداق، كأنها لا ترى.

والحال الثانية: ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ
 الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ﴿٤٤﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

[القمر: ٧، ٨].

والحال الثالثة: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: هل مقنعي: خافضي رؤوسهم، أو رافعي رؤوسهم؟!

اختلف المفسرون، وعلى كل حال فهم لا يستطيعون أن يتحركوا لا يمنة ولا يسرة، إن كانوا رافعي رؤوسهم أو خافضيها.

والحال الرابعة: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: الأبصار زائغة لا تتحرك، أطرافها كأنها مسمرة مجمدة من هول ما هم فيه.

والحال الخامسة: ﴿وَأَفَعَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾: خلو من كل شيء - فراغ - كما يقولون عن الرجل الجبان: إن قلبه فارغ. قلبه خلو من كل شيء، وهؤلاء من هول القيامة، جعلهم كما وصفهم الله، قلوبهم كالهواء، ليس فيها تفكير ولا تدبير، من شدة هول الموقف.

أوصاف القرآن ليوم القيامة تجعل هذا اليوم يومًا عظيمًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦]، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، هذا هو هول اليوم العظيم الذي ينتظر الظالمين.

المراد بالظلم في هذه الآيات:

هل الظلم هنا هو الشرك، كما قال تعالى على لسان لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟

هل ظلم هؤلاء أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وعبدوا مع

الله أو من دونه آلهة أخرى لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، هل هذا هو الظلم؟

أم الظلم هو الاعتداء على خلق الله، على حرّات النَّاس، على أنفسهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم وذرائعهم؟

الظلم يشمل هذا وهذا، والله تعالى يحرم الظلم بمعنى الشرك، ويحرم الظلم بمعنى الاعتداء على خلق الله.

خطورة ظلم الضعفاء:

لا يجوز الإسلام أن يعتدي أحد على أحد، وخصوصًا العدوان على الضعفاء، وكلما كان الإنسان أضعف كان ظلمه أشد وإثمه أعظم.

ومما يروى في الحديث القدسي: «اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرًا غيري»^(١).

هناك من يظلم ولكن له قبيلة تسنده، له ظهر. كما يقول الناس: من له ظهر لا يضرب على بطنه. ولكن هناك من ليس له ظهر، وليس له سند. هذا ظلم من أشد الظلم، وعقابه من أشد العقوبات عند الله ﷻ.

كل أنواع الظلم محرّمة، ظلم النفس حتّى بالمعصية، كل هذا يدخل في الظلم، حينما أسكن الله آدم وزوجته الجنة قال له: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فالظلم

(١) رواه الطبراني في الصغير (٧١)، والأوسط (٢٢٠٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٠٦٦): رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه مسعر بن الحجاج النهدي، كذا هو في الطبراني، ولم أجد إلا مسعر بن يحيى النهدي، ضعفه الذهبي بخبر ذكره له. وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٥١)، عن علي بن أبي طالب.

هنا ظلم النفس بالمعصية، ولذلك حين أكل آدم وحواء من الشجرة: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أنواع الظلم:

الظلم أنواعه مختلفة، كما جاء في بعض الأحاديث: «ظلم لا يغفره الله: الشرك»، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

«وظلم لا يتركه الله: ظلم العباد بعضهم لبعض»، هذا لا يترك، لأن كل واحد متمسك بحقه، يقول: حقي حقي. لا يتنازل أحد لأحد يوم القيامة.

«وظلم يغفره الله: ظلم العباد فيما بينهم وبين ربهم»^(١).

كل أنواع هذه المظالم مرصودة يوم القيامة، مؤخرة إلى يوم القيامة.

إنذار الناس يوم يأتيهم العذاب:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أُنذر الناس كل الناس، أو أُنذر هؤلاء الظالمين؟! اللفظ يحتمل. وقد بعثه الله بشيراً ونذيراً، ولكن كما قلت: هذه الآيات في مقام الوعيد لا تقتضي التبشير إنما تقتضي الإنذار: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾، حينما يكون الناس في موقف الظلم، موقف الطغيان لا يليق بهم إلا الإنذار.

(١) رواه بمعناه البزار (٦٤٩٣)، وأبو داود الطيالسي (٢٢٢٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٨٣٧٩):

رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه وبقيه رجاله قد وثقوا على ضعفهم. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦١)، عن أنس بلفظ: «الظلم ثلاثة...».

والسورة حدثنا عن الظالمين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، وحدثنا عن عاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، ولذلك فاللائق بهذا الموقف، وبهذا المقام الإنذار، لكل مقام مقال، وهذا المقام يقتضي الإنذار لا التبشير.

طلب التأخير يوم القيامة إلى أجل قريب:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾: أين كنتم من قبل؟! حينما جاءهم العذاب، وحقَّت عليهم كلمة الله؛ قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، أمهلنا، أعطنا فرصة ثانية: ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، نجب دعوة التوحيد، ولا نشرك بك شيئاً، ونتبع الرسل، ولا نستكبر عليهم. هكذا نجد الناس يتمنون هذه الفرصة، حينما فاتتهم.

ينبغي أن يكون القول ويكون العمل في الوقت المجزي، إنما إذا قلت قولاً بعد فوات الأوان فإنه لا يجدي شيئاً، كما قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٦]، لا ينفعكم الصبر.

الصبر ينفع في وقت، وفي وقت لا ينفع، التمني ينفع في وقت، وفي وقت لا ينفع.

تمني التأخير حين الاحتضار وفي الموقف وبعد دخول النار:

بعض الناس حين يأتي الموت حينما يحتضر، يتمنى أن يمهله الله وقتاً آخر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ * وَأَنْفِقُوا

مِنْ مَا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩ - ١١﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

اتركني شهرًا، اتركني أسبوعًا، اتركني يومًا، اتركني ساعة، اتركني نصف ساعة، اتركني خمس دقائق، يتمنى أن يمهل أي وقت: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، انتهى الأجل فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، لا يستأخرون ساعة: أي لحظة.

وجاء أيضًا في سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٩٩، ١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

يتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا. قد كنت في الدنيا، وكانت أمامك الفرصة بعد الفرصة، لكنك لم تنتفع بها!

أحيانًا يتمنى الإنسان عند الموت، ويتمنى في يوم الموقف يوم القيامة، كما في هذه الآية: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، ويتمنى بعد أن يدخل النار ويصطلي حرّها وعذابها، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾، أعطنا فرصة أخرى: ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، نعظكم من العمر، ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، أعطيناكم عمر خمسين سنة، ستين سنة، سبعين سنة، ثمانين سنة، ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾، وحذركم وتلا عليكم آيات الله، ورغبكم ورهبكم، ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

بعض هذه التمنيات ردّ الله عليها بمثل هذه الآيات: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾، وبعضها لم يرد عليها: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

شَقَوْتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾
 قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]. انتهى الأمر، لم يعد هناك
 مجال للحديث، اخسئوا فيها ولا تكلمون.

الإنسان أمامه الفرصة في الدنيا أن يتوب من معاصيه، أن يثوب إلى
 رشده، أن يرجع إلى ربه، أن يقف على بابه، أن يقول ما قاله أبوه آدم
 وأمه حواء: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
 [الأعراف: ٢٣].

ولكن الإنسان ضيَّع هذه الفرصة، وجاء يوم القيامة يقول: ﴿ رَبَّنَا
 أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾، والله تعالى يقول في شأن هؤلاء: ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا
 لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

هم يقولون أخرنا، لكنهم حين يعودون ستغلب عليهم أنفسهم
 الشريرة، ويعودون إلى ما كانوا عليه.

قَسَمَ الْكَافَرُ بَعْدَ بَعْثِهِمُ بَعْدَ الْمَوْتِ:

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴾، رَدَّ اللَّهُ
 عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴾!!
 أتقولون هذا الآن ونسيتم أنكم حلفتُم بالأيمان المغلظة أنكم لن يزول
 عنكم ما أنتم فيه من نعيم، حتَّى ولو متم لن تدخلوا النار، ولن يعاقبكم
 الله!

بعضهم يقول: إنَّه لن يبعثهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ
 مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨].

والبعض قال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦]، حتّى ولو مت ورجعت، لأجدنّ خيرًا ممّا كنت فيه منقلبًا - خيرًا من الحديقة، من جنته هذه، سوف تكون آخرتي أحسن من الأولى!

هؤلاء مغرورون، غرّتهم أنفسهم، وغرّتهم الأمانى، وغرّهم بالله الغرور.

السكن في مساكن الظالمين وعدم الاعتبار بهلاكهم:

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾، سكنتم في مساكن الظالمين الذين هلكوا من الأمم السابقة، التي كفرت بالله، وكذبت رسله، وفعلت ما فعلت من مظالم ومآسٍ، حتّى نزل بهم عقاب الله، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

الظالمون سكنوا بعد ذلك، سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم كعاد وثمود، أما المؤمنون فاعتبروا.

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾:

لم يعتبر الظالمون والمشركون بدروس الماضين، لم يأخذوا درسًا لما حدث بمن قبلهم، فأصابهم ما أصاب من قبلهم: ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٦٠]، ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثْمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

أراكم الله كيف أهلك الظالمين: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ تبين لكم كيف نكلنا بهم وعذبناهم على جرائمهم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾:

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾، في القرآن الكريم، وحتى في الأمم السابقة؛ لأنّ هذا سيكون للظالمين في كل الأمم، كل الظالمين في الأمم سيؤخرهم الله ليومٍ تشخص فيه الأبصار، ليس يوم القيامة للظالمين فقط من أمة محمّد، بل كل الأمم السابقة منذ خلق الله آدم وإلى يوم القيامة، سيحشرون في هذا اليوم، وينال كل منهم عقابه، وكل منهم ضربت له الأمثال، وقصت عليه القصص، وجاءته العبر: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥] فلم ينفع كل هذا فيكم.

مكر الظالمين:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

هؤلاء الظالمون مكروا مكْرهم الفظيع لإبطال الدعوة، وكادوا كيدهم لقمع دعوة رسل ربهم، وللتخلص منهم، ولكن هذا المكر لم يغب عن الله وَجَلَّ .

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، الله يعلم مكْرهم، ويسمع ويرى ويسجل عليهم، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾، معلوم عند الله وَجَلَّ ، ولكن مكر الله أقوى من مكْرهم، وكيد الله أعظم من كيدهم، هو أعظم مكرًا وأسرع مكرًا: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، أسرع وأقوى، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، مكروا بالمؤمنين، ومكروا بأهل الحق.

المكر الضعيف:

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

هناك قراءتان: قراءة الجمهور: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾، وقراءة أخرى: (لَتَزُولَ)^(١).

(إن) في القراءة التي نعرفها - قراءة حفص هذه - نقول عنها: إن النافية، ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]، يعني: ما أنت إلا نذير.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾، يعني: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، فاللام هذه ﴿لِنَزُولٍ﴾، يسميها علماء النحو: لام الجحود. تأتي بعد (ما كان) أو (لم يكن)، ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٣٧]، نفي الشأن هذا لا يحصل، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، هذا لا يمكن أن يحدث، نفي الشأن ليس مجرد نفي الفعل، وهنا يقول: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، مكرهم هذا مكر ضعيف، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، أي في مقابل كيد الله، ومكر هؤلاء في مقابل مكر الله وعجل، لا يمكن أن تزول منه الجبال، وهذا دليل على أن دين محمد ﷺ، ورسالة محمد في ثبات الجبال، في ثبات هذه الشم العوالي الرواسخ، لا يمكن أن يزول بمكر الماكرين، ولا بكيد الكائدين، ولا بتأمر المتأمرين.

المكر العظيم:

وعلى القراءة الأخرى: (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ). هؤلاء يقولون: إن مخففة من الثقيلة، أي: وإن مكرهم لتزول منه الجبال،

(١) وهي قراءة الكسائي، انظر: النشر في القراءات العشر (٣٠٠/٢).

فمكرهم مكر عظيم شديد يهدُّ الجبال ويزلزلها، كما قال الله عن قوم نوح: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كُبَرًا﴾ [نوح: ٢٢]، هذا مكر عظيم يمكن أن تزول منه الجبال، كما نرى الآن مكر اليهود، ومكر الصليبيين، ومكر أعداء الإسلام، الذين يعدون الخطط، وينظرون إلى المستقبل، ويضعون خططاً لسنين عديدة، والمسلمون غافلون، مكر هؤلاء لتزول منه الجبال، ولكن هذا المكر حتى وإن كان تزول منه الجبال، ليس له عند الله قيمة؛ لأن مكر الله أقوى من مكرهم، وكيد الله أقوى من كيدهم: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

كيد الله أعظم: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢].

الله سبحانه لا يخلف وعده:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾.

إذا رأيت مكر الماكرين، وتآمر المتآمرين على الإسلام وأهله، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، والله وعد رسله بالنصر في الدنيا، وبعقاب أعدائهم في الآخرة ﷻ لا يخلف وعده، بخلاف الإنسان الضعيف، فإنه يخلف وعده.

لماذا يخلف الإنسان وعده؟ الإنسان يخلف وعده لسببين: إمّا لعجزه؛ لأنه لا يستطيع أن ينفذ ما وعد، وعد بأن يفعل كذا.. وبعد ذلك عجز عن تنفيذ الوعد، أو لكذبه، وعد ولم يصدق الوعد، والله ﷻ يستحيل عليه العجز، ويستحيل عليه الكذب: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾

[الكهف: ٩٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، الله سبحانه سينصر رسله، ولكن ينصرهم في الوقت الذي يشاء، إِنَّ اللَّهَ لَا يَعَجِلُ لِعَجَلَةِ أَحَدِكُمْ.

كان بعض الصحابة يأتون إلى النبي ﷺ يشكون إليه تسلط الكافرين عليهم، واضطهادهم لهم. خباب بن الارت، جاء يشكو إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، وقال: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ وكان له مولاة تعذبه وتؤذيه وتكويه بالنار.

فقام ﷺ وقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشَقُّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمَشِّطُ بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتَّى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

النصر آتٍ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، لا يمكن أن يخلف الله وعده، ولكن كل شيء بأوانٍ، كل شيء في وقته، كل شيء عنده بمقدار، كل شيء عنده بأجل مسمًى.

الله عزيز ذو انتقام:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، الله ﷻ عزيز غالب، لا يغلب ولا يغالب، صاحب العزة والقوة، المنيع الذي لا يقهر، وهو ذو انتقام، ينتقم من

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الارت.

أعدائه بما يشاء من الأسباب والوسائل، وفي الوقت الذي يشاء، وبالكيفية التي يشاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

المنتقم من أسماء الله وعجل:

الإمام ابن القيم يقول: «أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا، ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزير والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا، ومقترنًا بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حلیم، يا غفور، يا رحيم. وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه، والخبر عنه بما يسوغ لك، الأفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله، كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأنَّ الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنَّه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاءً ومنعًا، ونفعًا وضرًا، وعفواً وانتقامًا.

وأما أن يثنى عليه بمجرّد المنع والانتقام والإضرار، فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد، الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمه، فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه، ولا حامدًا له، حتّى تذكر مقابله»^(١).

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٦٧)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

وأنا وافقت ابن القيم مدّة من الزمن، وأنّ المنتقم ليس من أسماء الله، ولكن حينما تأملت في القرآن، وجدت أنّ صفة الانتقام وصف الله بها نفسه، فورد في عدّة آيات: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، فجاء فعل الانتقام بالفعل الماضي، وجاء بالفعل المضارع: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥].

وجاء أيضًا بصيغة: ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ في أربع آيات من القرآن الكريم: في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

وفي سورة المائدة: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

وفي سورة الزمر: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي أَنْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

وفي هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

وجاء بصيغة اسم الفاعل، ولكن جاء في القرآن بصيغة الجمع: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقَمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقَمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقَمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١]، فجاء بهذه الصيغة صيغة الجمع: ﴿مُنْقَمُونَ﴾، فدلّ هذا على أنّ الانتقام يوصف به الله ﷻ، وهو ينتقم ممّن يستحق الانتقام، لا ينتقم من مظلوم، لا ينتقم من مستقيم، لا ينتقم من إنسان صالح، إنّما ينتقم من الجبارة

الَّذِينَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، الَّذِينَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ،
الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ آلَهِةٌ فِي الْأَرْضِ - لَا يَسْأَلُونَ عَمَّا يَفْعَلُونَ - هَؤُلَاءِ
يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُمْ؛ لِيَرِيَهُمْ حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يَسَاوُونَ عِنْدَ اللَّهِ شَيْئًا،
وَأَنَّ اللَّهَ لَهُم بِالْمَرْصَادِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ
* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ * وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ
ذِي الْأَوْنَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦ - ١٣].

هذا هو الانتقام: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ إِنَّ رَبَّكَ
لِالْمَرْصَادِ ﴿[الفجر: ١٣، ١٤]، يراقب كل شيء، يسمع ويرى، ثم ينزل عقوبته
بالقوم الظالمين.

تبديل الأرض والسموات:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾.

الانتقام قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ
غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، هذا يوم عظيم، تبدل الأرض غير الأرض، وتبدل
السموات غير السموات. هل تبدل ذوات الأرض وذوات السموات؟ أم
تبدل أوصاف الأرض أو أوصاف السموات؟

هل توجد أرض غير الأرض تمامًا، وسماء غير السماء تمامًا؟ أم
الأرض هي الأرض، ولكن أوصافها تغيرت؟ والسماء هي السماء، ولكن
أوصافها تغيرت؟

حين تقول: تركت فلانًا من سنين، ثم لقيته فوجدت رجلًا غير
الرجل وإنسانًا غير الإنسان. هو هو، ولكن تركته شابًا فوجدته شيخًا،

تركته مستقيم الظهر فوجدته محني الظهر، تركته أسود الشعر فوجدته أبيض الشعر.

قد يكون تغيّر سلوكه، كان طالحًا فأصبح صالحًا، كان منحرفًا فأصبح مستقيمًا، أو بالعكس، فهذا اسمه تغيير الأوصاف، فهل تبديل الأرض غير الأرض بمعنى تغيير أوصافها؟ أم أنّ الأرض تغيّرت تمامًا، وأصبحت أرضًا أخرى، والسماء أصبحت سماءً أخرى؟!

أبدًا هي هي، ولكن أوصافها تغيّرت: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، أصبحت غير ما كانت في الزمن الماضي، السماء قد طويت، والشمس كورت، والنجوم انكدرت، والبحار سجرت، والبحار فجرت.. إلى آخر هذه الأشياء، فتغيّرت الأوصاف.

وعلى كل حال سواء تغيّرت الذات، أو تغيّرت الصفات، فهذا شيء عظيم أن تبدل الأرض غير الأرض، وأن تبدل السماوات غير السماوات، هذا شيء هائل، هذا ما ينتظره الناس في ذلك اليوم العظيم: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

البروز لله سبحانه:

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

برزوا، أي: انكشفوا. لم يعد هنالك شيء يستر أحدًا، كل شيء مكشوف، أجسامهم مكشوفة، وسرائرهم مكشوفة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، كل شيء انكشف: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿[غافر: ١٦]، مَنْ الَّذِي يَدَّعِي الْمُلْكَ؟ هَاتُوا الْمُلُوكَ الْآبَاطِرَةَ
وَالْقِيَاصِرَةَ وَالْأَكَاسِرَةَ وَالْجَبَابِرَةَ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

الواحد القهار:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، الواحد: المتفرد بالربوبية، الذي ليس له
شريك ولا ند ولا مثل ولا شبهة، ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ
مِّنَ الدَّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، الله الواحد الأحد.

والقهار: الغلاب الذي يقهر ولا يقهر، ولا يقف أمام قدرته شيء، ولا
يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هذا هو القهار. وهنا جاء هذا
الاسم في وقته وفي مكانه وفي مقامه.

الرد على دعاوى المبشرين والمستشرقين:

المبشرون والمستشرقون يقولون: إِنَّ إِلَهَ الْمُسْلِمِينَ إِلَهَ عَنفٍ، وَإِلَهَ
الْمَسِيحِيِّينَ إِلَهَ مَحَبَّةٍ وَإِلَهَ رَحْمَةٍ، إِنَّمَا إِلَهَ الْمُسْلِمِينَ إِلَهُ شِدَّةٍ وَإِلَهَ عَنفٍ،
فوصف نفسه بالجبار، ووصف نفسه بالقهار.

وهذا في الحقيقة افتراء على الإسلام، وافتراء على القرآن؛ لأنَّ ربنا
وصف نفسه بالجبار في آية واحدة في القرآن، في أواخر سورة الحشر:
﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، مرة واحدة، وهو جبار على
المتجبرين، ووصف نفسه بالقهار في عدة آيات، وكلها جاءت في
موضعها: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]،

﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

هنا يقول سبحانه: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، حتَّى لا يطمع الطامعون من الذين يظنون أنَّ آلهتهم تشفع لهم يوم القيامة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، وليكونوا لهم شفعاء يوم القيامة، هذا كله باطل، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، لا يشفع أحد إلا بإذن الله، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ولا يشفعون إلا لأهل التوحيد، وليس هناك غيره، هو ملك هذا اليوم: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، هذا القهر في هذا المقام مفهوم ومعقول، وجاء في مناسبتة، وجاء في مكانه.

أما القرآن فهو يصف الله ﷻ بالرحمن الرحيم، أرحم الراحمين، خير الراحمين، كم تكررت في القرآن أرحم الراحمين على لسان الأنبياء؟ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وفي مائة وثلاث عشرة سورة تبدأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، والفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١-٣]، ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

نحن نبدأ أكلنا وشربنا وحياتنا بالبسملة، نقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)

(الرحيم)، ليشيع الإسلام جو الرحمة بين المؤمنين، فالزعم بأنَّ إله المسلمين إله شدة وعنف، زعم لا أساس له.

حال المجرمين يوم القيامة:

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾، يوم القيامة، يوم يأتي النَّاس العذاب، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، يوم البروز لله الواحد القهار.

ذكر الله تعالى للمجرمين أحوالاً ثلاثة:

الأولى: أَنَّهُمْ مُقَرَّنُونَ فِي الْأَصْفَادِ.

والثانية: أَنَّ سَرَابِيلَهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ.

والثالثة: أَنَّ النَّارَ تَغْشَى وُجُوهَهُمْ.

وقد ذكر ﷺ أولاً وصفهم بالإجرام، لأنَّ ما كسبوه من جرائم في اعتقادهم، وفي أعمالهم، وفي إفسادهم في الأرض، هو السبب فيما ينالون من عقاب.

وقوله تعالى في الحالة الأولى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾، بعضهم مقرون ببعض في القيود والأغلال، كما نرى المجرمين في الدنيا حينما يساقون للمحاكمة، حينما يقبض عليهم متلبسين، يربطون بالسلاسل والأغلال والقيود، كما جاء في سورة الرحمن: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، وفي سورة غافر: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيَّ اعْتَنَقَهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، هكذا يعاملون بشدة وقسوة. هذه هي الحالة الأولى للمجرمين.



ثياب المجرمين:

﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾.

والحال الثانية: سراويلهم: جمع سربال، أي ثيابهم وقمصهم التي تلامس أجسادهم من قطران، القطران: هذا مركب كيماوي يستخرج من بعض الأشجار، فيتكون منه هذا المركب، أسود اللون، منتن الرائحة، شديد الحرارة، سريع الاشتعال، كانوا يدهنون به الإبل الجربى، لحرق الجرب بحدّتها وحرّها، فهذا القطران سراويل المجرمين - ثياب المجرمين - من هذا القطران، والمراد: أنّ القطران يستر أجسادهم كالثياب، وأنّ قمصهم المتصلة بأجسادهم اللاحقة بهم نيران مشتعلة، فالنار تحوطهم من كل ناحية في أجسامهم.

وجوه المجرمين:

﴿وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾.

ولكن السراويل أو القمصان لا تغطي الوجوه عادة، فتجيء الحال الثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾، أي: النار تستر وجوههم كما ستر القطران الملتهب أجسامهم، ووجه الإنسان هو أعز شيء عليه في جسمه، وهو أحرص ما يكون على حمايته، وإذا كانت تغشاه النار، فما بالك بسائر الجسم؟! كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤]، المفروض في الإنسان أن يبقى بكل شيء إلا بوجهه، إنّما أن يبقى بوجهه معناه الهلاك المحقق، فهنا تغشى وجوههم النار، تعلوها وتغطيها النار، تغطي هذه الوجوه وتعلوها النار.

الجزاء العادل:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

لماذا هذا كله؟ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١]، هذا يوم الجزاء العادل، هذا يوم ينال كل امرئ نصيبه ممّا يستحقه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، لا تظلم نفس شيئاً، ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، يحاسب كل إنسان على الصغير والكبير، والنقيير والقطمير.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، ما عملت، خصوصاً ما عملت من سوء؛ لأنَّ المقام مقام وعيد، لا يتحدث عمّا عملت من خير، كما في مقام آخر: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

هناك في آل عمران: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾، وهنا: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾، ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]، ما كسبت الأنفس من سوء، يجزيها الله تعالى عليه، فهذا يوم الجزاء على سوء الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

سرعة الحساب:

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

الله سبحانه أسرع الحاسبين، أي سرعة هذه؟ عرف الناس سرعة

الحساب في عصرنا عن طريق الكمبيوتر، يسمونه الناس بالحاسب الآلي أو الحاسوب أو المحساب أو الحاسبة؛ لأنه سريع الحساب! هذا أرانا شيئاً من سرعة الحساب الإلهي كيف يكون، كيف يحاسب الملايين، بل البلايين من أول خلق آدم إلى يوم القيامة، سوف يحاسبهم في وقت واحد كيف؟

أرانا ربنا سبحانه بعض الآيات لنعرف كيف يكون الحساب يوم القيامة.

ومعنى أنه سريع الحساب: أنه ليس هناك مجال لأن يقول أحد: أمامي ألف سنة أو أكثر حتى ينتهي الحساب، وأنا مستريح إلى أن ينتهي. لا هو سبحانه سريع الحساب، الحساب آتيك أسرع ما يكون، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

البلاغ الإلهي:
﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾.

ثم ختم الله ﷻ هذه السورة، أو هذا الشوط من السورة بهذه الآية الكريمة، هذا البلاغ الإلهي: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾، ﴿ هَذَا ﴾، إشارة إلى القرآن الكريم، أو هو إشارة إلى سورة إبراهيم، أو هو إشارة إلى هذا الشوط من السورة، من هذا القسم الذي فسرناه من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، إلى آخر السورة، كل هذا محتمل.

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾، يجب أن يبلغ به الناس، وقد بلغ الرسول ما أمره

الله به: ﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، هذا بلاغ إلهي يجب أن تسمعه الآذان، وتعيه القلوب، هذا بلاغ للناس، ولا يبلغ الله الناس إلا ما يهمهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم، ما ينتفعون به في الآخرة والأولى؛ لأن الله ليس له حاجة إلى خلقه، الله سبحانه غني عن العالمين، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، الله يبلغ خلقه كل ما فيه خيرهم ومصلحتهم في الدنيا والآخرة.

الإنذار بالبلاغ:

﴿وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾، ليخوفوا به، ليعلموا أنهم إذا عصوا الله وعجل، فإنما ينتظرهم هول أي هول، وعذاب أي عذاب، من هنا جاء الإنذار ولم يذكر التبشير، ﴿وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾.

الحقيقة العظمى:

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾.

ليعلموا هذه الحقيقة التي أنزل الله بها الكتب، وبعث الله بها الرسل، وحقت بها الحاقة، وقامت بها القيامة، ووقعت بها الواقعة، وقامت سوق الجنة والنار من أجل هذه الحقيقة العظيمة: أن الله إله واحد، لا ينبغي ولا يجوز أن يعبد إلا هو، بهذا بعث كل الرسل، وبهذا نزلت كل الكتب، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].



تذكر أولي الألباب:

﴿وَلْيَذْكُرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

يجب أن يتذكروا ما عليهم من واجبات نحو أنفسهم، ونحو ربهم، ونحو أسرهم، ونحو إخوانهم، ونحو أمتهم، ونحو الإنسانية كلها، بل نحو الكون كله، نحو الحيوان، ونحو البيئة.. يجب أن يتذكروا هذا كله، الأنبياء جاؤوا ليذكروهم: ﴿فَذِكْرٌ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

لكن ليس كل إنسان يتذكر، الذي يتذكر وينتفع بالتذكيرة هم أولو الألباب، أصحاب العقول، أما الذين فقدوا عقولهم، أما الذين ساروا وراء أهوائهم وشهواتهم كالأنعام بل أضل سبيلاً، هؤلاء لا ينتفعون بعقولهم، إنما ينتفع بالعقول أولو الألباب.

ذكر أولي الألباب في القرآن:

والله سبحانه ذكر أولي الألباب في ست عشرة آية من القرآن الكريم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿وَأَتَّقُوا يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩، آل عمران: ٧]، ﴿لَا يَنْتَ لِلْأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠، الطلاق: ١٠]، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿إِنَّمَا يَنْذَكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، ﴿وَلْيَذْكُرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِرَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِرَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِرَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٤].

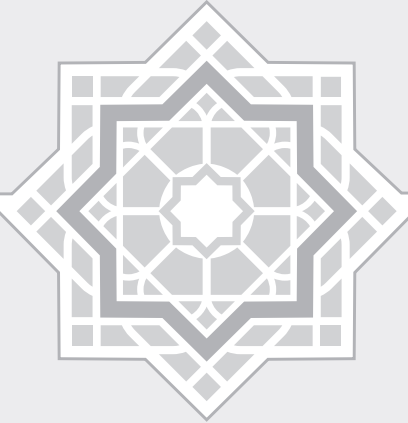
أولو الألباب هم أصحاب العقول، ذلك أن دين الإسلام جاء يخاطب العقل أول ما يخاطب، هذا الدين دين العقول، الذين يزعمون أن الدين يغيب عقول الناس - يخدر عقول الناس - حتى زعم الماركسيون: أن الدين أفيون الشعوب، يخدر الشعوب فلا تفكر، ولا تدبر أمرها، ولا تعقل ما يجب عليها، فإن صح هذا في أي دين محرف لن يصح في دين الإسلام، الإسلام جاء يخاطب العقول، فهو دين العقل والنقل، ولهذا ختم الله هذه السورة بهذه الكلمة: ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

ما أشد حاجتنا أن نتذكر ما ذكرنا الله به في هذه السورة الكريمة، وفي هذا الشوط الأخير من هذه السورة، التي ينبغي حينما يقرأه المسلم أو يسمعه أن تذرف منه العيون، وتجف له القلوب، وتقشعر منه الجلود: ﴿ نَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

اللهم أكرمنا بالقرآن، وانفعنا بالقرآن، واجعلنا من أهلك أهل القرآن، أهل الله وخاصته، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



رقم الصفحة	الحديث
	أ
٢٤٥	آلله أمرك بهذا؟ قال لها: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا
١٣١	إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم، فقد تُودّع منهم
١٥٩	إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنان، وفوقه عرش الرحمن
٢٣٧	إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به
١٧٨	إذا وُضع العبد في قبره، وتولّى عنه أصحابه
١٧٥	اذهبوا فأنتم الطلقاء
٢٥٤	اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرًا غيري
١١٩	أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل
	اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي.
٢٤٣	اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، سره وعلايته
٢٤٣	اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت
٢٢٣	اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه
٢٤٤	اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك
٤٢	اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن

رقم الصفحة	الحديث
٤٣	اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات، وملء الأرض
٨٥	إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة
٢٤٨، ١٢١	إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته
١٦٦	إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها (صيفًا ولا شتاءً)، وإنها مثل المسلم
١١٣	أنا العاقب الذي ليس بعدي نبي
٧٥، ٥	الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل، فالأمثل من الناس
١٣٥، ٤٨	إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى
ب	
٤٨	بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل
ت	
٢٢٣، ٥	تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي
ح	
٨٥	الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُشور
٨٥	الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات
د	
١٧٥	دخل النبي مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا
٢٢١	الدعاء مخُّ العبادة
ر	
٢٤٣	ربّ، اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني



رقم الصفحة	الحديث
١٩٨	رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مَلَأَ السَّمَاوَاتِ، وَمَلَأَ الْأَرْضَ، وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ
١١٩	رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ
س	
٨٥	سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا
ظ	
٢٥٥	ظَلَمَ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ: الشُّرْكَ، وَظَلَمَ لَا يَتْرَكُهُ اللَّهُ: ظَلَمَ الْعِبَادَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ
ع	
٧٣	عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ
ف	
٤٧	فَضَّلْتَ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جِزَاءً، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا
ك	
٢٦٣	كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يَحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمَنْشَارِ
١٣٥	كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
ل	
١٠١	لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ
٨٤	لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ
م	
١٩٣	مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ
٣٠	مَا أَنَا بِقَارِيٍّ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي

رقم الصفحة	الحديث
١٧٥	ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟
٧٦	ما يصيبُ المسلمُ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ، ولا حزنٍ، ولا أذى
١٧٨	المسلم إذا سئل في القبر: يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله
١٣٥	من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌّ
٤٢	من اقتطع شبرًا من الأرض ظلماً طَوَّقه الله إِيَّاه يومَ القيامة من سبعِ أَرْضِينَ
ن	
٤٦	نارُكم جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم
هـ	
٣٦	هذا سبيل الله... هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان
١٨٦	هل أصابك نعيم قط؟
و	
٧٠، ٣١	وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه خاصّة، وبُعِثَتْ إلى النَّاسِ عامّة
ي	
١٣٢	يُوتَى بالموت كهَيْئَةٍ كبَشٍ أَمْلَح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة
٤٧	يُوتَى بأنعم أهل الدُّنيا من أهل النَّار يوم القيامة

* * *



فهرس الموضوعات

- ❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤
- ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥
- مقدمة ٧
- تقسيم علم التفسير إلى قسمين: ٨
- النوع الأول: التفسير الموضوعي ٨
- النوع الثاني من أقسام التفسير: التفسير التحليلي ٩
- القواعد الحاكمة للتفسير ١١
- ١ - تفسير القرآن بالقرآن ١١
- ٢ - تفسير القرآن بصحيح السُّنة ١٢
- ٣ - الاهتداء بتفسير السلف ١٢
- ٤ - تدبُّر القرآن بعقليتنا المعاصرة ١٣
- ❖ بين يدي السورة ١٥
- هل أسماء السور توقيفية؟ ١٥
- السور ذوات ﴿الر﴾ ١٥
- التأمل في أسماء سور القرآن ١٦



- ❖ الدرس الأول: الكتاب المنزل: وظيفته وموقف الناس منه ١٧
- الحروف المقطعة في بداية بعض سور القرآن العظيم ١٧
- انتقاء الحروف المقطعة ١٨
- السُّرُّ في عدم جمعه في مصحفٍ واحد ٢٠
- جمع القرآن في عهد أبي بكر ٢٠
- جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه ٢٢
- هل الكتاب غير القرآن؟ ٢٢
- أسماء القرآن وأوصافه ٢٤
- إنزال الكتاب ٢٧
- كيفية نزول القرآن الكريم ٢٨
- تفسير ابن عباس لكيفية نزول القرآن الكريم ٢٨
- نزول القرآن وتنزلاته ٢٩
- عدم توقع الرسول نزول القرآن عليه ٣٠
- عالمية الرسالة المحمدية ٣١
- الحكمة من جمع الظلمات وإفراد النور ٣١
- كثرة الظلمات وتراكمها ٣٢
- الحكمة من إنزال الكتاب على النبي ﷺ ٣٢
- دلالة قوله سبحانه: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾ ٣٤
- دلالة كلمة الرب في القرآن الكريم ٣٤
- صراط العزيز الحميد ٣٥
- إضافة الصراط في القرآن الكريم ٣٥
- إضافة الصراط إلى اسمين من أسمائه الحسنی ٣٦
- سنة القرآن في إضافة اسم من أسماء الحمد بعد اسم «العزيز» ٣٧



- ٣٧..... سِرُّ اقتران اسم العزيز بالحكيم
- ٣٨..... من هو العزيز الحميد؟
- ٣٩..... عناية القرآن بالثناء على الله وَعَلَيْهِ
- ٣٩..... تكرر لفظ الجلالة وأسماء الله الحسنى وصفاته وأفعاله في القرآن
- ٤٠..... سِرُّ تقديم الخبر في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
- ٤١..... السماوات والأرض في القرآن الكريم
- ٤١..... المراد بالمثلية في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾
- ٤٢..... ما السماوات السبع؟
- ٤٣..... معنى كلمة «الويل» في القرآن
- ٤٤..... معنى الكفر
- ٤٥..... مقابلة الكفر بالشكر
- ٤٥..... مقابلة الكفر بالإيمان
- ٤٥..... دلالة كلمة الكفر عند الإطلاق
- ٤٦..... العذاب الشديد للكفار في الآخرة
- ٤٦..... العذاب الحسي والمعنوي
- ٤٦..... اختلاف وصف عذاب النار في القرآن
- ٤٧..... أسباب الضلال
- ٤٧..... ١ - استحباب الحياة الدنيا على الآخرة
- ٤٨..... سبب جحود هرقل لرسالة النبي ﷺ
- ٥٠..... موانع الإيمان واتباع الحق
- ٥٠..... ٢ - الصد عن سبيل الله وَعَلَيْهِ
- ٥١..... سبيل الله وَعَلَيْهِ
- ٥١..... ٣ - ابتغاء العوج لسبيل الله سبحانه

- الضلال البعيد ٥٢
- الضلال الدنيوي والديني ٥٢
- ضلال الكفار البعيد ٥٣
- تيسير أسباب الهداية ٥٤
- تعنت قريش في طلب نزول القرآن بالأعجمية ٥٤
- دلالة كلمة «لسان» في القرآن ٥٥
- بيان الرسول ﷺ ٥٦
- الطريق إلى تبليغ الرسالة العالمية للناس ٥٦
- ترجمة القرآن ٥٧
- الإشادة بترجمة معاني القرآن للدكتور أحمد زكي حماد ٥٨
- معنى جديد في قوله سبحانه: ﴿بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ ٥٩
- علينا الدعوة وعلى الله تعالى الهداية ٦٠
- سنن الله في الهداية والضلال ٦١
- مناقشة أحد المفسرين المعاصرين في إرجاع ضمير «من» ٦٢
- سرُّ اقتران العزة بالحكمة ٦٤
- ❖ **الدرس الثاني: دعوة موسى ﷺ** ٦٥
- قصة موسى ﷺ في القرآن ٦٥
- موسى ﷺ أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن ٦٦
- حديث القرآن عن خاتم النبيين محمد ﷺ ٦٦
- عناية القرآن بقصة موسى ﷺ ٦٧
- قضية الرسل والرسالة في سورة إبراهيم ٦٨
- دلالة كلمة «لقد» ٦٨
- الآيات الدالة على ثبوت النبوة ٦٨



- ٦٩..... رسالة موسى إلى قومه وفرعون وملئه
- ٧٠..... الفرق بين رسالتي موسى ومحمد ﷺ
- ٧١..... التذكير بأيام الله تعالى
- ٧٢..... حاجة الناس إلى التذكير بأيام الله
- ٧٣..... المستفيدون من التذكير بأيام الله
- ٧٤..... دلالة صيغتي المبالغة في قوله سبحانه: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾
- ٧٤..... سرُّ تقديم الصبر على الشكر
- ٧٥..... تعرُّض أصحاب الرسالات للبلاء
- ٧٦..... التذكير بالنعم أصلٌ من أصول الرسالات
- ٧٧..... نسيان أكثر الناس نعم الله عليهم
- ٧٨..... النجاة من فرعون ملك مصر
- ٧٨..... السرُّ في تسمية العزيز بالملك
- ٧٩..... سبب اضطهاد بني إسرائيل
- ٨٠..... سوء العذاب
- ٨٠..... السرُّ في إضافة الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَذِجُون﴾
- ٨٠..... الفرق بين التقتيل والتذبيح
- ٨١..... مرجع الضمير في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾
- ٨٢..... ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: بلاء شديد ومحنة عظيمة، وأيُّ محنة أعظم من هذه؟!.....
- ٨٢..... إعلام موسى قومه بسنة إلهية
- ٨٢..... الإنسان بين الشكر والكفر
- ٨٣..... قوانين قرآنية
- ٨٣..... معنى الشكر وعناصره
- ٨٣..... شكر القلب

- شكر اللسان ٨٤
- حمد الله سبحانه على نعمه ٨٥
- شكر الجوارح ٨٦
- عقاب كفران المنعم ٨٨
- سلب نعمتي الأمن والغنى ٨٩
- نتيجة الإعراض عن سنن الله وشرعه ٩٠
- الله سبحانه غنيّ حميد ٩٢
- ❖ الدرس الثالث: دعوة الرسل ٩٤
- الالتفات من أسلوب القرآن البلاغي ٩٥
- حثُّ القرآن على الاعتبار بالتاريخ والسير في الأرض ٩٥
- مصير الأمم المكذّبة ٩٦
- حاجة العقل البشري إلى هداية الوحي ٩٦
- خطأ الحواسِّ وتصحيح العقل لها ٩٨
- عجائب الطاقة الإنسانيّة ٩٩
- نعمة إرسال الرسل وموقف أقوامهم منهم ١٠٠
- الاستفادة من تاريخ الرسل وأممهم ١٠١
- القوم المهلكون ١٠٢
- والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ١٠٢
- الرسل سفراء عن الله وعِجَل ١٠٣
- مجيء الرسل بالآيات الواضحات ١٠٣
- موقف الأقوام المكذبة من دعوة الرسل ١٠٤
- الجمود العقلي للوثنيين ١٠٥
- دلائل الفطرة على وحدانية الله وقدرته ١٠٦



- ١٠٧..... حاجة الإنسان إلى المغفرة
- ١٠٨..... سر التعبير بـ«من» في قوله سبحانه: ﴿مَنْ ذُنُوبِكُمْ﴾
- ١٠٨..... التأخير إلى أجلٍ مُّسَمًّى
- ١٠٩..... حواجز مصطنعة
- ١١٠..... التقليد الأعمى
- ١١٢..... جواب الرسل على مطالب أقوامهم المكذّبين
- ١١٢..... تمييز الرسل بالوحي
- ١١٣..... النبوة اصطفاء من الله وَجَلَّ
- ١١٤..... عدم ردّ الرسل على جميع دعوى أقوامهم
- ١١٤..... المعجزات من عند الله وَجَلَّ
- ١١٥..... الاعتصام بالله والتوكل عليه
- ١١٥..... توكل الأنبياء على الله وَجَلَّ
- ١١٧..... الصبر والتوكل
- ١١٨..... مواجهة الإيذاء بالصبر
- ١١٨..... صبر الأنبياء على البلاء
- ١٢٠..... تدخلُ القدر الإلهي في مواجهة المتسلّطين
- ١٢١..... هلاك الظالمين
- ١٢٣..... سنن الله الثابتة
- ١٢٣..... سُنَّةُ التداول
- ١٢٤..... الوارثون للأرض
- ١٢٥..... لماذا ذكر الخوف هنا ولم يذكر الرجاء؟
- ١٢٥..... أهمية الخوف
- ١٢٦..... الوعد والوعيد

- ١٢٦..... من الذين طلبوا النصر والفصل بينهم وبين خصومهم؟
- ١٢٧..... إمهال الله للظالمين
- ١٢٧..... تزيين الأعمال السيئة للكافرين
- ١٢٨..... نتيجة الاستفتاح للكافرين
- ١٢٨..... الخيبة والخائبون
- ١٢٩..... المتجبرون في الأرض
- ١٢٩..... الأنبياء ليسوا جبابرة
- ١٣٠..... الجبروت في الأرض ليس من شأن المصلحين
- ١٣٠..... الوقوف في وجه الجبابرة المعاندين
- ١٣١..... عذاب الجبارين المعاندين
- ١٣١..... الآخرة لا موت فيها
- ١٣٢..... أوصاف العذاب في الآخرة
- ١٣٢..... مثل أعمال الكفار
- ١٣٣..... القرآن يضرب الأمثال لتوضيح الحقائق
- ١٣٣..... ما مصير هذه الأعمال يوم القيامة؟
- ١٣٤..... شروط قبول العمل
- ١٣٥..... مصير الأعمال التي افتقدت الإيمان
- ١٣٦..... شرط قبول العمل: أن يكون مؤسساً على الإيمان
- ١٣٦..... نتيجة أعمال الخير من الكافر
- ١٣٧..... مكافأة الكفار على عمل الخير
- ١٣٩..... ❖ الدرس الرابع: من مشاهد يوم القيامة
- ١٤٠..... خلق السماوات والأرض بالحق
- ١٤٠..... كلمة «رأى» في القرآن



- ١٤٠..... تنزُّه الله تعالى عن العبث والخلق دون غاية
- ١٤١..... الحياة الآخرة حقٌّ
- ١٤٢..... قدرة الله سبحانه على إذهاب الخلق والإتيان بخلقٍ جديد
- ١٤٢..... المراد بالخلق الجديد
- ١٤٢..... قدرة الله سبحانه على تغيير الخلق
- ١٤٣..... مناقشة الإمام الغزالي
- ١٤٥..... حوار بين الضعفاء والمستكبرين يوم القيامة
- ١٤٦..... تبرؤ الأتباع من المتبوعين
- ١٤٩..... لا مفرَّ من عذاب الله للأتباع والمتبوعين في الكفر والضلال
- ١٥٠..... الشيطان يخطب في جهنَّم
- ١٥٠..... وعد الحق
- ١٥١..... وعد الشيطان
- ١٥١..... ليس للشيطان سلطان على الإنسان إلَّا الوسوسة
- ١٥٣..... أوهام بعض النَّاس عن الجنِّ
- ١٥٤..... مكاييد الشيطان ومداخله على الإنسان
- ١٥٤..... استجابة أكثر النَّاس لوسوسة الشيطان
- ١٥٤..... براءة الشيطان من المستجيبين لدعوته
- ١٥٥..... كفر الشيطان بالشرك والمشركين
- ١٥٥..... عذاب الظالمين
- ١٥٦..... منهج القرآن في ذكر الوعد والوعيد
- ١٥٧..... دخول المؤمنين الجنة
- ١٥٨..... ارتباط الإيمان بالعمل الصالح
- ١٥٨..... مدلول كلمة الصالحات في القرآن

- مراتب المؤمنين في الجنة..... ١٥٩
- جريان الأنهار في الجنة والخلود فيها..... ١٥٩
- تحية أهل الجنة..... ١٥٩
- الجنة دار السلام..... ١٦٠
- ❖ الدرس الخامس: كلمتان وشجرتان..... ١٦٢
- ضرب الأمثال في القرآن..... ١٦٢
- الكلمة الطيبة..... ١٦٣
- الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله..... ١٦٤
- الكلمة الطيبة: القرآن الكريم..... ١٦٤
- الكلمة الطيبة: دعوة الإسلام..... ١٦٥
- الشجرة الطيبة..... ١٦٦
- أوصاف الشجرة الطيبة..... ١٦٧
- الصفة الأولى: رسوخ الأصل..... ١٦٧
- الصفة الثانية: علو الفروع..... ١٦٨
- الصفة الثالثة: تؤتي أكلها كل حين..... ١٦٨
- دلالة كلمة: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾..... ١٦٨
- بين كلمة الباطل وكلمة الحق..... ١٧٠
- بين النفع المادي والنفع المعنوي..... ١٧١
- المقابلة في القرآن الكريم..... ١٧٢
- الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة..... ١٧٣
- من شأن الباطل الزهوق والزوال..... ١٧٤
- من شأن الحق الثبات..... ١٧٤
- تثبيت المؤمنين بالقول الثابت..... ١٧٥



- ١٧٦..... إيتاء الحجة للمؤمنين على أعدائهم
- ١٧٨..... تثبيت المؤمنين بالقول الثابت في الآخرة
- ١٧٩..... إضلال الظالمين
- ١٨٠..... مشيئته سبحانه المطلقة لا تنفصل عن حكمته
- ❖ الدرس السادس: موقف العباد من نعم الله تعالى..... ١٨١
- ١٨١..... دلالة التعبير بقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾
- ١٨٣..... النعم قسمان: مادية ومعنوية
- ١٨٣..... أعظم النعم على العباد
- ١٨٤..... التعجب من أمر المُبدّلين نعمة الله كفرًا
- ١٨٥..... دار البوار
- ١٨٦..... الكبراء والزعماء الذين قادوا قومهم إلى الهلاك
- ١٨٧..... بين قادة الشر وقادة الخير
- ١٨٧..... اتخاذ الأنداد لله
- ١٨٨..... معنى اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾
- ١٨٩..... متاع المشركين الزائل
- ١٩٠..... وصية الله لعباده بإقامة الصلاة والإنفاق ممّا رزقهم سبحانه
- ١٩٠..... شرف العبوديّة لله ﷻ
- ١٩٠..... تمييز جماعة المؤمنين
- ١٩١..... أُمُران أساسيان في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم
- ١٩٢..... معنى إقامة الصلاة
- ١٩٢..... دلالة قوله سبحانه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾
- ١٩٣..... شمول معنى الإنفاق
- ١٩٤..... الإنفاق في السر والعلانية

- ١٩٤..... يوم الأنانية الفردية
- ١٩٥..... المبادرة إلى الإنفاق
- ١٩٧..... ❖ الدرس السابع: آفاق النعم
- ١٩٧..... تكرار كلمة: ﴿لَكُمْ﴾
- ١٩٨..... خلق السماوات والأرض
- ١٩٩..... نزول الماء من السماء أم من السحاب؟
- ٢٠٠..... إخراج الثمرات رزقًا للعباد
- ٢٠٠..... هل يخلق الله سبحانه بأسباب وسنن؟
- ٢٠١..... القوة المودعة
- ٢٠٢..... تسخير السفن في البحار
- ٢٠٤..... تسخير الأنهار
- ٢٠٤..... تسخير الشمس والقمر دائبين
- ٢٠٥..... تقدير الله سبحانه
- ٢٠٦..... عناية القرآن بالشمس والقمر دون غيرهما من الكواكب
- ٢٠٦..... تسخير الليل والنهار
- ٢٠٧..... تسخير الكون للإنسان ووجوب استفادة المؤمنين من هذا التسخير
- ٢٠٨..... إجابة السؤال بلسان المقال أو الحال
- ٢٠٨..... كثرة النعم
- ٢٠٩..... معرفة النعمة عند فقدها
- ٢٠٩..... نعمة اللقمة
- ٢١١..... عجز الإنسان عن الشكر
- ٢١٢..... الإنسان ظلوم كفار
- ٢١٢..... طبيعة الإنسان



- ❖ **الدرس الثامن: دعوات إبراهيم عليه السلام** ٢١٤
- إبراهيم النموذج الشاكر لله تعالى ٢١٥
- دعاء إبراهيم عليه السلام ٢١٥
- عناية القرآن بأدعية الأنبياء عليهم السلام ٢١٦
- المطلب الأول: الأمن للبلد الحرام** ٢١٧
- السرف في التعريف في سورة إبراهيم والتذكير في سورة البقرة ٢١٧
- الأمن من أعظم نعم الله على الإنسان ٢١٨
- الحدود الشرعية توفر الأمن للناس ٢١٩
- المطلب الثاني: حمايته وأبنائه من عبادة الأصنام** ٢٢١
- خطر الشرك على البشرية ٢٢١
- كثرة الأصنام المعبودة من دون الله ٢٢٣
- المطلب الثالث: التحذير من الأصنام** ٢٢٤
- الأصنام سبب في إضلال الناس ٢٢٤
- ضلال البشرية بعبادة الأوثان ٢٢٤
- أتباع إبراهيم ٢٢٥
- المراد بالمعصية ٢٢٥
- إشفاق إبراهيم على عباد الله ٢٢٥
- المطلب الرابع: إقامة الصلاة** ٢٢٧
- مكة وادٍ غير ذي زرع ٢٢٨
- البيت المحرم ٢٢٨
- إقامة الصلاة شريعة الأنبياء ٢٢٨
- دلالة قوله سبحانه: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ٢٢٩
- المطلب الخامس: مهوى الأفئدة** ٢٣٠

- المطلب السادس: الرزق من الثمرات ٢٣١
- تحقيق الحياة الطيبة ٢٣١
- شكر المؤمنين ٢٣٢
- ثناء إبراهيم عليه السلام على الله عجل ٢٣٢
- وضع المظهر في موضع المضمحل ٢٣٣
- نعمة الذرية الصالحة ٢٣٤
- الغلام الحليم والغلام العليم ٢٣٥
- مجيب الدعاء ٢٣٥
- المطلب السابع: إقامة الصلاة ٢٣٦
- سِرُّ التعبير بـ(من) في قوله: (ومن ذريتي) ٢٣٦
- حرص المؤمن على صلاح الذرية ٢٣٦
- المطلب الثامن: قبول الدعاء ٢٣٨
- معنى قبول الدعاء ٢٣٨
- كيف يتقبل الدعاء؟ ٢٣٨
- المطلب التاسع: طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين ٢٤٠
- استغفار إبراهيم لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ٢٤١
- دعوات جامعة ٢٤١
- احتفاء القرآن بدعوات إبراهيم ٢٤٢
- طلب الأنبياء المغفرة ٢٤٢
- ❖ الدرس التاسع: الظالمون يوم القيامة ٢٤٦
- مصير الظالمين ٢٤٦
- عاقبة الظلم ٢٤٧
- جزاء الظالمين في الدنيا والآخرة ٢٤٨



- ٢٤٩..... إجابة دعوة المظلوم
- ٢٤٩..... أخذ الظالمين بغتة
- ٢٥٠..... كمال العدل الإلهي
- ٢٥٢..... المقصود بالخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا﴾
- ٢٥٢..... حال الظالمين في الآخرة
- ٢٥٣..... المراد بالظلم في هذه الآيات
- ٢٥٤..... خطورة ظلم الضعفاء
- ٢٥٥..... أنواع الظلم
- ٢٥٥..... إنذار النَّاس يوم يأتيهم العذاب
- ٢٥٦..... طلب التأخير يوم القيامة إلى أجل قريب
- ٢٥٦..... تمني التأخير حين الاحتضار وفي الموقف وبعد دخول النار
- ٢٥٨..... قَسَم الكفار بعدم بعثهم بعد الموت
- ٢٥٩..... السكن في مساكن الظالمين وعدم الاعتبار بهلاكهم
- ٢٦٠..... مكر الظالمين
- ٢٦١..... المكر الضعيف
- ٢٦١..... المكر العظيم
- ٢٦٢..... الله سبحانه لا يخلف وعده
- ٢٦٣..... الله عزيز ذو انتقام
- ٢٦٤..... المنتقم من أسماء الله وَجَلَّ
- ٢٦٦..... تبديل الأرض والسموات
- ٢٦٧..... البروز لله سبحانه
- ٢٦٨..... الواحد القهار
- ٢٦٨..... الرد على دعاوى المبشرين والمستشرقين



- ٢٧٠..... حال المجرمين يوم القيامة
- ٢٧١..... ثياب المجرمين
- ٢٧١..... وجوه المجرمين
- ٢٧٢..... الجزاء العادل
- ٢٧٢..... سرعة الحساب
- ٢٧٣..... البلاغ الإلهي
- ٢٧٤..... الإنذار بالبلاغ
- ٢٧٤..... الحقيقة العظمى
- ٢٧٥..... تذكر أولي الألباب
- ٢٧٥..... ذكر أولي الألباب في القرآن
- ٢٧٩..... ❖ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- ٢٨٣..... ❖ فهرس الموضوعات

* * *

